

هنري توماس

دانالي توماس

أعلام الفن القصصي

ترجمة

عثمان نويه

مراجعة

محمد بدران

الكتاب: أعلام الفن القصصي

الكاتب: هنري توماس ، دانالي توماس

ترجمة: عثمان نويه

مراجعة: مُجَّد بدران

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم -

الجيزة جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ - ٣٥٨٦٧٥٧٦ - ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣



<http://www.bookapa.com>

E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دارالكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

توماس، دانالي / توماس، هنري

أعلام الفن القصصي / هنري توماس ، دانالي توماس، ترجمة: عثمان

نويه، مراجعة: مُجَّد بدران - الجيزة - وكالة الصحافة العربية.

٢٧٥ ص، ٢١*١٨ سم.

الترقيم الدولي: ٤ - ١٤٣ - ٩٩١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

أ - العنوان رقم الإيداع: ٤٦٩٢ / ٢٠٢١

أعلام الفن القصصي

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»



المؤلفان

- هنري توماس ودانالي توماس اسمان مستعاران للكاتبين الأمريكيين دكتور هنري توماس شنتكيند (Dr. Henry Thomas Schnittkind)

ودانا أرنولد شنتكيند (Dana Arnold Schnittkind)

- ولد هنري توماس شنتكيند سنة ١٨٨٨، وولدت دانا أرنولد شنتكيند سنة ١٩١٨.
- رغم ضخامة إنتاج الكاتبين وسعة انتشاره، ووفرة ما نشر من تعقيبات عليه، فقد لزم الناشرون والمعقبون الصمت عن سير المؤلفين ولعل ذلك كان احتراماً لرغبتهما، لأنهما فيما يبدو يؤثران أن يقرأ الناس لهما لا عنهما.
- كان هنري توماس تلميذاً للفيلسوف جورج سنتيانا في جامعة هارفارد وقد ألف وحده (تيسير الرياضة) و(تيسير العلم).

- كذلك انفردت دانا أرنولد شنتكيند بتأليف (المجاهدون في سبيل الله).

- اشترك الكاتبان في تأليف مجموعة شائقة من كتب السير، قدر لها ذبوع فريد في كافة أنحاء العالم وترجمت إلى مختلف اللغات، وهي: أعلام الفن القصصي، أعلام الفلسفة الغربية، القادة الدينيون، أفاذ العلم، مشاهير الحكام، عظماء الرجال، أعلام الموسيقين، فحول الشعراء، أقطاب النقش، شهيرات النساء. إلخ.
- تمتاز هذه السير بالحياة والحركة والتشويق مع الدقة العلمية، وهكذا وفقت إلى الجمع بين صدق العلم ورواء الفن.

المترجم

نصدير

اجتاز فن كتابة التراجم كما اجتاز غيره من الفنون تطورات كثيرة، وتعددت مذاهبه كما تعددت مذاهب الفنون، ومذاهب الأدب بنوع خاص.

فقد مضى حين من الدهر كانت فيه سير القدامى لا تتناول إلا بالتمجيد والإكبار، حتى ليخيل إلى القارئ أن أصحاب السير أنصاف آلهة، لا سبيل إلى اللحاق بغبارهم، أو إحراز ما أحرزوا من علم أو فن.

ولسنا ننكر أن هذا التقديس الذي لم يكن له مبرر في غالب الأحيان، قد صدر إلى حد ما عن دوافع نبيلة، وتقاليد كريمة، منها التنزه عن نبش قبور الموتى، وعدم التعرض لذكراهم بما يسوءهم، بعد إذ طواهم الموت، وصاروا بخيرهم وشرهم إلى حيث يرثى لهم الأحياء الذين كانوا يجدون عليهم ويحقدون، كما أن هذا التقديس يرجع كذلك إلى حد ما إلى ذلك الجلال والوقار الذي يسبغه الموت وبعد الإنسان في الزمان.

على أن الناس حين شب إدراكهم عن الطوق، من أثر ما. استحدثت من علم ومعرفة، قد تغير رأيهم في علوم القدامى ومعارفهم. واستتبع ذلك تغيراً في النظر إلى أشخاصهم وأسلوب تناول سيرهم.

وكذلك رأينا بعض كتاب السير في أواخر القرن الماضي^١ يجردون الأعلام القدامى مما أضفى عليهم من جلال جعلهم أقرب إلى الآلهة. وأبعد عن طبيعة البشر. ويحاولون تصويرهم تصويراً واقعياً، أو قل تصويراً بشرياً لا تصويراً أسطورياً.

وكان هذا يرجع إلى ما كشف تقدم العلم من أخطاء القدامى من جهة، وإلى ما استحدثت في علم النفس خاصة من نظريات التحليل النفسي من جهة أخرى.

ومن أسف أن هذا الاتجاه قد شابه ما يشوب كل انتقاص كامل على القديم من مبالغة

^١ حمل لواء هذه الحركة صمويل بتلر (١٨٣٥ - ١٩٠٢) وتابعه فيها برناردشو عليها في الأدب الإنجليزي

حركة التجريد من الخداع. Debunking Movement

وإسراف. فمزق الأقدمون أرباباً. لأن تمجيدهم قد أدى إلى تقديس نظرياتهم وعدم تطورها، مما عاق تقدم العالم قروناً طويلة. ويصدق هذا بنوع خاص على تقديس أرسطو وأثره في تعويق الفكر عن التقدم. بحيث وصف بعض كبار الكتاب أرسطو بأنه أعظم كارثة حلت بالعالم.

على أن "الحكمة ليست كلها جديدة، ولا حماقة كلها قديمة" كما يقول برتراند رسل. والمبالغة في التعيب، كالمبالغة في التمجيد أمر تحفه روح العلم الصحيح.

والطريق السوي هو أن تطبق مكتشفات علم النفس، وبخاصة التحليل النفسي، في دراسة السير، وهذه المكتشفات في ذاتها تهى عن الإسراف في المدح أو القذح، لأنها تنتمي إلى ميدان العلم لا إلى ميدان القيم.

وثمة أمر آخر على أعظم جانب من الأهمية، وهو أنه ينبغي لنا أن نزن أصحاب السير بموازين عصورهم، وعلى ضوء ما ساد بلادهم على أيامهم من تقاليد وطرائق في العيش وأساليب في تناول الحياة.

فمن غير الإنصاف مثلاً أن نزن جاليليو بميزان عصر نيوتن أو نزن نيوتن بميزان عصر أينشتين. وإلا كنا جاحدين لفضل أولي السبق، آخذين إياهم بارتفاع صرح المعرفة على يد أخلاقهم، عما كان على عهدهم، منكرين عليهم فضل السابقين والرواد.

فالخير إذن في التوسط بين الإسراف في أضفاء الجلال والإسراف في التعرية عن الجلال. وهذا ما توخاه في رأينا مؤلفاً تلك المجموعة من السير التي بين يديك. ففي كل سيرة تقويم نفسي للكاتب، وإن صيغ بأسلوب قصصي جذاب، تقويم على ضوء ما اكتنف عصره من ظروف وعقائد وطرائق في الحياة.

وإني أعتقد أن دراسة تراجم أعلام الفن القصصي لها قيمة خاصة. لأن القصص يعيش في داخل نفسه ويعيش في مجتمع.

فينفعل بما ينعكس عليه من حياة الجماعة ويكتب قصصه مرآة أو انعكاساً لهذا الانفعال.

ولهذا كانت سيرة القصص تفسيراً لبعض ما يكتب، وكانت كتابته تفسيراً لبعض جوانب سيرته. وهذا التجاوب بين نفس الفنان وبين آثاره تراه جلياً في هذه المجموعة من السير.

وما هو جدير بالذكر أن كثيراً من مكتشفات التحليل النفسي قد سبق إليها كتاب القصة

الأفذاذ عن طريق تأملاتهم الفلسفية. فإن الأستاذ فلوجل^٢ أستاذ علم التحليل النفسي بجامعة لندن سابقاً يستخدم بعض المشاهد من قصص الأعلام ليعرض بها بعضاً من أحدث نظرياته في التحليل النفسي عرضاً ملموساً ينبض بالحياة.

والكتاب الذي بين يديك يشتمل على سير عشرين كاتباً من أبرز كتاب القصة في العالم منذ ميلاد فن القصة الحديثة على يد بوكاشيو في القرن الرابع عشر حتى توماس هاردي في القرن العشرين. والكتاب العشرون ينتمون إلى مختلف الجنسيات. فمنهم الإيطالي والإسباني والإنجليزي والفرنسي والأمريكي والأرلندي والروسي. وقد صيغت سيرة كل كاتب في قالب قصة قصيرة قائمة بذاتها، تحمل في تضاعفها لمحات من خير كتابات صاحب السيرة. وفي ختام كل قصه ثبت بأسماء أهم مؤلفات الكاتب ليستطيع القارئ بعد إذ عرف أعلام الفن القصصي أن يوثق صلته بآثارهم على نحو مباشر. وذلك هو الهدف النهائي لهذا الكتاب. والكتاب يعتمد في تصوير شخصيات الأعلام على الحقائق المادية التي تؤدي إلى رسم الصورة حية ناطقة، تجمع بين الطرافة والفائدة. وتتناول الكاتب من حيث هو إنسان فتتعقب أخطائه وجهاده حتى تبوأ المكانة التي سلكته في الخالدين.

وبعد: فإذا كان بعض كتاب السير يتسترون على أخطاء الموتى تجملاً، وكان غيرهم يقتحم على الموتى قهورهم توفحاً، فإن منهج هذه المجموعة من السير التأدب في دخول قبور الموتى، ودراسة محتوياتها دراسة نزيهة القصد. ثم مغادرة القبور بعد لثم الأعظم العطرات.

مُجَّد بدران

^٢ في كتاب الإنسان والأخلاق والمجتمع. تعريب عثمان نويه. وهو من سلسلة الألف كتاب.

مقدمة المؤلفين

حينما استنحال الشاعر الصغير والترسكوت قصاصاً كبيراً، خجل من عمله الجديد. وكتب يقول "لن أنسب ويفرلي إلى نفسي فلست على ثقة من أنه يليق بمن كان مثلي من رجال القانون أن يكتب القصص" فقد كان القصص يعد في أيامه فرعاً منبوذاً من فروع دوحه الشعر. إذ كان يمثل الابن البغيض في الأسرة الأدبية.

كتب محرر مجلة أدنبرة يقول "أن القصص ليس بالسمك ولا اللحم. وليست له قيمة خلقية، لأنه مسرف في التسلية والترفيه".

أما اليوم فقد نما القصص واكتمل. لأنه أعطانا روائع تعد في صف أنبل أنماط الأدب. فالقصة الحديثة، حتى في أدنى مستوياتها، بساط سحري يملنا على النسيان المبارك. وهي بهذا تمنحنا المناعة على تحمل صروف الزمان، وهي في أسمى مستوياتها عرض متحرك. ملموس للفكر الفلسفي. وهي في أحسن صورها تجسيد نثري للملحمة الشعرية القديمة. قال أمرسون "كل قصة عظيمة مدينة لهومبروس"، فالقصة تشبه قصائد هومبروس في أنها لا تقتصر في أعلى مستوياتها على أن تكون نموذجاً للفلسفة كما تطبق في الحياة بل هي كذلك صورة أدبية تنظم كل الصور الأخرى- الشعر والتمثيل والتاريخ والسير والعلم والاجتماع والسياسة والمغامرة والدين والفن. فالقصة العظيمة اليوم- أو في أي وقت آخر- هي صورة كاملة للإنسان، صورة تشمل جسمه وعقله وروحه، وهي شيء آخر فضلاً عن كل ما ذكرنا تكشف عن إنسان واحد بنوع خاص، هو القصاص نفسه. فأجود جزء من القصة هو ذلك الذي يتجلى فيه القصاص.

ولم يكن هدفنا في روايتنا سيرة كل من القصاصين الذين يشتمل عليهم هذا الكتاب أن نقتصر على تصوير الرجل من الخارج، كما يرى من خلال حقائق حياته، بل أن نصور كذلك الرجل من الداخل كما يرى من خلال أفكار عقله. وقد سعدنا إذ وجدنا أن كل قصاص عظيم إذا نظر إليه من هذه الزاوية المزدوجة تراءى هو نفسه بطلاً لقصة عظمى.

هنري توماس

دانالي توماس

جيوفاني بوكاشيو

١٣١٣ - ١٣٧٥

كانوا يدعونه (جيوفاني الهادئ) لقدرة على الاحتفاظ بروح المرح والخير إذا أمت به الخطوب. وقد تطامنت له تلك القدرة العجيبة على أن ينقل إلى الناس بشاشته ومرحه. فهو إن كان في صحبة نسوة سئمن رتابة الحياة وتشابها جعل همه أن يرفه عنهن ويخرجهن من السأم. ولم يجد في العالم شيئاً أجلب للترفيه من قصة الغرام الجيدة. فقد لاحظ أن المرأة لا تبلغ أوج المتعة إلا إذا لعبت بنار العاطفة. فإن خشيت أن تحرق النار أناملها أصابت نفس المتعة تقريباً من قراءه أخبار نساء أخريات قد لعن بهذه النيران. وكان يقول: "أن هذا الحب بالتوكيل" يكاد يبعث كل النشوة التي يبعثها الحب المباشر. ولا يعرض صاحبه لشيء من مخاطره. فالذي تفعله النسوة المغامرات تحب غير المغامرات أن يتخيلن أنهن فاعلات مثله. وهكذا استطاع بوكاشيو بمحاولته تغذية خيال أحواته. الأبعد عن المغامرة أن يبدع فن القصة الحديثة.

وقصة بوكاشيو أشبه بصورة مصغرة لمجالي الطبيعة الإيطالية في فنتتها وتنوعها غير المحدود. ضحكات فضية في ليلة مقمرة، ومروج رزينة الجمال، وجداول تستلقي وقد تدافعت فيها الفكاهة، ومنعطفات على الطريق مفاجئة، واستشراف روائع لم تخطر على قلب، وزوابع الغيرة الثائرة، وسحب عابرة من الأسى الموقوت، وشمس الأخوة العالمية التي وسع عناقها كل شيء. هذه هي العناصر التي يبدع منها قصصه.

وإن عالمه لعالم شديد اليقظة، يحف به مجد الشمس في الظهيرة وأرض القرون الوسطى زاخرة بشخوص أحياء شرايينهم مليئة بالدماء.. من رجال ونساء يتحدثون عن طبع ويجبون في اشتها، بحيث أننا لا نزال نراهم ونسمعهم وتستمع بهم من خلال تلك القرون التي تفصل عالمهم من عالمنا. فقد كانت قصص بوكاشيو تصور الحياة في أمانة وصدق، حتى ليقول عنه أحد النقاد "إن الله حين خلق جيوفاني قد خلق العالم مرة ثانية".

كان جيوفاني بوكاشيو، ابناً غير شرعي لتاجر من فلورنسا. وقد ولد في عصر ديني، عصر دانتي (١٣١٣). وما كاد يلحن صوفية الكنيسة حتى استبدل بما واقعية الحياة، وسار متهاوناً في تعلمه بالمدرسة. فما هو إلا أن تذوق الآداب القديمة تذوقاً سريعاً ثم تتلمذ في عامه العاشر لباريسي من رجال الأعمال وصار بعد بضع سنوات وكيلاً تجارياً منتقلاً لأبيه ولكن به إلى القراءة هماً وعن التجارة صدوقاً ويقول أبوه شاكياً (أن الشقي الصغير ليشتري من الكتب أكثر مما يبيع من السلع) كان تلميذاً بطبعه فأصاب من العلم بالأدب ما لم يصب معظم خريجي الجامعة في عصره. ولم يقف عند توثيق صلته بالأدب، فقد وثقها بالحياة أيضاً. فاستوت كفايته في قرض الشعر، وحذقه أفانين الغزل. وهام بصحبة الكتب كما هام بصحبة النساء وأما تجارة بوكاشيو (فليعن بها أبي الذي يجري في عروقه الذهب المذاب أما عروقي أنا فيجري فيها الدم الأحمر).

فلما خاب أمل الوالد في أن يجعل من ولده رجل أعمال، قرر أن يجعل منه محامياً. فبعث به إلى جامعة نابولي، وهناك جعل جيوفاني يجد في أعداد نفسه لكل شيء خلا الدراسات القانونية، وكان أبوه يمنحه فضلاً من المال، فشرع يؤلف ما بين نفسه وبين ثمار المعرفة غير المألوفة، والثمار المحرمة منها خاصة، وكان شباب عصره الأميل منه إلى الجد، ينقبون عن أسرار الجحيم والمطهر والجنة. أما بوكاشيو فقد أضاف إلى الأسرار الثلاثة المقدسة سرّاً رابعاً، وكان هذا السر عنده يفوق الأسرار جميعاً في أهميته.. هو سر الأرض لأنه يفوقها جميعاً في إنسانيته. ذلك بأن دانتي وبتارك قد لفتنا العالم إلى الحب الروحي، حب بياتريس ولورا، فوجه بوكاشيو بصر قلبه إلى حب مادي لماريا، وكانت ابنة غير شرعية لملك صقلية. وكان في عامه الثامن والعشرين حين وقع في أسر هذا الغرام.

وقد أطلق عليها ذلك الاسم الشعري Fiammetta ومعناه (الذهب الصغير) وألقى بنفسه في غير حذر يلتمس الدفء خلسه من نار حبها. غير أنه أجزل لها المكافأة على مودتها فكتب باسمها قصة وخلدها إذ جعلها من الشخصيات الرئيسية في العشرية (ديكاميرون) Decameron.

ومع أنه قد أخلص نفسه لهذه البقعة وهذه اللحظة فهو لا يزال ابناً أميناً لعصره شديد الاهتمام بالحياة الأخرى. فكتب سيرة حياة دانتي ولكن الكتاب فشل. ذلك بأن بوكاشيو كان قد أوغل في الملهة البشرية بحيث لم يفهم ملهة دانتي الإلهية. فإن روحه لفي عمى عن اجتلاء صورة واضحة للرجل الذي حاول أن يصفه. فهو يعجب بشعر دانتي لكنه لا يحفل بلا هوته. فإذا حاول أن يبعث الحياة في دين دانتي لم يبتعث غير دخان غامض مضطرب فهو يشير إلى اللاهوت بـ (شعر الله) لكنه في ريب من وجود الله فارتاب في حقيقة شعره فجاءت (حياة دانتي) نغماً جميلاً في الأدب الإيطالي لكنه نغم غير متميز، هو محاولة لتمجيد عقيدة القرون الوسطى قام بها رجل لا يؤمن بها في قرارة نفسه.

واتبع بوكاشيو (حياة دانتي) بكثير من المحاولات الأدبية الكبرى واستمر يعزف لحناً غير متميز كان أسلوب عصره ثقيلاً مصطنعاً مزوقاً ولكن بوكاشيو بسيط صادق غير متكلف. فإن حاول التصنع كما يفعل معاصروه أصيب بالفشل.

فنثر عصره المتكلف وشعر عصره المهول كانا غريبين في فمه الضحوك وقد كتب قصة طويلة يظهر بها علمه هي فيلوكولو Filocolo فمضت القصة تتعرج كأنها نمر طويل بطيء يتعثر بين شيطان من الطين الثقيل. فهي تخلو من الجمال خلواً تاماً ذلك بأن بوكاشيو لم يكن حتى الآن قد تعلم الكتابة بالأسلوب الصادق الطبيعي الذي يستخدمه في حديثه، فهو ينجح إلى توريط نفسه في تلك العبارات المعقدة التي يصطنعها المتعاملون. من ذلك قوله (الناس الأولى في فجر حياتهم قد اعتدل شرع عقولهم للرياح السارية من المروحة الذهبية التي صنعت من ريش ولد سيثريا) حين يكون كل ما يريد قوله (الشباب الذين يعيشون) وفي فيلوكولو لا يقبل المساء في هدوء قط وإنما يقبل (إذ تندر الأبواق. وتتألق الشمس الغاربة بينا جياد أبولو المتوثبة وقد استشعرت الحر من جهادها طول النهار تدفع بجسومها الملتهبة في أمواه الخيطات الغربية). وأشخاص هذه القصة مخلوقات هائلة لا تكلمنا قط في صوت طبيعي بل تصيح بنا دائماً من مكبر صوت. وهم لا يستطيعون أن يطلبوا جرعة ماء دون إلقاء خطاب طويل مزهر عن ظمئهم فلغة بوكاشيو لا تزال ثقيلة صارخة الألوان. فهو يحاكي أسلافه ممن يقلون عنه شأنًا بدلاً من التعبير عن

ذاته الأجل شأنًا. فيؤثر العبارة الإغريقية أو اللاتينية المركبة على مرادفتها الإيطالية البسيطة لذا فإن بوكاشيو في قصة الفيلوكولو، وهي التجربة الأولى الساذجة للقصة الحديثة، يبدو عالماً من الطبقة الأولى باللغات القديمة غير أنه شاعر عاطفي من الطراز الثاني.

ومع ذلك فإن (فيلو كولو) على ثقلها قد نجحت نجاحاً مالياً. فالعالم كان مهياً لقبول القصص وقد عرّف بوكاشيو في الأدب لحناً جديداً رضى عنه ذوق الجمهور فتشجع لرواج قصته الثرية. وهو يحاول الآن أن يكتب قصة شعرية فيؤلف كتاب تسيد وهو ملحمة منظومة على غرار إنياذة فرجيل وكان حظه من النجاح والخلو من الحياة مثل حظ (فيلو كولو) فهو كتاب عن الأبطال كتبه رجل لا يؤمن بالبطولة فجاءت تسيد صورة رائعة ولكنها ميتة، هي حفل قديم مزخرف قد

استحال إلى حجر، فليس فيه حركة ولا حياة.. إنها تشمل كل العناصر الجميلة التي تتطلبها القصيدة، عدا الشعر، وهي تنطوي على مقدرة أدبية ولكن تعوزها شرارة الحماسة.

عن أن بوكاشيو تعلم تدريجاً كيف يكتب بقلبه كما يكتب بعقله فيأتي كتابه التالي فيلوستراتو أقرب نوعاً ما إلى حياة عصره.

ويروي بوكاشيو في هذا الكتاب قصة كرسيد وترويلس فيقدم إلينا فيه لأول مرة قصة شخصين يحملان أسمين أجنبيين وعقلين عصريين. كان حبهما عاطفة أرضية صحيحة، خالية من كل المبالغات البيانية والصوفية العليلة التي حجرت مشاعر أشخاص بوكاشيو الأولى. لقد عاد بوكاشيو الآن من جولاته في عالم الأدب وأقام يدرس الحياة. فينقل بصره من التماثيل الرخامية إلى أشخاص أحياء يعرفهم أتم معرفة ويجيهم أشد حب. فيتهدي بوكاشيو إلى نفسه آخر الأمر بعد تعييث لبث عدة سنين. فتبدأ هنا نرى لمحات من المتكلم المرح، الفيلسوف الطيب الذي تعلم كيف يضحك مع الناس بدلاً من أن يضحك منهم أنه يصيهم بفكاهته اللاذعة ثم يخشى أن يكون قد آذاهم فيربت عليهم

بفكاهته الوداعة.

فإذا انتقلنا إلى تقدير عبقرية بوكاشيو شعرنا في فيلو ستراتو أننا نقترّب من هذه العبقرية، إذ نرى فيها قليلاً من الأوراق والأغصان المبعثرة سابحة نحونا من الحمائل السحرية لعبقريته التي سنحتليها فيما بعد. ففيها نسمع صوت بوكاشيو الحقيقي الذي سيخلق العشريات Decameron فيحدثنا عن الحب فيقول (ما أعجب هؤلاء البخلاء البائسين، الذي ينعون على العشاق والذين يصرون على أن كسب المال خير من كسب الحب).

فلندعهم يسألون أنفسهم هل مدخرات العمر كله قد جلبت من المتعة مثل ما تجلب لحظة واحدة من لحظات الحب. سيجيبون أن نعم ولن يكونوا صادقين ولسوف يضحكون من الحب ويدعونه (جنونا اليما) لكنهم إذ يجمعون أمواهم يسمحون لروح السرور الحقة أن تفلت من أيديهم. إن ما لهم قد يضع في ساعة ولكن الحب إذا ذقته مرة فقد جلب لك المتعة إلى الأبد ألا فليتعس الله البخلاء وليرد على العشاق ما أصابوا من مال).

إن بوكاشيو العالم يتحول تدريجاً إلى جيوفاني الشاعر فهو يتأهب للتخلص من نسبته لأبولو، إله المعرفة، ليعتنق دين فينوس آلهة الحب، وهو في كتابه التالي *Aomrosa Visione* يخطو خطوة أخرى في هذا الاتجاه ومع أن هذا الكتاب قد جاء من وحي قصيدة دانتي فهو مع ذلك ليس (بالصورة المجردة لسماء الكاتب الخيالية) بل هو على نقيض ذلك صورة مادية جداً لأرض واقعية. فدانتي قد تسامى عن اللحم إلى الروح. وأما بوكاشيو فينزل من الروح إلى اللحم. وفي هذا التنزل يقل تساميه المبهم الغامض وتزيد إنسانيته الواعية البصيرة فنساء بوكاشيو الدنيويات أمتع من ملائك فردوس دانتي لأنهن أقل كمالاً. وإذا كانت ملائك دانتي يثرن إعجابنا فإن نساء بوكاشيو يثرن عطفنا فما أشبهن بنا لذا فما أحبهن إلينا.

إن بوكاشيو يبشر بإنجيل جديد.. إنجيل المحبة الإنسانية "فالحب لم يعد خطيئة بل

صار متعة". ويتعلم بوكاشيو كيف يصور الأنثى الخالدة في كل سحرها الجامح المخطئ ويبدد هاله الفضل والدمائة التي كانت تحوط نساء جيله، وهو لا يظهرنا على ما تنبس به شفاههن من عبارات بريئة فحسب بل ويظهرنا كذلك على ما تهجس به عقولهن من خواطر أقل براءة. فنحن في القصيدة التالية نرى أول صورة أمينة لامرأة إيطالية في القرن الرابع عشر:-

بجانب بثر صافية، وسط حقل صغير.

زاهر بالعشب الأخضر والأزهار من شتى الألوان، جلست ثلاث فتيات يروين (كما علمت) قصص غرامهن.

وقد هصرت كل منهن فننا ليحجب وجهها الحبيب، وأسبغ الورق الأخضر ظله على الشعر الذهبي.

وامتزج اللونان البهيجان. وقد تخلله في رفق نسيم وادع طالما أثار وطالما أحيى.

وبعد هنيهة قالت إحداهن. (لقد سمعتها) ترى! لو حدث قبل أن تدق الساعة التالية أن حضر عشاقنا إلى هنا اليوم.

أتظنان أننا ينبغي لنا أن نهرب أو نخاف؟. فأجابتها الأخرى:

من مثل هذا الحظ (الباهر). تكون الفتاة حمقى لو أنها فرت).

هذا الاعتراف الصريح بعاطفة طبيعية. يمثل النغم الأول في السمفونية الواقعية...

ويعزف بوكاشيو في Corbaccio نغمة أخرى أوضح من تلك في صراحتها الواقعية، لقد خدعت الشاعر في حبه أرملة طروب. فكان أول ما خطر له أن يزهق روحه بخنجره. ولكن حبه الشديد للحياة يحول بينه وبين ذلك فيقرر خطة أحكم هي أن يقتل معشوقته الخائنة بسيفه تحكمه.

وفكرة القصة ساذجة إلى حد ما. ولكن التهكم فيها جيد فإن بوكاشيو يقترب شيئاً

فشيئاً من روح العشریات Decameron.

ويهتدي بوكاشيو إلى نفسه أخيراً في الديكاميرون. أنه هنا في ميدانه الحق وعالم الديكاميرون هو عالمه. وجاءت شخوص هذه القصص كشخوص الحياة الواقعة فقد كفوا عن تحليل أنفسهم وأخذوا يمتعون أنفسهم فهم لا يفكرون تفكيراً حراً وحسب، بل هم كذلك يتصرفون تصرفاً حراً. فينظرون إلى الحياة نظرة تستوي فيها الصراحة والطيش. وإذا كانوا لا ينتحلون ثوب أصحاب الرسائل الإصلاحية، فقد قنعوا من العالم بإغماض عيونهم عن شوره. وهم لا يؤمنون إلا بمبدأ واحد (عش ودع غيرك يعيش).

وإذا كانوا راغبين عن التضحية بأنفسهم - من أجل الآخرين فهم كذلك راغبون عن التضحية بغيرهم من أجل أنفسهم، لقد تخففوا من تعصب العصر الوسيط وتخففوا من عدم التسامح الذي كان طابع هذا العصر. فهم لا يصدرون في حركاتهم عن أى روح صليبية. ولا يبتغون أن يحيلوا أحداً إلى دينهم أو أن يتحولوا هم إلى دين غيرهم وهم لا يكثرثون بالماضي أو القابل سواء بسواء. وهم على استعداد لأن يشتروا متعة اليوم بذكريات أمس ووعود الغد. وتصور إحدى قصصهم المحبوبة موقفهم ذاك أحسن تصوير. تقول هذه القصة: أن الفيلسوف (ديوجين) حين لقي الإسكندر حاول لومه على أطماعه الحمقاء فسأله: بعد أن تغزو أثينا.. ماذا تنوي أن تفعل؟.

أغزو فارس.

وبعد فارس؟

أغزو مصر.

وبعد مصر؟

أغزو العالم.

وبعد غزو العالم.

أستريح وأستمتع.

فسأله: وماذا يمنعك أن تستريح وتستمتع الآن؟

وكل أشخاص الديكاميرون مصممون على أن يستريحوا ويستمتعوا الآن وليس لديهم إحساس بالمسئولية العامة. فحين انتشر الطاعون في فلورنسا (١٣٤٨) لم يشعروا بوجوب البقاء في مدينتهم ومساعدته الضحايا. بل وجدوا الأمتع لهم والأسلم أن ينتقلوا إلى الريف حيث يستطيعون قضاء أيامهم في الطعام والشراب والغزل ورواية الحكايات اللاذعة.

(لست أحفل بغير لحظات الحياة الصافية).

تلك الحياة السطحية التي لا تبالي بالعواقب الدنيوية والتي لا يزعج صفاءها أي عمق في الإخلاص أو أيعال في البعض. هذا النوع من الحياة هو ما تجده مصوراً تصويراً ممتعاً في (الديكاميرون) لجيوفاني الهادئ. لقد لبث العالم قروناً عدة يغمره الإحساس بالخطيئة الأصلية، والخوف من العقاب المقبل. لقد نسي الناس قدرة الضحك على التفريغ عن النفس فعلمهم بوكاشيو كيف يضحكون.

والواقع أن قصصه في الديكاميرون قد رويت من قبل، فهي ليست من خلق بوكاشيو. بل هي أشبه بقصص (ألف ليلة) في أنها نتاج أقطار كثيرة، وعقول كثيرة. ولكن بوكاشيو قد أخذها من وضعها الساذج الأمي فأجاد تشكيلها وبث فيها الحياة. وليست الديكاميرون لكنها مجموعة لا نظام لها من قصص لا رابطة بينها. بل هي وحدة محكمة أقيمت على نظام من المنطق. ويجوي الكتاب عشرة أشخاص رئيسيين بينهم سبع سيدات وثلاثة رجال. وقد فروا من مخاوف الطاعون إلى حفلة تنكرية خيالية. ولكي يسروا عن أنفسهم عشرة أيام جعل كل من اللاجنين يروي قصة في كل من الأيام العشرة. فكانت تروي كل يوم عشر قصص إذن، فكان المجموع مائة قصة. وكانت كل مجموعة يومية من عشر قصص تتشابه في موضوعها إلى حد ما. فالقصص التي نسمعها في اليوم التالي مثلاً تدور كلها حول من قاسوا الشقاء ولكنهم أصابوا النجاح آخر الأمر. ونتسلى في اليوم الثالث بمغامرات أوغاد لا وازع لديهم من ضمير. وقد كوفئوا على نذلتهم مكافأة لا مبرر لها. ولكنها مكافأة ممتعة. ويختص اليوم الرابع بالحكايات ذات

النهاية المحزنة. وأما اليوم السادس فيوم النوادر فتندور كل نادرة حول إجابته بارعة. وكان الواحد منهم إذا أخرج أو أوشك أن يقهر لجأ إلى جواب مفحم قارص يقهر به خصمه. ويقدم لنا اليوم السابع معرضاً من النسوة الخائئات لأزواجهن. وهؤلاء الأزواج رجال لا أثر فيهم للشهامة الزوجية فحققت عليهم خيانة الزوجات.

وهكذا.. ومهما يختلف موضوع كل من القصص فإن الكتاب كله شلال واحد يهدر بالضحك وحتى الحكايات الحزينة لا تترك وراءها أثراً من ألم فأسى بوكاشيو لا يعدو أن يكون ظلاً يمتد على أرض بهيجة ولولا اقتران سرور بوكاشيو بالأسى لكان سروره لا لون له ولا طعم. فإذا قيل: أن فولتير يضحك ليخفي دموعه، أمكن أن يقال عن بوكاشيو أنه يذرف دموعاً بين الحين والآخر ليجعل ضحكته أشخذ للشهية وكان بوكاشيو صاحب تهكم ولكنه ليس صاحب سخرية عابسة. فهو يسخر من الناس ولكنه لا يصلاهم سعيراً. وهو يثير عليهم ضحكاً طيب الروح وديعاً يسري في الناس بالعدوى حتى ليضطروا أنفسهم إلى المشاركة فيه. أنه يسخر من الحماقة ويحظى بحب الحمقى (أنك يا صاحبي تؤدي في الحياة دوراً هازلاً غاية الهزل) ثم يقول وهو يهز كتفه في روح وادع (ولكن ألسنا كلنا ذلك الرجل).

- ٤ -

ومعظم حكايات الديكاميرون قصيرة. فهي تعد في عرف يومنا هذا من قصص القصص القصيرة. وهو يصور الموقف بقليل من الكلمات ثم يصل إلى نهاية مبالغته من ذلك قصة أرمينوجر يمالدي ذلك الجشع الذي قال لصديق أريب من صحابه (أريد أن ينقش منزلي نقشاً جديداً وأريد أن تقترح على موضوعاً لهذا الرسم شيئاً لم أراه قط) فأجاب صاحبه على الفور (ارسم التسامح). وقصة أخرى من نفس الطراز هي مغامرة الملك في منزل سيدة يحاول أغواءها وكان الملك يشتهي هذه السيدة فأرسل بزوجه إلى الحروب الصليبية ودعا نفسه إلى منزلها لتناول العشاء وكانت السيدة لا تستطيع عصيان الملك وهي مع ذلك لا تريد الاستجابة لرغباته. فتعد مأدبة فاخرة تتكون من عدد من الدجاج قد اختلف تشكيله وطهيه. فلاحظ الملك أنه لم يقدم إليه غير الدجاج وأصابه

الدهش فقال (سيدتي): أليس يوجد في البلاد طعام آخر؟.

يوجد يا مولاي، ولكن النساء كالدجاج فهن على اختلاف المظهر سواء في كل مكان.

فأدرك الملك ما ترمي إليه السيدة وعاد إلى زوجته في هدوء. وفي هذا الطراز من القصص كان بوكاشيو يغير في المفاجأة بأن يدفع بما إلى مفاجأة أعظم، فيكون الختام مفاجأتين لا واحدة. ومن خير الأمثلة لهذا النوع من الديكاميرون قصة (إبراهيم اليهودي) وكان إبراهيم هذا شخصاً بلغ من الأمانة والصدق بحيث تاق صديقه جيانودي شيفيني إلى إدخاله في المسيحية. ولكن اليهودي لا يستمع إلى رجاء صاحبه فهو لا يقدر ديناً كدينه وقد ولد يهودياً وينوي أن يعيش ويموت كذلك ويمضي جياتو في جهوده رغم عناد اليهودي حتى يقبل اليهودي آخر الأمر أن يدخل في المسيحية قائلاً (ولكني قبل أن أفعل أريد الذهاب إلى روما لأرى البابا وأتدبر سلوكه شيئاً ما. وأتدبر سلوك هؤلاء الكرادلة الأخرى، فإذا بدوا لي بحيث أفهم من سيرتهم أن دينهم يفضل ديني فإني فاعل ما تريد وإلا فأنا مقيم على اليهودية).

فإذا سمع جيانو بذلك أصابه قلق شديد وقال لنفسه (لقد ضاعت كل جهودي، لأن إبراهيم لو ذهب إلى روما ورأى شرور رجال الكنيسة فلن يقتصر على رفض الدخول في الدين المسيحي بل سيتحول إلى اليهودية ولو كان أصلاً من المسيحيين) لذلك حاول أن يصرف صديقه عن الذهاب إلى روما. لكن اليهودي أصر على ما اعتزم، فأسرج حصانه وذهب إلى روما وأخذ في دراسة أساليب القسس ولشد ما أدهشه أنهم منغمسون في كل ألوان الرذيلة وأنهم في مجموعهم أشد حرصاً على بطونهم منهم على أي شيء آخر. وجدهم يحبون المال بحيث لا يتحرجون أن يصيبوه لا من المسيحيين أنفسهم. هذه وأمور أخرى لن أذكرها صدمت شعور اليهودي، وكان شخصاً أريباً وادعاً، فاكتفى بما رأى وعاد إلى بلاده.

قد يبدو أن هذا ختام منطقي للقصة ولكن بوكاشيو الضاحك السن أبداً يعرج

بالقصة إلى مفاجأة ختامية تحيل قصة جيدة وكفى إلى إحدى روائع الأدب. فإبراهام حين يعود من روما يخبر صاحبه أنه قرر اعتناق المسيحية برغم ما شهد (لأنه إذا كان رجال الكنيسة يبذلون الجهد لقتل الدين المسيحي وإذا كان الدين المسيحي ينمو في سرعة كبرى رغم كل ما عملوا لتشويهه فمن اليسير أن أرى أن روح الله ترأمه لأنه أصح الأديان وأقدسها).

ويستطيع جيوفاني الهادئ أن يتسامح لا في معتقدات الناس وكفى، بل وفي أخطائهم أيضاً. فموقفه العام نحو (خطايا الناس الصغيرة غير الضارة) هو (أسعد الله من يحظون بها) فاستمتع وامتع حيثما استطعت فليس عاراً أن تمتع نفسك بشرط أن تشرك غيرك في متعتك وإذا ضبط أشخاصه في أشد لحظاتهم حرجاً لم يحتجوا قط من أنفسهم، فهم يدركون كما يدرك الرياضيون الطبيون أن موقفهم مثير وهم على استعداد لأن يهبوا لمن ضبطوهم وقتاً سعيداً.

إن بوكاشيو أمير شعراء الضحك فهو يرغب عن تصوير الحزن لأنه يعجز عن بثه. فهو من السلاسة والدعة بحيث لا يستطيع إيذاء أحد. ويقف بوكاشيو وحده في عصر عرف بالتعصب والحقد رجلاً بريئاً كل البراءة من التعصب والحقد على اختلاف صورهما، فعنده أن العنصر والطبقة الاجتماعية والعقيدة والأمة كلها كلمات تعني شيئاً واحداً. فكلها وحدة صغيرة من الناس تنتظمها أخوة البشر الكبرى. وكان شعوره الوطني فاتراً غير مكترث. ذلك بأنه، وطني عتيدي، وطنه العالم كله. فهو يسمح لكل أنواع الناس من شتى البقاع بأن يشاركوا في هذه الزمالة العالمية الطيبة. فيحترم الفرنسيين كما يحترم الإيطاليين، ويحترم اليهود كما يحترم غير اليهود. ومن أجمل قصص الديكاميرون، بل ومن أثن الدرر في الآداب كلها حقاً قصة (الخواتم الثلاثة) لبوكاشيو.

هذه الخواتم الثلاثة ترمز للأديان الثلاثة، اليهودية والنصرانية والإسلام. وقد قال بوكاشيو فيها (كان لرجل عظيم من الأغنياء خاتم فائق الجمال والقيمة. وكان يريد لهذا الخاتم أن يبقى لأسرتي إلى الأبد. فقرر في وصيته أن الذي سيعطي خاتمه من أبنائه فهو وارث الأب. فليعترف له بذلك، ولينل من التوقير ما تحوله له رئاسة الأسرة) ويمضي

بوكاشيو فيقول (مات الرجل الغني حين جاء أجله. نورث ابنه خاتمه الثمين وظل الخاتم أجيالاً كثيرة يتوارثه خلف عن سلف، حتى انتهى إلى رجل له ثلاثة بنون، كلهم فاضل مستجيب واجبه نحو أبيه فأحب الأب ثلاثتهم على السواء. وحرصاً من الأب على أن يخلف لبنيه الثلاثة هدايا متساوية القيمة كلف الجوهري بأن يشكل خاتمين آخرين على غرار الخاتم الأصيل. فإذا أعاد الجوهري الخواتم الثلاثة كانت من التشابه في قيمتها وجمالها بحيث عجز الأب نفسه عن تمييز الخاتم الأصيل من سواه. فإذا حضره الموت منح كلاً من أبنائه الثلاثة خاتماً وعندئذ شجر الخلاف بينهم، فكل يدعي أنه صاحب الخاتم الوحيد الأصيل.

فاختصموا إلى القانون ليقرر أيهم صاحب الحق. ولا تزال القضية منظورة لم يفصل فيها إلى اليوم، ويختتم بوكاشيو قصته بقوله: هذا ما حدث للأديان الثلاثة التي منحنا الله (الأب). فكل أصحاب دين يعتقدون أنهم ورثة الله الحقيقيون ولكن لم يحكم لأينا بأنه صاحب الحق، كما لم يحكم لأصحاب الخواتم.

وإذا كان لا يستطيع أحد منا أن يتحقق أننا آثر إلى الله فالأليق بنا جميعاً أن نحقق الشركة العامة بين بني الإنسان فتتعاون أمم العالم على الخير.

- ٥ -

كان بوكاشيو في أعوامه الباكرة يلهو بالدنيا، وهو في أعوامه التالية يؤدي عملاً جاداً من أعمال الدنيا. فهو يلقي سلسلة من المحاضرات عن داني، ويسافر إلى أقطار شتى ليؤدي طائفة من المهمات السياسية. وكاد أن يترهب ويدخل الدير ليكفر بذلك عن الجريمة التي ارتكبها إذ ألف الديكاميرون. ولكنه أغرى بالعدول عن هذا الرأي فمات كما عاش مذنباً بشوشاً بدلاً من أن يختم حياته قديساً عابساً.

وإننا إذا استعرضنا ذلك الرهط الجميل من مذنب العالم الباشين من الرجال والنساء الذين يحبون ويصفحون، ويأملون أن يحبهم الناس ويغفروا لهم، تبدي لنا جيوفاني الهادي وسط هذا الرهط وقد احتل مكاناً غير هين.

Amorosa Visione

Filostrato

Teseide

Fiammetta

Life of Dante

Decameron

Ameto

Coarbaccio

فرانسوا رابليه

١٤٩٥ - ١٥٥٣

من عجيب الأمر أن أعظم الكتاب، أولئك القادرين على الحديث عن غيرهم في فصاحة واسترسال، يلتزمون الصمت فيما يتعلق بأنفسهم. فنحن لا نعرف عن حياة رابليه إلا قليلاً. كما لا نعرف عن حياة شكسبير غير القليل. فقد شغف كل منهما بتسجيل أفكاره بحيث نسي أن يحدثنا عن نفسه. ويمكن سرد قصة رابليه في بضع مئات من الكلمات.

كان فرانسوا رابليه مديناً بخشوته الصريحة السليمة إلى دم الفلاحين الذي يتدفق في عروقه، فأجداده الأقربون قد تخرجوا من طبقة الفلاحين والتحقوا بالطبقة الوسطى، وكان أبوه (أنتوان رابليه) ثرياً من ملاك الأرض ومحامياً في (شينون) تلك المدينة التي بدأت فيها جان دارك حياتها المحيطة قبل ذلك بنصف قرن. وولد فرانسوا سنة ١٤٩٥. ولا يعرف شيء عن طفولته ومراهقته. ولا نلمح صورة واضحة له إلا وهو في السادسة والعشرين من عمره، فتراه شاباً طويلاً رقيقاً مرحاً بالغ الوسامة قوى الجبين عظام خديه بارزة قوية، وعيناه رائعتان، ومعارفه تبعث على الدهش، ومن المشكوك فيه أن رأساً آخر في هذا العصر قد استطاع استيعاب مثل هذه الذخيرة الضخمة من المعلومات، ولا يعرف على التحديد أين تلقى تعليمه، وإن كان من المعروف أنه انضم عام ١٥٢٠ إلى إخوان القديس فرانسيس في دير بوي سنت مارتن ولا يعلم أحد سبب دخول رابليه في تلك الطائفة.

فإن شخصيته المرحة لا تبدو متلائمة مع حياة التواضع والفقر التي يطلب إلى الإخوان الفرنسيسكان التزامها، ولعله اتخذ هذه الخطوة إرضاء لبعض أصدقائه الذين سبقوه إلى الانضمام إلى الفرنسيسكان. فلقد كانت الصداقة هي العاطفة القوية التي

تسود حياته. وكان مما يسره أعظم السرور أن يمنح الآخرين السرور وفضلاً عن ذلك فإن حياة الدير لم تكن خالية مما يرضى رجل المعرفة. فهي تمنحه الفراغ ليتعلم ويكتب، وتخليه من المسئوليات المالية. فإذا تصادف أن كان من محبي المغامرة كما هو من محبي الدرس، مكنته الكنيسة من أن يسافر مبشراً، أو وكياً عنها في أعمالها العلمانية. فالدير. لم يكن باختصار مكاناً غير متلائم مع رجل أحب المعرفة وأحب الحياة أيضاً. فلم تكن الالتزامات الرتيبة المفروضة على حياة الدير بالغة الطول ولا بالغة الدقة، فاستطاع رابليه في دير (بوي سنت مارتن) أن يتابع هوايته الأدبية على النحو الذي يرتضيه قلبه. وكانت مدينة فونتناي التي يقع فيها هذا الدير قد أصبحت مركز دائرة ثقافية من الإنسانيين، أعني هؤلاء الرجال الذين حاولوا تطبيق ثقافة الماضي السامية على حاجات الإنسان الحاضرة. وكانت الحلقة تجتمع بإلهام من أبيها الروحي ارزم Erasmus في حديقة الحاكم تراكو André Traquau حيث تحتسي نبيذها في ظل الغار، وتناقش في الشعر والسياسة والموسيقى والدين والفن وما بعد الطبيعة والأخلاق والقانون.

انضم رابليه إلى تلك الحلقة على حداثة سنه، وسرعان ما أصبح رئيسها الفكري غير منازع.. وفي تلك الأثناء كانت تتور عاصفة من اختلاف الرأي في فنجان مناقشاتهم غير الرسمية، ذلك الفنجان الصغير الهادئ. وكان الخلاف يدور حول النساء والزواج. وكان (تراكو) الذي تزوج من صبية في الحادية عشرة من عمرها قد ألف لإرشادها كتاباً عن واجبات الزوجة إزاء زوجها، وكان يعتبر كل النساء أطفالاً غير مسئولين، ويعاملهن على هذا الأساس. ولما كان كتابه هذا يرضي المحافظين الذين أصروا على إبقاء نساتهم في "مكافئ الصحيح" فقد قوبل بحماس ولقي سوفراً رائجة. ولقب تراكو ألد أعداء المرأة في زمنه.

أما في دائرة فونتناي الأدبية فقد خالف آراء تراكو عدد من الشباب وكانت مخالفتهم لها شديدة. فأصدر أحد هؤلاء الشباب (الثائرين) كتاباً انحاز فيه إلى جانب ذلك الجنس (الأضعف شيئاً) والأشيق كثيراً من الجنس الآخر وعندئذ ثار ثائر (تراكو) فأصدر كتاباً جديداً أكبر من الكتاب الأول، وهو كراسة تعليمات تبين واجبات النساء، وامتيازات

الرجال، فعلى المرأة دائماً طاعة زوجها وعلى الرجل ألا يدلل زوجته قط. ولا ينبغي لأي رجل أن يتزوج امرأة بالغة الدمامة أو بالغة الجمال. فهي إن كانت بالغة الدمامة لم تستطع في الغالب إمتاع زوجها. وإذا كانت بالغة الجمال أمتعت في الغالب أزواجاً آخرين. ولا تدع زوجتك تعد نفسها مساوية لك. ولكن لا تب من تساويك، واحتفظ بزوجتك بعيدة عنك بعداً لاثقاً، فلا تقربها منك بحيث تسحرك، ولا تبعد عنها بحيث تسحر غيرك من الرجال. وعاملها دائماً في قسوة رحيمة، ولا تطعمها إلا قليلاً من العناق يتخلله التهديد من آن لآخر.

وحيث صدر هذا الكتاب ثارت مناقشات حامية في دائرة فوننتاي الثقافية. وانضم كل عضو فيها إلى أحد الجانبين ومن عجب أن رابليه قد انحاز إلى جانب المحافظ (تراكو). وإذا كانت الحجج التي ساقها تراكو لم تثر إعجابها، فقد كان على استعداد أبداً لأن يوجه سهام تمكمه إلى حماقات الجنس اللطيف. فهو لم يكن مولعاً بالنساء من حيث هن طائفة.

ولم يكن كذلك مولعاً بالرجال من حيث هم طائفة. وإن أحبهم فرادى، فقد كان يشعر إزاء الأسرة الإنسانية (الغبية الشريرة) بزاوية ودية. فهو يرثي (إخوانه المزدريين) ويضاحكهم ويدرسهم ثم يرسمهم رسماً حياً في (بنتاجرويل وجارجتوا). فالحامون والأطباء والتجار والفنانون وأهل المعرفة.. كل هؤلاء من رجال الأعمال والحرف الذين كان يلقاهم في حديقة تراكو قد أصبحوا النماذج التي يرسمها في صورته التي تعز على الإحصاء كما تعز على المحاكاة. فهو يتعمق أشخاصه، وينفذ إلى صميم قلوبهم في يسر لم يتطامن إلا لشكسبير، كان يعرف كل ألوان الناس على اختلاف أعمالهم ومهنتهم. فلقد كان يعرف أحوال الفلاحين في شينون ويتحدث بلهجتهم ويحلل عواطفهم، ويفهم أفكارهم. ونفذت بصيرته إلى أعماق حياة الإخوان الفرنشيسكان. وأمدته الألفة بحكام فوننتاي بالأساس العملي لدراسة السياسة. وهو الآن موشك على خطوة جديدة في برنامجه، هي استقصاء الأفق المستدير للعادات والناس فهجر الفرنشيسكان وانضم إلى البندكتيين وكانت لهذا أسباب ثلاثة:

أولها أن الانتقال إلى هيئة من القسس أرقى تعليماً أمر يعينه على متابعة دراساته في مزيد من اليسر. وثانيها أن رئيس دير البندكتيين الذي انتقل إليه رابليه كان من أرقى رجال المملكة في ثقافته. وثالثها أن رئيس الدير قد عرض عليه وظيفة الأمين المنتقل له. (وهذه فرصة إلهية لتوسيع خبرته بالعالم) فسافر إلى إيطاليا. وكانت هذه الرحلة عند رجل خصب الخيال مثله أشبه برحلة إلى أرض الجان والخيال. فبدت له روما ذلك المتنقى للجمال الوثني والتقوى المسيحية، مدينة حوت آلاف المباهج. فأسمها في لغته الرائعة (عاصمة العالم) وتعلم في فترة مقامه القصيرة بما كيف يعرفها عن كثب، كأنما قد قضى بها طول حياته وكتب بعد عودته من إيطاليا يقول (ما من بيت يعرفه صاحبه.. أكثر من معرفتي لروما بكل شوارعها وأزقتها). وسافر رابليه في صحبة رئيس الدير إلى أقطار أوربية أخرى. وكان أينما حل ينصرف همه إلى دراسة الناس وأمرائهم في شتى مواقفهم وأعمالهم وطباعهم، وأتيحت له فرصة ملاحظتهم في السلم والحرب. إذ كان المعتدون وقتئذ كما ظلوا طوال التاريخ البشري، يحاولون سلب الحقوق من أصحابها. فملوك فرنسا وإسبانيا يدمرون مقاطعات شمال إيطاليا، وكان سلطان تركيا يحاصر فينا وكان جنوب ألمانيا يسحقون روما بأقدامهم.

وهكذا كانت الأمور تجري في دوامة مستمرة من الجنون وسفك الدماء، وشهد رابليه ذلك المنظر المخزي لقسوة الإنسان بالإنسان، فقرر مهاجمته بالضحك لا بالغضب. فهو في الفصل الثالث والثلاثين من (بنتا جرويل) يكشف عن غباء الحرب العدوانية بأن يصوغ منها مهزلة سافرة، فالدوق بيكروشول (الممرور) يتلهف على أن يزيد مجده، ويعمر خزائنه، وهو من المؤمنين بتلك الفكرة المضحكة القائلة بأن الطريق الوحيد إلى رخاء قطر من الأقطار إما يكون على حساب الأقطار الأخرى. لذلك يرسم خطة الهجوم على جيرانه، وتكون قيادة الحملة لشركائه الثلاثة في الجريمة (سير سمول تراش) والكونت (سواش بكل) ولورد (لوسي لوكس) ويدعو قواده الثلاثة إلى الاجتماع به، ويرسم المجلس خطة لحملة هدفها أن تكتسي بلادهم ثوب المجد وتكتسي أرض جيرانهم جنت الموتى. ولكن كان من شهود الاجتماع سيد مسن خبير بالحروب يقال له (ايشفرون)، (اليقظ

الحواس) قال حين سمع خطة الحملة (أني لكبير الشك في أن هذا المشروع كله سيكون أشبه بقصة الجرة المليئة باللبن التي خدع الحذاء نفسه بأنها ستجلب له الغنى، فلما كسرت الجرة لم يجد عشاءه.. ما هدفكم من تلك الانتصارات الضخمة؟ لن تزيدوا عن كسر جرتكم) فقال الكونت سواش بكل: (ياللك من ساذج! إذن فلنختبئ في ركن قصي، حيث نقضي أعمارنا بين السيدات نظرز ونغزل وننظم العقود. أن من لا يغامر لا يجد له حصاناً ولا بغلاً) فأجابه ايشفرون. (ولكن من يسرف على نفسه في المغامرة يفقد كلاً من الحصان والبغل). وهنا لباب فكرة العسكرية العدوانية. لقد كان رابليه يعلم كما يعلم كل عاقل في كل عصر، أن الانتصار النهائي لا يتحقق للمعتدي وأن انتصاراته الأولى إن هي إلا مقدمة هزيمته النهائية.

بيد أن رابليه لم يكن عميق الاهتمام بمسألة السلم والحرب. بل لم يكن في الواقع عميق الاهتمام بأية مسألة سياسية أو اجتماعية. فهو في جوهره كاتب فكاهة مرح لا كاتب متهمك ساخر. فهو لا يبلغ غاية سعادته - كما يقول - إلا حين يستطيع (الجلوس والراحة والطرب) للمسلاة البشرية التي لا يبدو لها معنى. وكان دائماً منشرح الروح. فعواء الساخر القاسي الفؤاد لم يجد سبيلاً إلى ضحكته. لقد كان ينعم بالهضم السليم بحيث لا يثور تأثيره لحماقات رفاقه. وكانت نظراته إلى الحياة دائماً غير شخصية. فكان أشبه بمخلوق علوي أرسله سكان كوكب آخر ليعود بتقرير عن المهزلة الممتعة التي تمثل على الأرض.

وكان مصوراً للحياة لا يشبع نهمه، فلذلك كان يحاول دائماً أن يرقب الحياة من زاوية جديدة. فما كاد يتم مهمته مع الرهبان البندكتيين حتى أخذ على عاتقه أن يدرس الطب. وكان في الثانية والثلاثين من عمره حين بدأ دراساته الطبية بجامعة منتبلي. وحصل على إجازة الطب بعد ذلك بثلاث سنين فعكف على مهمته الخطيرة في الحياة، وهي إبراء الناس من أمراضهم بالدواء والضحك. فبدأ يكتب التذاكر الطبية ويكتب (بنتا جرويل) وما مضت خمس سنين حتى قدم كتابه الرائع إلى العالم باسم مستعار.

ولا يمكن إدراج قصة بنتا جرويل تحت أي عنوان مما يصطنعه مصنفو القصص. أنها مزاج عجيب من الجنون والأخلاق، والخشونة والجمال، والامتهان والإخلاص، واللغو الميتافيزيقي والحكمة الفلسفية، والهذر الطائش والروعة الشعرية. إنها أشبه بالحياة في أنها لا تنتظم في خطه، وأنها مليئة بالمفاجآت. فالكتاب كله زاخر بالتواءات الفكرة وتغيرات الأسلوب، على نحو ما كان لغبر الله ورابليه أن يتصوره على الإطلاق. فهو يقودك في طريق ممتع، وعلى حين بغتة يواجهك بجبل

لا سبيل إلى اجتيازه. فإذا وقفت مذهولاً مستثيباً من خدعته، فتح لك فجأة نفقاً في الجبل ودار بك من خلال كهوف جميلة تحت الأرض لا تحظر على بالك حتى في الرؤى. ولا تكاد تخرج إلى ضوء الشمس حتى يغلبك على أمرك بطوفان من القذارة يكاد يذهب بأنفاسك. فتكاد تستثيب منه في تقزز وإذا هو ينظفك وينعشك بحمام سحري من ندى الصباح، فتشعر باستعداد للمضي معه إلى سحر ما سيهديك إليه من مناظر الأرض التالية.

هذا هو الأثر بالأحرى سلسلة الآثار التي يحدثها رابليه في عقل قارئه. أنه حرباء عالم الأدب، وهو الساحر صاحب الملايين من الأطوار والأخيلة. لم يكن رابليه يحترم الصورة الأدبية فإذا نحن نظرنا من الوجهة الفنية إلى قصة بنتا جرويل وجدناها أخلاقاً من اللغو غير منطقية. يصف الكتاب الأول مولد جارجتوا أبي بنتا جرويل وطفولته وتعليمه— وكيف أتى إلى باريس وسرق نواقيس (نوتردام) ليعلقها حول عنق جواده، وكيف انتصر جده على بكوشول بفضل معاونة أخيه جون.

وكيف جازى الراهب على ذلك بأن بنى له (دير تيليم) الذي صار مقر المذهب الديني الذي يقال له (افعل ما بدالك).

ويجربنا (رابليه) أن القاعدة الوحيدة التي يفرضها هذا المذهب هو ألا تراعي قواعد على الإطلاق. وليس بالدير ناقوس يذكر أحداً بالزمن من أو بالواجب. وليس على رهبان مُجدِّ الدير وراهباته أن يقسموا اليمين الثلاثية على التزام العفة والفقر والطاعة. بل

لهم أن يتزوجوا وأن يكسدوا الثراء ويخضعوا القانون لما يشتهون. وأبواب هذا الدير موصده أبداً في وجه (المنعصبين والمنافقين والمحامين والقضاة والحكام والصيرفيين والفاسقين والكذابين والجنباء والغشاشين للصوص. وإنما يرحب هذا الدير برجال ينشدون المتعة، ونساء قادرات على الإمتاع، بعشاق أولي مرح وذكاء وطلاقة وطوب ورشاقة ودعابة ووسامة وكياسة وجدارة ودعة ومجانة، ونساء يشتهين ممتعات ضاحكات بارعات يسيين العقول، ساحرات مغريات ناضجات غيد، عزيزات رفيفات المكان غنجات رفيفات جميلات لا غاية بعدهن لمستزيد بارعات فاتنات).

هؤلاء هم الرجال والنساء الذين اكتفينا في وصفهم بحفنة من الصفات التي خلعتها عليهم رابليه، الذين منهم يتكون أعضاء المذهب الجديد (افعل ما بدا لك) وهم يقضون حياتهم في المرح لا في الصوم. وفي الإمتاع والاستمتاع وفي الرضى الهادئ بامتلاء البطن ومرح القلب أشبع رغبتهم تقتل جشعهم لأن من طبيعة الإنسان أن يتلهف على ما يمنع عنه.

ويختتم الجزء الأول من القصة بتلك الصورة الهزلية لدير تيليم- ويتناول الجزء الثاني مولد وتعليم ابن (جارجنتوا) ويدعى (بنتا جرويل) ولقائه بيانورج Panurge ذلك الطبيب المخادع الذي يعاني من خواء مزمن في جيبه. وهو سكير عريبد متهتك لا يلحق بغباره في الخسة والاستهتار أحد في باريس. وهو في كل ما عدا ذلك من الأمور أرق إنسان في العالم. وبعد إذ يقدم المؤلف بطله على هذا النحو الرسمي يأخذنا من يدنا أو قل من أنفنا ويجوب بنا عبر آفاق اللامكان إلى بساتين اللغو. ويقول رابليه (إني أدعو عليكم بالوقوع في الكبريت أو النار أو في بئر غير ذات قرار، إذا لم تؤمنوا حق الإيمان بكل شيء أرويه لكم في هذه الرواية) كيف فر بانورج من أسر الأتراك وكيف انتصر على أربعة عشر وستمائة ألف كلب ليلطخ سيده فمئنت عليه، وكيف نسل بانتا جرويل بطريقة بالغة الغرابة ثلاثة وخمسين ألف رجل صغير ومثلهم من النساء الصغيرات.. وكيف أصاب النصر الباهر على المرأة وكيف أن (ابسنمون) قد عاد إلى الحياة بعد أن قطع رأسه ليخبر العالم بآخر أبناء الجحيم. وهكذا يختم الكتاب الثاني بهذه العبارة (طابت ليلتكم أيها

السادة ولا تكثرُوا من التفكير في أخطائي بحيث تنسون أخطاءكم).

والجزء الثالث من هذا الخيال الهازل والحمافة الخداعة يفل منطقية حتى عن الكتاين الأولين من حيث بناؤه. يبدأ بصورة الفيلسوف دبوجين الذي دحرج برميله على منفسح ثلاثة ومائة فعل على التابع. ولم يحظ شكسبير نفسه بمثل هذه السهولة المذهلة في استخدام اللغة. ثم ينقلنا رابليه إلى أرض النعيم المقيم Utopia هذه الأرض المستحيلة الوجود تمام الاستحالة يقطنها ثمانية بلايين من السكان عقدوا العزم على فتح العالم. على أنهم لا يستخدمون في ذلك قوة السلاح، بل إخلاء الناس من همومهم، وتعليمهم كيف يحيون حياة آمنة طيبة. فيمنحونهم قوانين خيرة ويعاملونهم بأقصى ما يمكن من الرقة والمجاملة والدعة والحب، وبعد أن ينقلنا المؤلف إلى هذه الأرض التي تحفو إليها القلوب وبعد أجنحة آمالها للتخليق في مغامرات جديدة يوقف الوصف فجأة ويخصص كتاباً كاملاً للكلام عن الزواج. وقد بعثه على ذلك أن بانورج يريد الزواج لكن يحمله على التردد في إنجاز تلك الرغبة خوفه من أن زوجته قد تخونه، وتشغل هذه الحيرة عقله. فيشرع في بحث يستغرق أربعة وثلاثين فصلاً عن النساء. وهل هن أمينات أم خائنات لأزواجهن. فيشاور عدداً كبيراً من الناس منهم نبيه وشاعر وأخرس أصم وفلكي وفقيه ديني وفلاح مهرج بسيط.. ويدعهم جميعاً وقد تزود بالألفاظ ولم يتزود من الحكمة بشيء، على أنه تلقى من الفلاح البسيط اقتراحاً عملياً... هو أن يحيل مشكلته إلى مهبط الوحي الذي يعرف الجواب على كل سؤال.

وهذا يؤدي بنا إلى الكتاين الرابع والخامس، الرحلة إلى مهبط الوحي. وقد أثارت الرحلة روح المغامرة والضحك في كل أرجاء الأرض وما فوقها وما تحتها فإذا وصل بانورج وبنتا جرويل آخر الأمر إلى نهاية الرحلة، علماً من مهبط الوحي أن الجواب الوحيد على سؤالهما ينحصر في كلمة واحدة (اشرب) اشرب عبأ كأس الحياة والجمال والمتعة والمعرفة والحقيقة. (وكل هذا مستحب) كما يقول (بانورج) ولكنه لا يزيد حكمة في شأن الزواج عما كان عليه قبل الرحلة إلى مهبط الوحي.

وهكذا ينقطع بلا تمهيد ذلك الخيط المعقد الذي لا فكاك له من اللغو السامي الذي

بدأ في غير مكان، ولم يؤد إلى مكان. ولنكتف بذلك في شأن الخطة غير المنطقية للقصة. ولننتقل إلى التفصيلات فنجدها قد عولجت بنفس هذا القدر من الإهمال غير المنطقي. فجارحنتوا في بعض الفقرات مارد جبار، وهو في فقرات أخرى رجل عادي في طوله. ويكون (بانورج) أحياناً رجلاً عاقلاً شجاعاً أميناً وفي أحيان أخرى يكون محتملاً أحمق جباناً. وأحداث القصة نسير في دوران جنوبي مرح كأنها العالم. وفي الكتاب الأول يحيا جارجنتوا في أرض النعيم الأسطورية ونجده في الكتاب الثاني قد اختطف بلا سبب ولا مناسبة إلى تورين مسقط رأس رابليه. وفي الفصل الثالث والعشرين من الكتاب الثاني يختفي جارجنتوا من القصة بعد أن تحول إلى أرض الجان. ثم يأتي الفصل الخامس والثلاثون من الكتاب الثالث فنجده قد عاد إلى صفحات الكتاب وكان شيئاً لم يصبه وهذا قليل مما يزرخ به الكتاب من عدم الاتساق. لم يكن رابليه ممن يحسبون حساباً للعقول الصغيرة. فإنه إذ وجه همه إلى خلق إحدى الروائع لم يحتفل بتافه الأمر كما يحتفل به أصحاب الصناعة الأدبية. وأنه ليحدث أحياناً أن يكون خير الفنانين من أردأ الصناع، فحمداً لله على ذلك!.

- ٣ -

يبدو عمل رابليه في ظاهر أمره - كما رأينا - دعابة هاذرة طائشة حائرة لا معنى لها ولا خطة. ولكن لنعد إلى فتح باب الخزانة، ولننظر نظرة أدق إلى بعض ما حوت من كنوز تثير العجب. فما الذي نبدأ بفحصه؟ إن المشهد غني بالغرابة والخصب والتنوع والإذهال، غني بالحياة بحيث تصيب العقل منه نشوة فلا يسعه أن يقرر ماذا يختار. وليس من سبيل لتقدير رابليه إلا بأن تقرأه من أوله إلى آخره. غير أننا نرغب في تقديم نموذج للنكهة الفريدة لعمله، سنأخذ منه أية صفحة على نحو عشوائي تقريباً.

انظر مثلاً كيف يتهكم على العجرفة غير ذات المعنى في أحكام القضاة بالحاكم. فلقد اشتبك لورد كسبريتش ولورد سكسفت في مناقشة في حضرة بنتا جرويل. وفيما يلي حكم بنتا جرويل بعد أن سمع أقوال الطرفين، (بعد رؤية وسماع وتدبر وبحت الخلاف بين لورد سكسفت ولورد كسبريتش تقول لهما المحكمة أنه بالنظر إلى ما أصاب الخفاش على

حين بغتة من الرعد، والارتجاف والمشيبي- فانسحب في شجاعة من الاعتدال الصيفي، والمحاولة بوسائل خاصة إزعاج بنادق اللعب عند المصابين بقليل من التوعك لإسرافهم في الجرعة بسبب المظهر الشيق واستفزاز الخنافس التي تسكن في الجو المعتدل لنسناس منافق على ظهر جواد قد شد إلى الخلف وترقوس. فإن المدعي صاحب حق في العجل الصغير، أو أن يسد بحبال القنب شقوق السفينة التي نفختها المرأة الطيبة وإحدى قدميه منتعلة والأخرى حافية، فيدفع له ويعاد إليه لضميره الدنيء اليابس من الفستق الجبلي أو الخرشوف بقدر ما في اثنتي عشرة بقرة من الشعر ويدفع مثل ذلك للمطرز ومبلغ كذا لفلان. كذلك تعلن المحكمة براءته من التهمة المترتبة على التدليس في الخطر الذي ظن أنه محدثة).

وهكذا وهكذا تمضي صفحات كثيرة. وفي ختام رطانتها بأمر القاضي المدعي بأن يدفع للمتهم غرامة حوالي منتصف أغسطس في مايو، وإذا شكى القارئ من أنه لم يفهم شيئاً مما كتب، فإن المؤلف يعترف له في ابتسامه ماجنة (وكذلك أنا لم أفهم شيئاً) وكان رابليه يزدري مهنة القانون زراية سليمة كان يقول (ما أشبه قوانيننا ببيوت العنكبوت) توقف الذباب الغبي، وتمسك به، وتدمره في داخلها ولكن الحشرات الأقوى تحطمها وتقذف بها وتحملها حيث شاءت).

وعيب معظم المحامين في رأيه هو أن كثيراً جداً من الكلمات تجري على ألسنتهم، ولا يوجد في رءوسهم من الحكمة إلا أقل القليل.

ويصدق هذا فيما يقول رابليه على معظم الفلاسفة، وخاصة فلاسفة ما وراء الطبيعة الذين يصفون في عبارات العلماء، ويقيسون في دقة العلماء، أشياء لا وجود لها. ويحدثنا رابليه أن أحد هؤلاء الميتافيزيقيين قد كتب بحثاً علمياً موضوعه: "هل تستطيع العنقاء إذا أزت في الفضاء أن تلتهم الغايات الثانية" وأن آخرين يشغلون أنفسهم بمثل هذه المشكلات: هل تستطيع فكرة أفلاطونية، تقفز إلى اليمين تحت فوهة العماء، أن تعصف بذرات ديمقريطس أو هل برد الشتاء في جزء الأرض المقابل لنا إذا أمر في خط أكثيولوجي عن طريق الصلابة المتناسقة للمركز، يستطيع عن طريق إحداث حركة مضادة للحركة

الدودية للأمعاء أن يدفئ الغشاء السطحي لكعب الإنسان (إلا سحقاً لهؤلاء الطبول الجوفاء الذين يخنقون الفكرة حتى يقتلوها تحت ستار من الألفاظ).

هؤلاء العلماء المزيفون الذين تتضاعف معلوماهم. ويتناقص عدد ما يعرفون عنه، حتى يعلمون كل شيء عن لا شيء، هؤلاء المدرسون العميان الذين يعلمون عميان، إنما يتخبطون في حجرة ظلماء يبحثون عن فأر أسود لا وجود له.

يخلصنا رابليه من كل ما شابه ذلك من سخف حين يواجهنا لا بأفكار لا وجود لها، بل بحقائق ملموسة. وهو يمكن لنا من أن نخبر هذه الحقائق بكل حواسنا الحية. بيد أنه يلمس حواسنا بأشعة

العقل.

وإن خياله الخصب ليرتقص على الصفحات وتندفق منه الحكمة والجمال. فهو من أروع أساتذة العالم في تفسير الحق عن طريق الخيال، وكتابه مليء بالنوادر المنيرة والقصص الخرافية المثيرة. وأن بعضاً من نوادره وقصصه لا ترضى عنه الأذن خجلاً واستحياء. ولكنها جميعاً تضيء جنبات القلب بوهج الفهم. والحياة كلها عند رابليه نادرة من النوادر، دعابة إلهية ذات نهاية لا ذعة. ولولا اللذع المسرحي أعني لولا صدمة الدهشة لما استحقت حياة أن نحيها. ولا استحقت قصة أن نقرأها. وكان رابليه مسرحياً حقاً. ويجب حين نقرأ قصصه أن نتوقع ما لا يتوقع، وأنه ليجد هذه المفاجآت في مغامرة الرجل الذي تزوج من امرأة خرساء. وفي نادرة فرانسوا فيون وإدوارد ملك إنجلترا وفي قصة الجمال الذي دفع رنين المال ثمناً للدخان الذي على الخبز وفي الأدوية الخمسة التي استخدمها بانورج ليخضع بها شهواته الجسدية. وفي أمتع هذه الدرر جميعاً— قصة خاتم هانس كارفل. ولعل هذه القصص تبدو خشنة للغتنا الإنجليزية الحديثة البسيطة الصريحة، ولكنها في الظلال المرهفة للغة الفرنسية في القرن السادس عشر لا يبدو فيها شيء من الخشونة. فلقد كان رابليه يعرف دائماً كيف يمزج أشد حموره حرافة بنكهة الإدراك السليم.

على أن السنوات الأخيرة من حياة رابليه كانت تختلف عن قصصه في أنها كانت ممزوجة بالتوايل، ولكنها لم تكن ممزوجة دائماً بالإدراك السليم. فقد حاضر في الطب وكان من أول من أدخلوا تشريح الجثث في دراسة علم التشريح واختراع آلة جراحية تدعى قاطعة الألسن Clottotomon وعاش فترة في دير القديس مور، فقد نفى نفسه إليه بوصفه راهباً صحيحاً، إن وجد حقاً راهب صحيح منذ وجدت الرهبانية. غير أنه قد تدخل في السياسة بعد ذلك وسجن وبعد فترة قصيرة أفرج عنه. فعمل مستشاراً لناشر— وحاول كذلك أن يمثل على المسرح، بوصفه متنفساً لطاقته الدافقة..

ثم عاد إلى الدير، وانضم إلى رجال الدين. وجدد قسمه على التزام العفة. وحنث به وصار أباً جسدياً كما هو أب روح روعي، وندم على ضعفه ثم ندم على ندمه، وأخيراً نام نومته (٩ أبريل عام ١٥٥٣) غنياً بالمغامرات لا بالسنين.

وهكذا عاش وضحك ومات، ساخر بذ الساخرين أجمعين مرحاً وطرباً.

أهم مؤلفات رابليه

Gargantua Pantagruel

ميجل دي سرفانت

١٥٤٧ - ١٦١٦

نحن مدينون لسرفانت بقصتين من أمتع القصص في تاريخ الأدب. أولاهما: قصة حياة دون كيشوط العجيبة، والثانية: قصة حياة سرفانت التي تفوقها عجباً.

ومن أسف أن كتاب سيرة سرفانت يميلون إلى إسقاط مالأً يسيغونه من هذه السيرة. ولكن ماذا يحول دون إعجابنا بآثاره الأدبية وروايتها سيرته رواية صادقة في الوقت ذاته؟ أنه لا يضير الورود أنها تنمو من التربة العادية، وأن جمالها طعامه الماء والطين. كذلك الشأن في فن سرفانت. فهو ثمرة عذابه وآلامه. ولو كانت حياة سرفانت أقل مرارة مما كانت لقصرت رواية دون كيشوط عن بلوغ ما استشرفته من آفاق.

وكان ميجل دي سرفانت سافيدرا معاصراً لشكسبير. ولد في المدينة الجامعية (الكالادي هنارس) لكنه لم يكد يفيد من جوها الثقافي في حياته الباكرة ذلك لأن أباه كان طبيباً مشعوذاً ينتقل من بلد إلى بلد بصيب رزقه من تقديم الدواء، وتقطيع الأوصال من أولئك الشياطين التعساء الذين يلتمسون لديه الشفاء. وكان ميجل الصغير الذي يصحب أباه في أسفاره لا يكاد يتعلم من الكتب شيئاً، وإن تعلم من الحياة كثيراً. فإن فاته الالتحاق بالكلية فهو على ذلك شاب واسع الإدراك مدرب على شؤون الحياة، فقد اشترك في مبارزة وهو لم يزل حديث السن شيئاً ما. وما هي إلا فترة قصيرة ثم وقع في حبال حب مشوب لإحدى وصيفات الشرف.

وإنه لحيث الخطى في جمع مادة لكتبه المستقبلية، فنراه بروما في عامة الثالث والعشرين. ولعله منها في منفى بسبب ما اقترف من حماقات الشباب. ويشغل في هذه المدينة قرابة العام. ثم يحدو به قلقه وعدم استقراره إلى التطوع في الجيش. ثم يشترك في واقعة (ليبانتو) ويكاد يفقد يده اليسرى في هذه الموقعة من أثر ضربة سيف تخلف بها

جراحاً تعطلها طول حياته فيطلق عليه "كسيح لبيانتو" ويظل حتى آخر أيامه مزهواً بكفاءته العسكرية العادية أكثر من زهوه بعبقريته الأدبية النادرة.

وفي عودته من الحرب يقع في يد قرصان مراكشيين، فيبيعونه بيع الرقيق. ولم يفد من عبوديته إلا بعد خمس سنين. وهو بعد إذ مارس حياة الجند وحياة الرقيق يجرب حظه في الشعر، ويوفق فيه إلى إخراج طائفة من القصائد تعد من أردأ ما عرف الأدب الإسباني من شعر مكسور. وهو على قلقه وعدم استقراره إذ يتجه إلى المسرح فيؤلف بين عشرين مسرحية وأربعين. فياله من بركان من النشاط نائر.

ولكنه يقذف بالرماد ولا يقذف بالحمم. فمسرحياته أردأ من شعره إن جاز أن هناك ما هو أردأ من هذا الشعر. ويحاول آخر الأمر أن يكتب قصة من قصص الرعاة. فيكون فشلها فيها ألم ما أصابه من فشل. وبدأ سيرفانت وكأن القدر لا يريد أن يسلكه في الأدباء.

لقد فشل سعيه لإصابة الشهرة. واستقرت به النوى، لبيحت عن السعادة. فتزوج من سيدة تصغره بثماني عشرة سنة. لكنها على شبابها تعجز عن إرضاء خياله الجوال الأفاق. فما هو إلا عام بعد زواجهما حتى كان أباً لطفل.. من امرأة أخرى.

وحاول بعض الوقت أن يصيب بسن قلمه رزق أسرته متمشياً في ذلك مع القانون والطبيعة. وفي عام ١٥٨٨- وكان في عامه الأول بعد الأربعين فولى وجهه شطر مورد للمال أكثر حكمة، فسلك بين العملاء التجاريين الأرمادا العظيمة. ولكن سوء الطالع لاحقة هنا أيضاً. فهزمت الأرمادا وفقد سيرفانت مورد رزقه.

ثم اشتغل في عمل آخر.. فعمل محصل ضرائب في غرناطة ونقص الإيراد على عهده نقصاً خطيراً سواء لعدم أمانته أو إهماله، فقبض عليه وحكم عليه بالسجن فترة من الزمان. فلما أطلق سراحه عاد إلى الأدب يتعيش به، وصار من مرتزقة الشعارير، إذا جاز هذا التعبير. فهو يكتب المقدمات المنظومة تمجيداً لكل أنواع الكتب مهما تختلف موضوعاتها بين ملاحم الشعر وفن التوليد. وكانت هذه المقدمات. لا تفضل الكتب

عادة. حتى لقد كتب (لوب دي فيجا) وهو من كبار كتاب المسرح (في خطاب مؤرخ في الرابع عشر من أغسطس سنة ١٦٠٤) أنه ليس في إسبانيا شاعر أسوأ من سيرفانت. وأن سيرفانت نفسه ليعترف بذلك فيقول في مرارة ماجنة "إنني أشد دربة على قلب النظم مني على النظم".

وهكذا بلغ عامه الثامن والخمسين.. فتراه رجلاً محطماً مسناً خائب الأمل، ضائعاً بالحياة. لقد فشل في كل شيء، وفشل في الأدب على الأخص. وهو الآن إذا استعربنا قوله- "رجل ذو حلية كالفضة، وإن كانت كالذهب منذ أقل من عشرين عاماً، وشارب ضخيم وفم صغير" أما الأسنان: فليس له منها غير ستة وهذه حالتها سيئة، ونظامها أسوأ، لأن أسنان الفك الأعلى لا تقابل أسنان الفك الأسفل. ويجربنا أيضاً أنه ذو بشرة إلى البياض أميل منها إلى السمرة، ثقيل الكتفين شيئاً، وليس خفيفاً نشيطاً في سيره. وهذه صورة لا تأخذ بمجامع القلب صورة رجل مهجور مهمل يبدو أنه قد ارتضى أن يسير إلى النسيان الأبدي بطيئاً متثاقلاً.

-٢-

وبعدئذ قفز فجأة إلى المجد دون إيذان النفير، كأنه وهج مفاجئ بعثت به الشمس الغاربة. فهذا الرجل الذي كتب في شبابه بضعاً من أردأ قصائد العالم قد وأناه الإلهام في شيخوخته. فكتب إحدى آيات القصص في العالم.

كان سيرفانت يشتغل في كتاب "دون كوشوط" منذ أمد طويل. وكتب منها فصولاً في زنازة السجن. وقد نسفت حوادثها جميعاً وسجلت في حمأة الفقر ولذعه اليأس. وما كانت دون كوشوط غير بستان نما من الطين، وحكمة تمخض عنها الألم. وإلهام تجلى على روح وادع، سيم

العذاب في جسم مرهف الحس، وإذا كان العالم قد سلك هذه القصة في عداد الآيات العالمية. فما أبعدها مع ذلك عن أن تكون كتاباً كاملاً لا غبار عليه. فإن بما لأخطاء فاضحة، وأنها لمصابة- كما قرر كثير من نقدتها- بذلك الداء الذي مني به

الراويّة الإسباني، أعني داء الإسهاب الممل. فالكتاب بالغ في طوله، بالغ في تفككه. فأزاهير عقل سيرفانت موزعة لذلك على أرض بالغة في السعة. وعليك إذا شئت بلوغ مواطن الجمال المنعزلة هنا وهناك أن تجوب إليها كثيراً من الدروب والمسالك القائمة الكتيبة، ولعل هذه القصة (دون كشوط) كان يتضاعف حظها من الجودة، لو تضاعف حظها من الإيجاز.

والقصة إلى ذلك مصابة بالكثير من عدم الدقة سواء في بنائها أو في أسلوبها. فسيرفانت لم يصحح كتابه قط على ما يظهر. ولم يعد قراءته حينما كتبه، فما أكثر ما بدأ فصلاً جديداً بما ينقص ما كتب آخر الفصل السابق، وكان ذات مرة أشبه بما روي عن يوشع في التوراة من أنه وقف مرور الزمن، وأمر الشمس أن تلتزم مكانها لا تتحول عنه أياماً عدة. فقد دعي دون كشوط وسانشويانسا إلى منزل الدوق لتناول العشاء إذا أقبل الليل. وبعد أن أصابا من الطعام ألواناً عدة شاركا في نقاش طويل، جاوز بهما منتصف الليل بوقت طويل لأمرء، يقول سيرفانت "الآن قرب المساء".

وفي مكان آخر يذكر لنا سيرفانت أن حمار سانشو قد سرقه لص ثم تجد (المؤلف) لا يبي عن وضع سانشو بانسا فوق حمارة المسروق سبع مرات على الأقل، والكتاب مليء بمثل هذه الزلات.

على أننا سنتناول أخطاء سيرفانت بنفس الروح التي تناولها هو بها، فهو حين يكتب الجزء الثاني من دون كشوط يلفت القارئ إلى أخطاء الجزء الأول ويضحك منها: "يا إلهي ما أخرقنا نحن البشر" فهو لا يعتذر عن أخطائه، ولا يسعى إلى تصحيحها ولن يفكر في صقل قصته وتنميقها إلا كما فكر في زخرفة أبطاله وتجميلهم، أمّا التؤلولة المضحكة في الوجه، والسخف الخرف في العبارة هو ما يجعل الإنسان والكتاب حياً محبوباً. وأن بعض آيات الفن لتبلغ من الكمال ما يباعد بينها وبين الإنسانية، أما قصة (دون كشوط) فقد بلغت من الإيغال في الإنسانية ما باعد بينها وبين الكمال.

ودون كشوط هي قصة مجنون وادع. يرويها ساخر وادع. هي سخرية رقيقة بحماقات

البشر. وهذا الكتاب على ما به من تمكّم، قد خلا من المرارة. فنحن نضحك كلما رأينا صورة حماقتنا في حماقة دون كشوط وصورة لخشونتنا في خشونة سانشو بانسا، ونشعر ذات لحظة أننا أقرب صلة بالفارس الذي أربت شجاعته على بصيرته، ونحاز في اللحظة التالية إلى التابع الذي أربت بصيرته على شجاعته.. ويحدث كثيراً إذ نرى الأول يجارب بسيفه والثاني يجارب بلسانه أن نقول "أنها صوري الحقة رسمتها عبقرية سيرفانت"، فكل منا - كما يعرف سيرفانت - كان له يوم مع السيف ويوم مع اللسان. وكل آدمي منا هو مزاج من دون كشوط وسانشوبانسا، ففي أوقات نلوذ بقوة أذرعنا، وفي أوقات أخرى نعتمد على رشاقة أرجلنا وخفتها ونشاطها. ونكون في لحظة حكماء في حماقتنا فنحاز إلى دون كشوط فنحارب طواحين الهواء، ونكون في لحظة أخرى حمقى في حكمتنا فنحاز إلى التابع الذي يجتنب الجهاد منذ الآن "لينا ليلة على سطح الأرض".

وسواء أكننا من الحمقى أو الحكماء فكلنا يسعى على غير هدى إلى نفس الغاية وهي أن نجعل عبء الحياة أخف وطأة.

- ٣ -

لنقض الآن بضع لحظات مثيرة، فلنسرج خيلنا ونعتلي صهوتها لنلقي دون كشوط، ذلك السيد المتجهّم الأسارير، حين يأخذ في غزوته ممتطياً جواده (روزمانت) ذا الساقين النحيلتين، يتلمس أن يقوم بمغامرة نبيلة، ودون كشوط عزب في الخمسين، نحيل الجسم، خوى جيبه من المال، وزخر عقله بالخيال وكان قد قرأ الكثير من كتب الفروسية، والتجوال طلباً للمبارزة، فعزم على أن يكون فارساً مبارزاً، وأحاط جسمه بدرع مزرد هو كجسمه في قدمه وصدئه. ولبس خوذة قد شدت إليه بعقد كثيرة يستحيل عليه أن يخلعها إذا كان الليل، وتسلسل من منزله ذات صباح موقن مشرق من يوليه "وكان عقله قد خبا" فيحسب طواحين الهواء مرده، والتفسييسين قرصاناً، والحلاقين سحره، والأكواخ قلاعاً، والمجرمين سادة، وعاملات المشارب ملكات، ويحاول رد الظالمين وإعانة المظلومين، فلا يلقى جزاء على عمله غير الركل واللكم، يلقاهما من الظالمين والمظلومين على السواء.

ولكنه ما عظمت متاعبه إلا زاد إيغاله في الجنون فكرس حياته لإنقاذ فتاة ريفية لا تحس حتى بوجوده، ودعاها السيدة "دلشينييا الشقراء" ويقبل ما عرضه خادمه الأمين (سانشوبانسا) من تطوع لخدمته. وكان سانشو بانسا ذا حظ من الحرق والحماقة يعدل حظ سيده من الجنون... وإن كان لسانه يجري أحياناً بكلمات تزينها حكمة سليمان. امتطى أتمانه وتبع سيده إلى مواقع الجنون بشتى ألوانه، وهو يأمل في دون كشوط أن ينصبه آخر الأمر حاكماً على جزيرة.

وكذلك نراها ذات صباح وقد بلغ منهما العناء والجهد، ولكنهما غير مكثبين، وقد تأهبا لخوض مغامرة من تلك المغامرات التي عرفا بها وصارت علماً عليهما، ويرفع دون كشوط عينيه فيرى... اثني عشر رجلاً تقريباً مترجلين وكأهم حبات سبحة ربطت في سلسلة من الحديد. وهذه السلسلة تلتف بأعناقهم وأما أيديهم فمقيدة بالأصفاذ. وكان يحرسهم فارسان. وفي يد الراكبين بنادق ذات قداحات، وفي يد الراجلين رماح وسيوف، ولا يكاد يراهما سانشو حتى يقول "هذا عقد من الرقيق المسخرين، قوم سخرهم الملك تسخيراً في الأعمال الشاقة، فيقول دون كشوط "لماذا؟ رجال مسخرون؟ أيستطيع الملك أن يسخر أي إنسان؟ فيجيبه سانشو "لم أقل ذلك، وإنما قلت أنهم قوم يعاقبون على جرائمهم بأن يسخروا في خدمة الملك تسخيراً" فيجيب دون كشوط "لكن هؤلاء الناس على أية حال، وإن كان يرافقهم حرس فهم ذاهبون كرهاً لا طوعاً، فإن كان الأمر كذلك فهذه رسالتي محددة المعالم.. القضاء على العنف والتعذيب وإنقاذ المعذنين والمحتاجين.

وكانت سلسلة الرقيق قد وصلت وقتئذ فسأل دون كشوط أول الرقيق عن جريته التي ساقته إلى الأشغال الشاقة. فقال الرقيق "إني أحب". فسأله دون كشوط "وكيف كان ذلك؟".

"أصبت بهوى سلة من الكتان غراماً جارفاً، حتى لقد احتضنتها.. وحاولت أن أفر بها" وسأل دون كشوط رقيقاً آخر ما سبب القبض عليه. فأجاب السجين "كان السبب أنني لم أمتلك عشر ديكات، ولو تقيماً لي هذا المبلغ لأجريت به قلم مسجل الصكوك وشحذت به قريحة المحامي ولو كان ذلك لكنت اليوم في وسط سوق (طليطلة) لا في آخر

السلسلة مجروراً كما يجز الكلب. ويذكر سجين ثالث لدون كشوط أنه معاقب على جرم خطير، جرم لا يغتفر. فقد اعترف بأنه سارق، ولو أنه استطاع أن يمسك لسانه، واحسرتها، لكان الآن رجلاً حراً.

ويستمع دون كشوط صابراً إلى قصة كل سجين. ثم يقرر أن هؤلاء الناس وإن كانوا مجرمين في رأي القانون، فهم كذلك قوم نزلت بهم محنة، وإن ما أصابهم ليرجع إلى حقيقة عرضية، هي أنهم قد قبض عليهم، فأعلن إليهم أن من واجباته بوصفه فارساً جوالاً أن يعطف على المحتاجين ويبدل لهم العون، ولكن دون كشوط قرن قوله الأحمق بالعمل الجنوني، فشن هجوماً مفاجئاً على الحراس، فأذهلتهم المفاجأة، وفروا مذعورين، واتيح للسجناء أن يتحرروا من أصفادهم.

ويزدهي هذا النصر دون كشوط فيأمر الرقيق الذين أنقذهم بأن يرفعوا الأصفاد التي حررهم منها، ويحملوها إلى (حبيسته دلشينا الشقراء) ذكرى للمعركة التي انتصر فيها، ويرد السجناء الفارون على ذلك الرجاء العجيب بوابل من الحجارة يمطرون به دون كشوط وسانشو بانسا. ثم يختفي الأرقاء كل في ناحية. ويظل الأتان والحصان، وسانشو ودون كشوط وحدهم.

ويقف الأتان يتفكر مطرق الرأس، تهمز أذناه بين الآن والآخر، فهو يظن أن عاصفة الحجارة لم تقف بعد، بل أن صفيها لا يزال يتجاوب حوله ويستلقي الحصان إلى جانب صاحبه الذي وقع عنه هو الآخر بفعل قذيفة حجرية، أما سانشو فقد وقف في مسكنة وخوف من رصاص الإخوان المقدسين (الشرطة الإسبانية) واستلقى دون كشوط بطوله على الأرض محسوراً إذ كان المسيئون إليه هم من قدم إليهم كل ذلك الجميل.

ويضطر دون كشوط وسانشو بانسا إلى الاختفاء آخر الأمر في الجبال ليتقوا غضب الإخوان المقدسين.

وهنا يقترح الفارس المقطب الجبين أن يؤدي الكفارة كما كان يؤديها فرسان الزمن الحالي. فيسأله سانشو- وعم تكفر؟ فيجيبه دون كشوط "لا أكفر عن شيء محدد

بالذات" إن أي إنسان يستطيع الحماقة لسبب معقول والمهارة أن تكون أحق لغير ما سبب على الإطلاق. ففرسان الزمن الحالي كانوا يعذبون أنفسهم لأن عشيقاتهم غير مخلصات. أما دون كشوط فيحب تعذيب نفسه لأنه يستمرى مذاق الألم. وهكذا يخلع ملابسه ويأخذ في ضرب رأسه في الصخور ويهيب بسانشو أن يراقب جيداً تفكيره الأليم وأن يبلغ نبأه لدولشينيا الشقراء.

وما يفرغ من هذه الكفارة حتى ينخرط في سلسلة أخرى من المغامرات المجنونة وتبلغ هذه السلسلة ذروتها في مبارزة مع زق خمر حسبه دون كشوط مارداً مسحوراً. وكذلك يسير من جنون إلى جنون، حتى يقابله أخيراً في وسط مغامراته المضحكة قسيس قرينته، الذي كان يبحث عن ذلك الجنون الحبيب. فيحمله إلى قرينته في قفص. فإذا أحضر هو وتابعه إلى القرية هرعت زوجة سانشو بانسا إلى زوجها وعلى شفتيها سؤال متلهف "هل حمارك بخير؟" فيجيبها سانشو بانسا. "هو خير مني" فتدمدم في حماسية "حمداً لله". وهكذا ينتهي الجزء الأول.

قدم سير فانت للعالم ذلك الكتاب المرح (الجزء الأول من دون كشوط عام ١٦٠٥) ولكن حياته الخاصة كانت توغل في المرارة وإذا كان الفقر لما يزل يطارده، فعليه الآن كما كان عليه من قبل أن يعيش بين حثالة البشر. فأقام مع ابنته وأخته في شقة في منزل سيء السمعة، حتى لقد أومئ إلى أنه قد شجع ابنته على احتراف (أقدم مهنة في العالم) وأنه كان يعيش مما تنكسبه. ثم أصابه في السابع والعشرين من شهر يونية ١٦٠٥ خطب هو أعمق خطوبه، فقد وجد في غرفة سير فانت وأهله نيين رفيع المقام مقتولاً، فقبض على سير فانت بتهمة القتل. ولكن ثبتت براءته لحسن الحظ.

وحينما كان العالم في الأعوام العشرة التالية غارقاً في ضحكه من دون كشوط كان سيرفانت لا يكتب إلا نادراً. فقد كتب عدداً من القصائد المتوسطة في قيمتها، وحفنة من المسرحيات لم يكتب لها رؤية المسرح قط، ومجموعة لا بأس بها من القصص القصيرة. هذا كل نتاجه الأدبي في حقبة كاملة، مضافاً إليه الجزء الثاني من قصته العظيمة.

والجزء الثاني من دون كشوط أطرف من الجزء الأول نفسه من بعض الوجوه. فهو مزاج من اللغو المخرف والحكمة اليقظي فدون كشوط يتكلم أحياناً كالجنون ويتكلم في أحيان أخرى كما يتكلم الحكيم. وبفضل عبقرية سيرفانت تمخضت هذه الأشتات عن كائن حي متسق.

على أن بطل الجزء الثاني ليس (دون كشوط) بل (سانشو بانسا) لقد صار عقل هذا الرجل أشد خرقاً من جنون سيده. إنه لا يزال مولعاً بمعاينة طعامه وتقبييل زجاجته. ولكنه لم يعد الأحق الخلي البال الذي رأيناه في الجزء الأول. أنه الآن أبله طموح، حريص على أن يثري، وأن يعد زيجة فاخرة لابنته. فمن الخطر على شابة حسناء أن تظل وحيدة. فالزواج السيء أسلم للفتاة من الاختلاط غير المشروع.

لذلك فهو لا ينهي من مطالبة (دون كشوط) بالجزيرة التي وعده بها جزاء له على خدماته. أنه واثق بقدرته على أن يكون حاكماً كفؤاً، لأنه كما يقول عن نفسه (أعرف قليلاً عن كل شيء) وقليلاً قيماً عن أي شيء.

ويبدو في الواقع أن سانشيو بانسا قد التحق بالمدرسة بين بداية الكتاب ونهايته فهو في الجزء الأول من الكتاب جاهل بقدر ما هو مخلص. ولكنه في الجزء الثاني يغدو وطابا ينضح بالأمثال فتنهال من فمه بالمئات في كل مناسبة. وهي زاخرة بالإيقاع اللفظي فقيرة جداً في المعنى.

وكذلك ينطلق التابع وسيده في مهمتهما الحماسية الهاذرة. وأن دون كشوط لعلى يقين من أن ساحراً يحول بينه وبين مغامراته، وينجح سانشو بانسا في إقناعه كذلك بأن السيدة دلشينيا نفسها قد سحرت. فبعد أن كانت آنسة جميلة، تحولت إلى جارية ريفية دميمة، فقرر دون كشوط أن يفك سحر محبوبته. وسمع من أحد الماجنين الذي يجاولون الهزء به أن المسئول عن كارثة دلشينيا هو سانشو بانسا، ولن تتحرر دلشينيا إذن من أسر السحر حتى يعاقب سانشو بانسا نفسه بثلاث آلاف وثلاثمائة جلدة على عجزه

الشجاع. ويشكو سانشو قائلاً "لا أرى علاقة بين الضربات على عجزى وسعادة ليدي دلشينيا". فإذا عرض عليه سيده مبلغاً طيباً من المال لقاء هذا الجلد، غير رأيه ووافق قائلاً "حسناً جداً، سأفعل ما تطلب إلى وارفع السحر عن السيدة". وهكذا يصحب دون كشوط إلى الغابة، ويخلع ملابسه ويخفي نفسه وراء غيضة من الشجيرات ويطلق مع كل جلدة آهة رهيبة. ويقف دون كشوط على الجانب الآخر من الغابة لا يستطيع أن يشهد الجلد وتتشعر أوصاله رحمة بتابعه الأمين الذي ينزل بنفسه ذلك العذاب - فإذا فرغ سانشو من الجلد أمطرتنا وإبلاً من الأمتال ثم انطلقا إلى المغامرة التالية.

هذه المغامرة تذهب بهما إلى قلعة أحد الأمراء وكان الأمير قد سمع بمهازلهما فأغراها بسلسلة من المهازل أشد هزءاً، ولعل هذا الرجل فيما يقول سيرفانت أشد أشخاص القصة غفلة لأنه (يجد كل هذه اللذة في الهزء بغيره من الغافلين) فيحرض كشوط على محاربة القطط المسحورة، ويورطه في غرام ساخر مع إحدى وصيفات الدوقة ويعرضه للإهانات والتهديد والصفعات من كل جانب. وبينما هو يمتع دون كشوط على هذا النحو، إذ يرفع سانشو بانسا إلى منصب حاكم على جزيرة باراتاريا، وهذه الجزيرة ليست في الواقع غير قرية على الأرض لا في البحر، ولكن السداجة قد بلغت بسانشو بانسا إلى حيث لا يميز بين الجزيرة وغير الجزيرة. وتقدم إليه في سخرية فخمة تنفخ في أوداجه عظمة الملك، وقال عليه الصحاف زاخرة بأعلى الأطعمة، متبلة بأشهى التوابل، وإلى جانبها دنان الخمر من نبيذ عطر، فتصرخ أحشاؤه في طلب الطعام. ولكن طيبب القصر يجذره من أن يمس شيئاً مما وضع على المائدة. ففي الجزيرة جواسيس قد عقدوا العزم على دس السم في طعام الحاكم وشرايه.

ما أبلغها من تعاسة ياسانشو. أنه على عجزه عن الاستمتاع بملذات منصبه الرفيع، مضطر أن ينهض بمسئوليات هذا المنصب. فهم يجلسونه على منصة القضاء ليقضي في المنازعات بين رعاياه. وعلى حين بغتة يصير رغم كل جهالته آية في العدل، ويظل عشرة أيام يحكم الجزيرة بقلب عامر وجوف خاو. ثم يقرر أن يتحنى عن مجده الملكي. يفعل ذلك راضي النفس خاصة وأنه قد سمع أن الجزيرة مهددة بالغزو فيقول إن صلوكاً حياً

لخير من ملك ميت. ولا يطلب لقاء خدماته في حكم الجزيرة غير حفنة من الشوفان طعاماً لأتانه، ونصف قطعة من الجبن طعاماً له هو:

ويعود إلى دون كشوط فيعرض خدماته في مغامرات سيده المقبلة، ولكن مغامرات الجنون الجديدة موشكة على النهاية. فقد حاول أصدقاؤه بكل ما استطاعوا من وسيلة أن يبرئوه من جنونه. واهتدوا أخيراً إلى خطة عملية، فقد أغروه بمبارزة صمويل كاراسكو، وهو من أصدقاؤه القدماء، تنكر في شخصية أخرى، واستخفى في زي فارس جوال وقيل لدون كشوط أن الفارس المغلوب عقابه أن يخضع لإرادة الغالب. فلما انتصر كاراسكو بسهولة على دون كشوط، أمره بالعودة إلى منزله، وألا يعرض نفسه بعدها لأخطار الفروسية أبداً. ولكن الشارد دون كشوط لا يرعوي عن غيه. فهو بعد إذ هجر المغامرة، قرر أن يتخذ له مهنة تعد لها جنوناً. هي مهنة الراعي العاشق. ولكن مرضاً عضالاً يصيبه فينجيه من جنون نهائي. فإذا ما اقترب دون كشوط من يومه الأخير عاد إليه عقله. (إني أنعم الآن بعقل حر نافذ لا تحجبه سحابة الجهل التي أنشأتها القراءة المستمرة والانكباب على كتب الفروسية. لقد كنت في حياتي غافلاً جهد الغفلة. ولكني سأحاول أن أكون في ماتي. أدنى إلى العقل شيئاً).

-٦-

لقد بدأ سيرفانت الجزء الثاني من دون كشوط في كسل وتردد. ولعله ما كان ليكمله لولا أن نافسه مزور محتال، ذلك المحتال الذي كان يتخذ لنفسه اسماً مستعاراً هو (افلاندا) وقد أصدر هذا المحتال تممة مزورة لدون كشوط، فاستشاط سيرفانت غضباً من هذه الجرأة، وسارع بإنجاز التهمة الصحيحة وقدمها للعالم سنة ١٦١٥.

وحسناً فعل. لأن العام التالي قد طوى حياته. فيالهما من فيلسوفين مجنونين حبيبين إلى النفس، دون كشوط وسيرفانت، قد كتبت لكليهما نعمة العيش في غفلة، والموت في حكمة.

أهم مؤلفات سيرفانت

Galatea Novelas Exemplares
Don Duixote Persiles y Sigismunda

وكثير من التمثيليات والقصائد.

دانيال ديفو

١٦٦١ - ١٧٢١

هذا الرجل كما قال أحد معاصريه- كانت أمه الزنيق، وكان أبوه الشيطان. والواقع أن مؤلف (روبنسن كروزو) كان من أشد رجال عصره قلقاً. ولم تكن الملائكة تبارك هذا القلق دائماً.

كان طوال حياته يحاول خدمة سيدين "الله والذهب" وبهذا الولاء الموزع لم يستطع أن يخدم أي السيدين في إخلاص كاف. فهو قد أعد للعمل في الكنيسة لكنه اشتغل بالتجارة. فكان يبيع الغزل والجوارب والنبيد والمخار والآجر والبلاط والمنازل والأفكار.

انغمس في السياسة ووهنت قواه في السجن. وأوقف في مكان التشهير. وكان يتردد على منازل أهل النفوذ. وكان يدلف إليها من الباب الخلفي عادة.. وكان يعاشر الثوار والمنبوذين. وكان يتحدى الأمراء بوصفه أحد المنشقين على الكنيسة ويخدمهم بوصفه جاسوساً. وقد أصاب الثراء عدة مرات ومات محتبئاً. هارباً من دانيه. وألف أكثر من ثلثمائة كتاب.. ولا يقرأ منها الآن غير ثلاثة فقط. روبنسن كروزو. ومول فلاندرس وصحيفة عام الطاعون (A journal of the Plague Year).

كان يدخل في تركيبه كل نشاط إنساني تقريباً، طيباً كان أو شريراً. وكان كالأرض الحية تعمرها الريح والصخور والأنهار والظلال والأزهار. وتعلوها شمس العبقرية التي تحيل المنظر المألوف الشتيت الألوان إلى جمال رائع.

لكن لننظر عن كثب إلى هذه الشخصية الشتيتة الألوان المسماة دانيال ديفو.

كان في صباه يدعى (دانيال فو) ابن بائع الشمع (جيمس فو) ولم يوقع (د. فو) إلا بعد أن تجاوز الأربعين. ثم وقع ديفو، ثم دانيال ديفو. وأخيراً شاء أن يلائم بين مركزه واسمه. فابتاع شعاراً للأسرة. واخترع سلسلة من النسب تؤدي به إلى أصل نبيل.

لكن أباه لم يكن في شك من أنه براء من أية نسبة إلى النبلاء. فرى أولاده وفق التقاليد الصحيحة للطبقة الوسطى الإنجليزية. وكان منشقاً على كنيسة إنجلترا. فأوحى إلى أسرته بروح البرم- ودرّب دانيال منذ نعومة أظفاره على أن يكون أفاقاً لا يهدأ، وناقداً للحياة دقيق الملاحظة.

لم يكد دانيال يشب عن طفولته حتى حلت بلندن كارثتان مروعتان. هما الطاعون الكبير ١٦٦٥ والحريق الكبير ١٦٦٦ وخرجت أسرة فو من هاتين الكارثتين بدون أن تصاب بسوء. ولكنها أصيبت بالذعر.

(أن الحياة فرار دائم من الخطر) ومحاولة مستمرة لتحسين النفس من الخطر.. خطر الموت، وخطر الفقر، فالطاعون والنار قد جلبا ذلك الجوع الذي قتل آلاف الأسر. فيجب على آل فو أن يحرصوا على ألا تصيبهم مثل هذه المأساة "دافع العوز يا بني عن نفسك، وحاربه طول حياتك".

لقد حاربه جيمس فو نفسه ونجح في كفاحه نجاحاً لا بأس به. فأبدل ببيع الشمع بيع اللحم فلئن تخدم اللحم لأجدى عليك من أن تجلب النور. وتسمح له حاله الآن بأن يفكر في تعليم أبنائه تعليماً حسناً. فيبعث بدانيال إلى (أكاديمية) خاصة قائلاً أريدك أن تكون قسيساً وإلا فكن تاجراً. ولكني أريدك على أي حال أن تكون سيداً ناجحاً.

فقرر دانيال أن يحترف التجارة عملاً بنصيحة أبيه. فإن طريق النجاح غاية في الوعورة على قسيس بالكنيسة المنشقة. وهكذا نجده في سن العشرين يزور حوانيت لندن وسيطاً في بيع الجوارب. وكان شاباً نشيطاً مليئاً بالأفكار خاوياً من المال، وكان على هامش نشاطه يتجر بالمشروبات والطباق والأقمشة، والمخار، والغلايين، والسعوط. فكل شيء كان يدير طاحون مطامحه المالية.

كان شاباً ذا مواهب قوية، وأفكار إيجابية. لكنه كان قلماً يعمل وفق أفكاره. فإنه لينصح بعدم المبادرة بالزواج، ويتزوج وهو بعد في الرابعة والعشرين، ولكن هذه الخطوة كانت إلى المهارة أقرب منها إلى الاندفاع. فقد منحته زوجته بائنة قدرها ٣٧٠٠ جنيه.

وأنة لينصح أصدقاءه بالابتعاد عن السياسة وينغمس هو في تيارها فيشترك في ثورة (نموث) التي نشبت ضد العرش وكاد يدفع حياته ثمناً لحماقته.

وشفى من ثورته زمناً لكنه لم يشف من عدم مبالاته. فقد أسرف في توظيف أمواله في سفن التجارة وابتاع منزلاً بالمدينة ومنزلاً بالريف وجازف في كل مشروع جريء مر بخاطره. وإن الإسراف في التجارة لا خطر من الإقلال منها. فهو يجد نفسه في أوائل الحلقة الرابعة من عمره وقد أفلس واستدان مبلغ ١٧٠٠٠ جنيه.

ثم تأتي فترة من القضايا، والقضايا المقابلة، واتهامات بالخنث باليمين والابتزاز والتزوير. وبذل مجهوداً يائساً لأن يعوض بقلمه ما حاق به من خسائر، فأخذ يتجر ببضاعة جديدة، ببضاعة الفكر. فكتب عدداً من القصائد والنشرات ووجد أنها دعامة ضعيفة لرجل تتكاثر أسرته. لذا فهو يعود إلى التجارة ويدير نصيباً حكومياً ويشغل محاسباً في إدارة الدخل ويصبح مستشاراً قديراً لنظام العملة البريطاني. لكنه وجد أن رقيه في وظائف الحكومة يسير في ببطء لا يساير طموحه الذي لا يهدأ. فكان توافاً إلى أن يشتغل لحسابه الخاص. فجمع من جديد بضع مئات من الجنيهات، فإنه أملس اللسان ناعمه كما هو سيال القلم حاضر العبارة. وافتتح مصنعاً للآجر والبلاط ووجد أن نجاحه قد فاق أحلامه، فاشتري عربية ومنزلاً جديداً.. وما مضت أعوام قليلة حتى كان قد أدى معظم ديونه.

وخير ما في الأمر أنه وجد وقتاً للكتابة فهو في سالف عهده قد حمل نفسه على الاشتغال بالأدب كما تحمل النفس على حرفة مؤلمة. أما الآن فهو يعود إليه بوصفه ملهارة ممتعة. فكتب عشرات من النشرات في كل الموضوعات مهما تنوعت، فتناول إنشاء الطرق وتحرير المرأة والنعي على قوانين إنجلترا الظالمة فكلها قوانين أشبه بعش العنكبوت الذي يمسك بصغار الذباب بينما تقتحمه كبار الحشرات، كما كتب قصيدة تمكمية عنوانها "الإنجليزي الأصيل المولد **The True Born Englishman**" وهو يندد فيها بقسوة البريطانيين على المهاجرين الأجانب والهولنديين منهم خاصة. وكان من أثر هذه القصيدة أن كسب ديفو قدراً من الشهرة. وليس هذا فحسب بل وكسب كذلك مودة

الملك. فقد كان ولیم الثالث نفسه هولندياً فجازاه "أعظم الأمراء وأحسنهم" كما يقول ديفو "بما جاوز طاقته على الاستحقاق" فقد أصبح ابن تاجر الشمع في عامه الأول بعد الأربعين مستشاراً للملك. وكان ينفو فخوراً، وحق له أن يفخر، بما أحرزه. ولكنه لم يكن يدري شيئاً عن تلك المزالق التي تنتظره في قابل أيامه.

- ٣ -

كانت متاعب ديفو ترجع إلى حد ما إلى تناقض عجيب في خلقه. فهو ابن تاجر منشق، فهو خليط متناقض من الطموح المادي والتماسك الخلقى، وكان طموحه يسيطر أحياناً على خلقه. ولكن خلقه كان في أحيان أخرى يسيطر على طموحه. وهو ألا يكن دائماً فوق مستوى شبهة النفاق في معاملته شركائه في التجارة فهو لم ينزل قط إلى مستوى النفاق بعقيدته المتطهرة. فهذه العقيدة المتطهرة طالما أغرتة بالسعي إلى الكوارث وسط مجالي الرخاء. فهو في ميدان السياسة كثيراً ما باع قلمه. لكنه في ميدان الدين لم يبع ضميره قط. بل إنه على نقيض ذلك قد حافظ على حماسته في دفاعه الباسل عن قضية المنشقين البغيضة في وجه برلمان معارض. وقد بلغت إحدى نشراته في الدفاع عن المنشقين من الإيلام للبرلمان الرجعي بحيث صدر أمر بالقبض عليه فاخْتَبأ ديفو ومنحت جائزة قدرها خمسون جنيتهاً لمن يعثر عليه "هو رجل متوسط الحجم في نحو الأربعين أسمر اللون وشعره داكن لكنه يرتدي شعراً مستعاراً، ذو أنف روماني وذقن مدببة وعينان رماديتان وتؤلولة كبيرة قرب فمه".

وعثر عليه وفي التاسع من يولييه عام ١٧٠٣ حكم عليه بأن يقف ثلاث مرات في مكان التشهير وأن يؤدي غرامة قدرها ٣٠٠ مارك وأن يرسف في السجن ما طاب للملكة آن أن يرسف. فالملك الذي كان يرعى ديفو قد مات إذ سقط عن صهوة جواده.

ولكن هذا التشهير العلني الذي قصد به إذلال ديفو قد استحال إلى نصر. فالدهماء بدلاً من أن يقذفوه بالبيض الفاسد والسّمك النتن كما جرت العادة كانوا يجيئون بالهتاف

والتصفيق. لأنه رجل جرؤ على أن يقول قائلته، فكانت رحلته من مكان التشهير إلى السجن أشبه بموكب الفاتحين الغزاة، ولكن باب السجن لم يكد يوصد عليه حتى نسيه المعجبون. وظل عدة شهور سجين زنزانته ما طاب للمملكة آن. وكانت تبغض المنشقين.

وكان مصنع الأجر الذي يملكه يدب إليه الخراب وكانت أسرته تشرف على الموت جوعاً ولولا دهاء الوزير الجديد (روبرت هارلي) لجاز أن يظل في السجن طول حياته، وكان هذا السياسي الكبير يكره مبادئ ديفو الدينية على أنه كان على حظ من الدهاء مكنه من استغلال مبادئ ديفو السياسية، أو أن شئت الدقة فقل تحرر ديفو من المبادئ السياسية. فقد لاحظ أن قلم هذا الكاتب السلس يستطيع اللعب البهلواني على حبل السياسة فهو يمدح الأحرار أنا ثم يمدح المحافظين أناً. وكان هارلي نفسه من المحافظين لكنه يتوق إلى كسب مودة المعتدلين من الأحرار فساوم ديفو.. ووهبه حريته في مقابل خدماته الأدبية.

وقبل ديفو ما عرض عليه وأصبح لسان الحكومة. فأنشأ جريدة أسبوعية (he Review) بمساعدة مالية من راعيه، وأكد ديفو أنها مجلة متحررة من التعصب والحزبية ولكن القراء كانوا أعلم ببواطن الأمور، فالألفاظ في الريفيو كانت لديفو ولكن الصوت كان لهارلي.

ومن الإنصاف أن نقول إنه لم يجد مشقة كبيرة في تقليد صوت هارلي. فهارلي كان من أحرار حزب المحافظين. بينما كان ديفو من أحرار حزب الأحرار. والحريّة مهما تتخذ من أسماء ومعسكرات فلها نفس اللون في كل مكان. إن ديفو يشعر - ولعله على حق - أنه يخدم قضية بلاده إذ يحاول جمع المعتدلين في الحزبين على التفاهم.

وكان معنى هذا أن يبذل ديفو جهداً شاقاً ويلقي كثيراً من العنت وقليلاً من الأجر. فلقد كان يكتب كل كلمة في كل عدد من أعداد المجلة لأن هارلي لا يأتمن إنساناً غيره على عمل بهذا القدر من الدقة، ولكن ديفو رغم دماثته ودقته قد واطب على كسب عداوة المنتظرين في كلا المعسكرين إذا كانت حياته الصحفية حرباً دائمة على القدر

والتنديد والالتزام والتهديد.. وحرماً على الفقر، فإن هارلي ليدفع وعوداً خلاصة لا أجراً محددًا.

وطالما أذل ديفو وحمله على استجداء الأجر الذي استحق الأداء من زمن طويل "إن على الآن واحسرتاه أن أطمع أسرة من سبعة أطفال" وكان هم هارلي أن يحتفظ دائماً بولاء عبده وكان سبيله إلى ذلك ألا يدع العبد يطمئن إلى المستقبل.

وتحقيقاً لهذه الغاية ظل هارلي يزيد كل يوم توريطاً لديفو في حبال منظمات الحكومة السرية، فأحاله باختصار إلى جاسوس، أو وكيل سري كما كان يسميه تجملاً، وكانت مهمة ديفو بوصفه وكيلًا للحكومة أن ينتقل في البلاد متنحداً له اسماً مستعاراً وأن يتحدث إلى الناس ويتحسس أعمالهم ويتعرف إلى رأيهم في ملكتهم ووزيرها.

وفي صيف ١٧٠٤ بدأ ديفو رحلته التجسس فوجد هذه الرحلة حبيبة إلى نفسه كما اعترف بذلك. فهو طلعة بطبعه يجب صحبة الناس وملاحظة عاداتهم ودراسة شخصياتهم وتحليل أفكارهم. فجعل من نفسه مشيراً صديقاً للناس، لا جاسوساً فضولياً عليهم، وليس هذا السبيل أقل تحقيقاً لما رمت إليه الحكومة. ذلك أن ديفو قد نجح في أن يستميل نقاد العرش بدلاً من أن يحاول دمعهم بالجرمة.

وكانت خدماته قيمة بشكل أخص في دعم الوحدة بين إنجلترا وإسكتلندا لقد حياه الناس بصيب من الحجارة حين وصل إسكتلندا أول مرة وهاجم منزله في تلك الليلة جمهور ثائر من أعداء الإنجليز هاتفاً (يسقط الجواسيس! لا وحدة مع إنجلترا) وهرب ديفو من باب خلفي فنجأ بأعجوبة، ولكنه استطاع تدريباً أن يكسب آذان قادة إسكتلندا وقلوبهم، واستطاع آخر الأمر أن يكتب إلى هارلي (إني الآن مرتاح إلى رؤية ثمرة كل ما بذلت من الكد والكفاح في مواجهة الدهماء.. وهذه الثمرة هي الاتحاد.. وإني أكتب إليك ذلك بينما مدافع القلعة تقصف احتفالاً بالاتحاد.. ولعلي أستطيع أن أقول لك دعني الآن أرحل من هنا فقد رأيت عيناى نهاية الشقاق).

ولكن هارلي يرغب عن السماح له بالرحيل. فديفو رقيق قيم جداً بحيث لا يصح

تحريره بهذه السرعة (فأبقى يده على الحراث وأطعمه آمالاً جوفاء) فبعث إلى ديفو بصك بمبلغ مائة جنيه وهو مبلغ وفي بإطعام أسرته ولم يصلح دعامة لأي مشروع مادي، واستمر ديفو يخدم سيده ويرسم خطة المستقبل أعمر بالرجاء يجلب حياة أسعد، ليس لشخصه وكفى بل للعالم أجمع. استمر في عمله وكيل مخبرات هارلي ولكنه استعان على العيش ببيع فرش الموائد في إسكتلندا وكتابة عدة نشرات لإصلاح المجتمع. فهو يدعو سنة ١٧٠٩ إلى إنشاء عصبة أمم ومحكمة عالمية وكان الملك لويس الرابع عشر قد أصيب لتوه بهزيمة نكراء على أيدي الجيش البريطاني فكتب ديفو يقول (إن في استطاعة إنجلترا وحلفائها أن تمنع إلى الأبد أي حرب جديدة في أوروبا ويمكنها أن تقيم من نفسها حكماً في كل المنازعات والخلافات التي يمكن أن تنشأ في أوروبا سواء بين مملكة ومملكة أو بين ملك ورعيته. فهي تستطيع أن تجعل من مؤتمر الحلفاء محكمة استئناف يلجأ إليها كل من أودي أو اضطهد.. فتحمي الدول الصغيرة من إرهاب جارتها القوية فلا يفتن قوى على ضعيف بعد اليوم ولا يبتلع القادر العاجز ولو شاء هذا الاتحاد (الذي يتكون من أمم تكره العدوان) لاستطاع منع نشوب الحرب حتى ينتهي العالم.. غير أن أنصار العزلة في القرن الثامن عشر لم يعيروا ديفو أذناً واعية، فكان شأنهم معه كشأن أنصار ودررو ولسون.

- ٤ -

وتمضي عدة سنين لا نعرف فيها مكان ديفو. لقد دارت دائرة الحظ السياسي على هارلي فنزل من علياء سلطانه إلى غيابة السجن.. وأخذ معه عدداً من أنصاره منهم ديفو. وكانت هذه الفترة الأخيرة في السجن شفاء لديفو من غرام السياسة "وإذا قال الواعظ أن الأمر كله لا يعدو الزهو والحقد فإني أرى قوله يصدق على هؤلاء الساسة. فكل شيء لديهم تظاهر ونفاق كرهيه، سواء في ذلك كل حزب وكل عصر وكل عهد. فهم إن كانوا خارج الحكم كافحوا لتولييه، فإن ولوه كافحوا لاستبقائه في أيديهم ولم نكد نسمع بحزب أو بشخص إلا وقد قارف - بقدر يزيد أو ينقص - جريمة تغليب مصلحته على مبدئه".

لقد تورط ديفو شخصياً في السياسة، فلم يفد مصالحه ولا مبادئه. وها هو ذا مريض الجسم متقزز العقل، قد فصم صلته أخيراً بهذه العبودية السياسية، واختفى في الضباب.

ثم يعاود الظهور وقد شارف الستين فيطرق عظماء لندن رثاء له ورحمة ما أشنعه من سقوط. لقد صار مستشار الأمراء راوية قصص للطاهيات وهان أمر مؤلف الأبحاث السياسية، فصار يروي مغامرات بحار تحطمت سفينته.. ولم تدرك غير قلة ضئيلة من معاصريه أن دانيال ديفو حين هان فالف (روبنسن كروزو) قد سما إلى المجد الخالد.

-٥-

لقد اهتدى ديفو إلى نفسه آخر الأمر فهو لم يخلق تاجراً ولا كاتب نشرات ولا سياسياً بل خلق قصاصاً وكانت حياته كلها بحثاً عن هذه الحقيقة.. ولم يكن انتحاله تلك الشخصيات المتناقضة، شخصية الصانع والتاجر والمنشق والمحافظ والتائر والرييق والحاسوس، لم تكن هذه غير محاولة لا شعورية لأن يفهم بواطن ألوان النشاط المتنوعة في العرض الإنساني (فإنك إن شئت وصف خطيئة أخيك فعليك أن تتقمص أهابه) لقد انتحل شخصيات الناس من شتى الألوان وهو الآن يفسر الإنسان. فكانت الحقبة الأخيرة من حياته نشاطاً في الخلق مدهشاً وكأن وهن جسمه قد زاد من نشاط عقله فصار خياله بشكل القصة بعد القصة فألف ملك القراصنة، ومغامرات دنكان كامبل، وذكريات فارس، وكابتن سنجلتن، والكولونيل جاك، ومول فلاندرز، وصحيفة عام الوباء، وتاريخ الشيطان فكيف استطاع رجل في هذه السن المتقدمة أن ينتج كتباً جديدة بهذه الكثرة؟ كيف يجد مع ذلك فسحة من الوقت لمغامراته التجارية؟ على أن ديفو وان شفي من داء السياسة فإنه لم يشف قط من عدم المبالاة، فظل حتى نهاية حياته يواصل العدو وراء ذلك الوعاء الذهبي في نهاية قوس قزح. ومهما بلغ ربحه من قصصه فقد خسره في الاستثمار المهمل. وورط معه في هذه الاستثمارات غير الحكيمة طائفة من أقرب صحابه وأقربائه وكانت منهم ابنته (هانا) وشاء آخر الأمر أن يعوض خسائره في التجارة فألف (المرشد الكامل للنجاح في الأعمال) ويهدف هذا المرشد - كما قال ديفو - إلى تعليم تجارنا والشباب البادئين منهم خاصة فقد كان ديفو بارعاً في أجزء النصح... ولم يكن بارعاً في اتباعه فنحن نراه في عامه الخامس والستين وقد تورط في قضية اتهم فيها بالاحتيال وكان الاتهام ظالماً على الأرجح.

وبعد أربع سنين لا نعثر له على أثر. فقد اختبأ من دائنيه وليس من دليل على مكانه غير خطاب وصل إلى صهره (هنري بيكر) في ١٢ أغسطس سنة ١٧٣٠ مهور بتوقيع د. ف. التعس. أما تاريخه فهو (نحو ميلين من جرنتش كنت) يتكلم الخطاب عن محنة رجل مسن مثقل بوطأة من الأسي لا تحتمل، مهمل من أسرته، كسير القلب إذ عامله ابنه معاملة خلت من الإنسانية (والأغلب أن ابنه قد رفض إعطائه المال اللازم لمضاربة طائشة جديدة) "وقد ألح عليه مرض ثقيل جداً فهو طائر اللب إذ يحرم العزاء في ضمة أخيرة من ابنته وزوجها فقد بات لا يحتمل مجرد الحضور لرؤيتهما والعودة في الحال، وأما ذهابهما لرؤيته فأمر مستحيل لأن محبأه يجب أن يظل سراً لا يعلمه أحد حتى أعز الناس عليه ثم يحتتم الكتاب في نعم مستسلم (إني لشديد القرب من خاتمة مطافي أسير مسرعاً إلى حيث يستريح أهل العناء ويقصر أهل الشر عن أذاهم، فمهما يكن الطريق وعراً واليوم عاصفاً، ومهما تكن الوسيلة التي شاء الله أن يميتني بما فيني أريد أن أختم حياتي وفي قلبي هذا الدعاء "حمدك اللهم".

وهكذا... بعد أن أسلم بحار السفينة المخطمة روحه إلى الله.. أبحر وحده مجرداً من الصاحب.. ميمماً شطر الجزيرة المجهولة في الظلام.

أهم مؤلفات ديفو

Essay on Projects	Duncan Campbell
The True-Born Englishman	Memoirs of a Cavalier
Yymn to the Pillory	Captain Singleton
The Apparition of Mrs. Veal	Moll Flanders
Robinson Crusoe	The Journal of the Plaque
Serious Reflection	Year
The Dumb Philosopher	the History of Colonel Jack

جوناثان سويفت

١٦٦٧ - ١٧٤٥

قصة جوناثان سويفت هي مأساة عملاق وثقة الأقزام بالأغلال، ولكنها أيضاً مسلاة ساخر عرف كيف يضحك من أغلاله، كان له عقل بالغ القوة في جسم بالغ الضعف.. وهو مزاج يجعل من صاحبه إما واعظاً مملأً أو ماجناً لامعاً حصيفاً. وقد جمع سويفت بين الشخصيتين في آن واحد.

تجلى تفوق عقله حين بلغ الثالثة من العمر. وتجلي وهن جسمه في نفس السن تقريباً فهو من بداية طفولته مصاب بدوار مسثم يعاوده.

كانت حياته كلها في الواقع خليطاً من المتناقضات وبدأت هذه المتناقضات مع ميلاده- فمع أنه ولد لأبوين إنجليزيين فقد ولد في إيرلندا وقضى هناك معظم حياته. وبدا في أخلاقه ذلك الأثر المزدوج، أثر أسلافه وأثر بيئته.. فقد شب إنجليزي العقل أيرلندي القلب. فقد أباه وسنه ستة شهور فإذا كان الشهر الثاني عشر اختطفته حاضنته. فهي لا تكاد تسمع بموت عم لهما أخلفها تراثاً في إنجلترا حتى تبحر في سفينة دون أن تخطر سيدتها، وأخذت معها على ظهر السفينة طفل سيدتها. ولم يعد جوناثان إلى أمة إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك الحادث وكان الطفل قد قوي فيه حب كبير للإنجيل وكلف شيطاني باللهو والمزاح.

وفي السادسة التحق بمدرسة كلكني والتحق في الرابعة عشرة بكلية ترينيتي بدبلن وهنا أظهر شغفاً بالمطالعة وانتقاضاً على النظام، ولم ينل البكالوريوس إلا بشق النفس. ولكن حيل بينه وبين درجة الأستاذية "لوقاحته مع مساعد العميد" فعاد إلى بلده يجلبه العار.

ولكنه وفق رغم وقاحته في الحصول على منصب سكرتير لسير ولیم قبل، وهو من أوساط الأدباء. وكان مستشاراً مقرباً إلى ملك إنجلترا وكان فيما يتناقل من لفظ حاقد

مريب الأب الطبيعي لجوناثان نفسه. وأتاح له المنصب عشرين جنيهاً في السنة ومكاناً على المائدة الثانية مع الخدم. فغنى السكرتير الأملعي جيئاً واضمحل شأناً، فأقام ينسخ أفكار سيده الشيخ غير الأملعي. فإذا فرغ لنفسه - وقليلاً ما كان يحدث ذلك - نسخ خواطره الشخصية بالشعر غالباً.

وفي أوقات فراغه هذه القليلة (أثناء تدريبه) وجد الشاب متعة أخرى في تعليم فتاة صغيرة تدعى ستيلاهستر جونسون. وكانت طفلة شائقة في النامنة، تقيم بمنزل سير وليم. وكان الغموض والإبهام يكتنفان مكانها من المنزل، والأصل الذي تحدثت منه. فهي قد رسمت ابنة لرئيسة خدم سير وليام وإدوارد جونسون أحد محصلي السيد وأحبها سير وليم فكانت كعضو في الأسرة. وسرت شائعة - وقد يكون لها في هذه المرة مبرر - أن ستيليا أيضاً ابنة طبيعية لسير وليم. ومهما يكن من أمر هذه الشائعة فإن سير وليم لم يقف عند تخصيص بعض ماله لها بعد وفاته بل جاوز ذلك إلى تربيتها تربية السيدات في رعاية جوناثان سويفت. وكان سويفت ينعم بتعليم ستيليا. أما هي فكانت تعبد بكل جورحها ذلك المدرس الطويل الكادح، ذا اللسان اللاذع والبسمة الوادعة.

ولبثت هذه العلاقة الممتعة بين التلميذة ومدرستها تسع سنين يعتمورها المد والجزر. ثم تغير عمل جوناثان سويفت. فقد رسم قسيساً في قلعة دبلن. وسر القسيس الشباب بهذا الشرف الروحي، ولكنه ضاق بالمركز المادي فهو حين قرر العمل في الكنيسة كان يتوق إلى بلوغ قمة الكنيسة الإنجليزية لا أن يكون فنا على فرعها الإيرلندي. ولكن أمنيته هذه العزيرة الوحيدة وهي بلوغ منصب هام في كنيسة إنجلترا كانت الشيء الوحيد الذي ينكره عليه رؤساؤه أشد الإنكار. فذلك القسيس المجنون كما كانوا يدعونه له عقل زاخر بالمفاجآت وقلم ينبو عن التقاليد المرعية. فهو لا يصلح زعيماً من زعماء العقيدة المتعارف عليها، فقد يلقي بأية قبيلة في أية لحظة على عقيدة إخوانه في الكنيسة. وكان الجميع وقتئذ يعرفون أنه قد كتب سخرية ببعض الطقوس الدينية في أوروبا وإن لم يجرؤ على نشر ما كتب وقد أطلق على هذه السخرية (قصة البرميل).

وهذا العنوان كما ذكر في المقدمة مأخوذ من بعض تقاليد البحارة. فهم إذا قابلوا

حوتاً ألقوا بقارب خاو ليصرفوا الحوت عن مهاجمة السفينة. وانه ليتبع نفس التقاليد فيلقي بمذه القصة ليصرف الكفار عن مهاجمة الكنيسة. تم يمضي في الكتاب فيبين كيف انحرفت المسيحية عن دين المسيح، ويوضح رأيه بصورة رمزية لأب اخلف ثلاثة معاطف متساوية القيمة لأبنائه الثلاثة بطرس (الكنيسة الكاثوليكية)، ومارتن (كنيسة إنجلترا)، وجاك (الكنيسة الكلوينية) وقال لهم الأب: هذه المعاطف ستحفظ عليكم جدتك وصحتكم ما حيتتم فارتدوها الآن وأكثروا من العناية بها. كذلك أوصى بأن تعيشوا جميعاً في منزل واحد كما يعيش الأخوة. فإنكم بذلك تستيقنون النجاح وتتقون الفشل.

وأخذ الأخوة الثلاثة معاطفهم- كما يقول سويفت- وسرعان ما نسوا وصية أبيهم، وأخذ كل منهم يعدل في شكل معطفه مرات، حسب تغير النظر إلى شكل الأزياء.

وأخيراً نرى بطرس وقد زين معطفه بمشاي للكتفين وأشرطة ذهبية ورفوف مزركشة حتى اختفت معالم المعطف، وصار الناظر إليه لا يتبين فيه المعطف الذي أعطاه إياه أبوه. ثم يفترض بطرس بعد ذلك أنه- دون شريك- صاحب المعطف الحقيقي الوحيد، ويعلن فوق ذلك أنه وحده يملك بيت أبيه، وسرعان ما يقذف بأخويه إلى العراء.

يقول سويفت وعندئذ أعاد الإخوان الطريدان فحص وصية أبيهما (الإنجيل) وحاولا أن يردا معطفيهما إلى بساطته الأصلية المعقولة.

ثم يجتتم سويفت قوله بأن مارتن قد نجح في المحاولة نجاحاً لا بأس به فقد انتزع من المعطف كل وشي لا ضرورة له، ولم يحرص إلا على استبقاء تلك الحلبي التي تغني في تقوية الثوب أو إخفاء عيبه. وأما جاك فاندفع متحمساً في تبسيط المعطف بحيث مرقه وأحاله خرقة، فإذا أتى الناس ينظرون إليها ويضحكون منها.. كفى فإن البقية لأغلظ من أن يسيغها الذوق الحديث.

ولم تنشر قصة البرميل إلا بعد أن مضت على كتابتها عدة سنوات ونشرت بغير اسم المؤلف. وهذه القصة وإن يكن المقصود بها أن تقدم تشبيهاً يظهر منه المؤلف فضل كنيسة إنجلترا على غيرها فإنها قد فشلت مع ذلك في إرضاء مطارنة كنيسة إنجلترا وكبار

أساقفتها. لقد ضحكوا من سخر سويفت بعيوب الكنائس الأخرى. لكنهم استشاطوا غضباً من إشاراته إلى عيوب كنيسته، وقرروا أن هذا القسيس الشاب ستجني عليه مهارته، وأنه بحاجة إلى أن يداري وإلى أن يراقب.

- ٢ -

ويلقي سويفت في شيخوخته نظرة ذات يوم على بضع صفحات من قصة البرميل تم يههمهم قائلاً: "يا إلهي يا لها من عبقرية تطامنت لي حين ألفت ذلك الكتاب". فهذه هي مأساته التي جلبت عليه النحس. إن عبقريته أجل من أن يفهمها معاصروه. فأوجست العقول الصغيرة خيفة من العقل الكبير، وعمدت إلى إبقائه أسيراً في منصب مغمور بعد منصب مغمور، من كنيسة دبلن إلى ابرشيه ريفية في لاراكور، ومن كنيسة لاراكور يعاد إلى كاتدرائية سانت باتريك بدبلن. ولكنه لا يمنح وظيفة مطران في إنجلترا أو حتى إيرلندا ولم يجرؤوا على أن يتجاوزوا به وظيفة أسقف. لقد نال الدكتوراه في اللاهوت وكسب صداقة أعظم الإنجليز نفوذاً، وتعشى مع رئيس الوزراء، ولعب الورق مع وزير المالية. كل هذا ولا جدوى، وكلما طلب أن يعين في أحد المراكز الهامة بالكنيسة قوبل طلبه برفض مهذب. لقد أوغل قلبه في الضني والصرم. وأرسل ملتزمة ذات مرة إلى الملكة مباشرة.. وكانت نفس النتيجة السلبية. وظل سويفت الأسقف أشهر نكرة في عصره.

ولكنه يحتفظ في ذلك كله بمظهر البشر وتمتلى أيامه بالنكات والضحك، فيما خلال الدوار الذي كان يختلف إليه دائماً. وكان يجب الناس فرادى وأن أبغضهم جماعات، ذلك الرجل الطويل القوي الأسمر ذو العينين الزرقاوين النفاذتين والحاجبين الغزيرين الأسمرين والصوت الجهوري الواضح. أي قصص تلك التي كان يرويها وأي لغة تلك التي يتحدث بها خاصة وهو في صحبة الرجال. وما أبهاه وما أشهمه مع النساء رغم ما يشاع من عيوبه الجسمية.

رجل يعلو محياه البشر، ويضطرم صدره غضباً كأنه الأتون. فهو يدرك تفوقه على زعماء زمانه.. لكن كتب عليه أن يمثل في حضرتهم دور التابع. لقد قدم لندن في وفد جاء

يدافع عن شعب إيرلندا (ويدافع هو عن ترقيته) فقابل أكبر رجلين من ساسة إنجلترا هما بولنجروك وهارلي.

وحاول جهده أن ينال لديهما مكانه. فالمرء في لندن يجب أن يتسلق بأطرافه الأربعة، ولكنه ظل نديمهما الأثير، وإن كان يهرج بلا مقابل ويكتب لهارلي نشرات سياسية كما قد فعل دفو من قبل، ولكنه يفترق عن دفو في أنه يرفض أن ينال جزاء عما كتب.. وصافحه هارلي ذات مرة فتمكن من أن يدس في يده خمسين جنيتهاً. فألقى الكاتب النائر بالورقة في وجه هارلي وغادر الحجرة مغضباً ورفض أن يرى هارلي مرة أخرى، حتى زاره هارلي في منزله ليعتذر له بنفسه.

إن سويفت لا يبغى بعمله مالاً، بل يبغى وظيفة كبيرة. وهذا ما عجز دائماً عن بلوغه، سواء من هارلي أو من أي سواه. غير أن إقامته بلندن وإن فشلت سياسياً فقد كانت نصراً فكرياً. فعدا سويفت الفارس المعلم في مشارب لندن التي تجتمع فيها ألمع عقول لندن يومياً للتبارز باللسان. وكان (الأسقف العجوز) أمهر المتبارزين جميعاً، وإن لم يكن أكيسهم دائماً. كان يضرب ضربات عميقة حادة فاصلة. وكان حديثه يخلو من كل بلسم ملطف حين يقصد إلى الإيحاء حقاً. قال أحد كتاب سيرته: لم يتطامن لأحد ما تهيأ لسويفت من عظم حظه من العقل، وقلة حظه من المرونة والكياسة.

كان ذهنه فذا في الأذهان، لا يتلطف في تمزيقه ذلك الطلاء الزائف الذي يحفي قبح الحياة.. وكان ساخراً قاسياً ينزل برواء الخيال إلى سحف الواقع. ويتبدى عقله الساخر في تصرفاته الودية وغير الودية على السواء وكان يفعل دائماً ما يدهش ويحير.. يفعل الشيء الذي لا ينتظر. لأنه هو المنطقي السليم.

من هذا ما يرويه الشاعر إسكندر بوب في قوله ذات مساء: ذهبت مع جاي (مؤلف أوبرا المتسول) لزيارة جوناثان سويفت- إنك لتدري قوة مودتنا- فلما التقينا قال سويفت "طاب يومكم. ما معنى هذه الزيارة؟ كيف أن لكما أن تتركا اللوردات العظام كلهم وأنتما بهم شديداً الكلف وتأتيان هنا لتزورا قسيساً مسكيناً؟

- لأننا نفضل رؤيتك على رؤية أي واحد منهم.

- ربما صدقكم في ذلك من لا يعرفكما معرفتي. أما وقد جئتما فأحسب أن من واجبي تقديم العشاء لكما.

- كلا لقد تعشينا يا دكتور.

- تعشيتما؟ هذا مستحيل. أن الساعة لم تبلغ الثامنة بعد.

- لقد تعشينا فعلاً.

- هذا عجيب جداً!! لكن لولا ذلك لكان على أن آتي لكما بشيء. فالأفكر ماذا كنت محضره؟. اثنين من سرطان البحر؟ كفاية.. ثمهما شلنان- وفطائر بشلن- لكنكما ستشربان معي كوباً من النبيذ. وإن كنتما قد تعشيتما قبل موعدكما المعتاد بوقت طويل رحمة بيجي.

- كلا. إننا لنؤثر الحديث معك على الشراب.

- لكن لو تعشيتما معي، كما كان ينبغي عقلاً لشربتما معي زجاجة من النبيذ ثمها شلنان. اثنان واثنان أربعة، وواحد خمسة. كل منكما يخصه شلنان ونصف شلن. تفضل يا بوب هذا ما يخصك، وهذا ما يخصك يا سيدي، لأنني لن أصيب من المال شيئاً على حسابكما.

ويختم بوب كلامه بقوله "ولقد أرغمنا على قبول النقود. رغم كل ما استطعنا قوله في الاعتراض عليه".

كذلك كان شذوذ العميد سويقت، ذلك المتهمك الوديع الرشيق العابس. ذلك الأديب الذي يصفق لعبقريته، والواعظ الذي يزدري لصراحته، والعلم الذي يستشهد بأقواله في كل مكان ولا يفهمه أحد. عاد من إنجلترا محملاً بالتكريم دون أن يمنح منصباً. إنه لجبار عملاق، مقيد بالأغلال في أرض الأقرام.

لكنه لم يغادر أقرامه الإنجليزي دون نكته. فهو يثقب وطاب ادعاءاتهم في شخص

جون بارتريدج.

وكان هذا الرجل إسكافياً. حاول أن يجعل من نفسه شيئاً. فهو ينشر كل عام تنبؤاته الفلكية وشاء سويفت أن يفصح سخف هذه التنبؤات فنشر بتوقيع إسحاق بكرستاف تقويماً ينافس ذلك التقويم، ويشتمل على تنبؤاته الشخصية. وجاء في هذا التقويم الجديد: إنه أول تنبؤاتي خاص ببارتريدج الفلكي. فقد استخرت طالعه فعلمت أنه لا محالة ملاق حثفه في التاسع والعشرين من مارس القادم حوالي الحادية عشرة مساءً من إصابته بحمي عنيفة.

ومضى التاسع والعشرون من مارس، واحتج بترتدج بأنه لم يزل على قيد الحياة، ولكن يثبت بكرستاف على موقفه، فينشر وصفاً دقيقاً مفصلاً لموت مستر بترتدج الفلكي في التاسع والعشرين من مارس، فيكرر بترتدج قوله بأنه ليس ميتاً. وحينئذ يعلن مستر بكرستاف في لهجة الجدل أن جون بترتدج لم يقف أمره عند كونه جثة هامدة. بل لقد جاوز هذا إلى الكذب.

وهكذا وقع في الحيلة المحتال. وظل بارتريدج حتى آخر حياته "ميتاً وكذاباً".

- ٣ -

كان سويفت رجلاً غريباً ومن أغرب ما فيه علاقته بستلا Sleta وفانسا Vanesa. وستيلا كما رأينا هي الصبية الصغيرة التي كان يعلمها وهو يعمل أميناً لسير وليم تمبل. فلما نمت صارت علاقتها به أقل من الحب، وأجل من الصداقة. أما فانسا فقد قابلها في إحدى زيارته للندن وربطته بها مودة. ورغم أنها أليق في سنها بأن تكون من بناته، فقد أحبته حباً عنيفاً. وبدأ حينئذ ثلوث من أعجب ما شهد تاريخ الهوى.

وكان سويفت مخلصاً لهما جميعاً، وإن لم يستسلم لواحدة منهما. وهو يواظب على مراسلاته الحميمة مع ستيلا وهو في إنجلترا. وحين هو بآيرلندا يواظب على مراسلاته الحميمة مع فانسا. فإذا استقر به المقام أخيراً في دبلن حيث اشتغل نائب أسقف سنت باتريك وجد نفسه مثقلاً بحمل ممنوع وإن يكن محيراً. وذلك لوجود كلا صاحبتيه بالقرب

منه. فستيلا تقيم في منزل غير بعيد من كنيسة سنت باتريك، وكانت إذا غاب سوفيت جاءت في كثير من الأحيان للإقامة في منزله. وأما فانسا فقد استأجرت منزلاً في ضاحية لدبلن، بدعوى أنها وقد ورثت المزرعة فعلاً فقد صار عليها الآن أن تعني بها عناية شخصية. ولم تلتق الغريمتان ستيلا وفانسا مطلقاً، ولكن كلا منهما تعرف أمر الأخرى وتزعج سوفيت بغيرتها منها. وكانت فانيسا أشدهما تهوراً. كتبت إلى سوفيت خطاب اعتراف جاء به (لقد ولدت عنيفة العواطف. وقد تجمعت عواطفي كلها في واحدة، هي تلك العاطفة التي أحملها لك والتي لا سبيل إلى وصفها. حنانيك! شيئاً من الرقة وإلا فقدت صوابي) وأخيراً أخطمت المرأة تحت عبء عواطفها وكتبت وصيتها في أول مايو ١٧٢٣ وقد عمدت فيها إلى إغفال اسم سوفيت وماتت في أول يونية دون دعاء الله أو القسيس وفي يديها قصاصة من قصة اليرميل.

وكانت ستيلا لا تقل عنها حساسية لكنها تسمو عليها عقلاً بكثير. وقد عاشت خمس سنوات بعد غريمتها. وكانت على العموم عنصراً مهدئاً في حياة القسيس المحزون فهي امرأة قوية الحلق متيقظة العقل وهي أميل إلى مسaire الفكرة الخاطئة منها إلى معارضتها. وكان العذر الذي تتذرع به عادة- ونحن نستشهد الآن بكلمات جوزيف أديسون (المسيرة طريق تمنع الضجة وتوفر الوقت) ومع بغضها لأن تملك نصف قلب محبوبها فحسب فقد كانت تقنع نفسها بعبارة لاذعة تنفوه بها من حين لحين عن (عزيزي المرائي) وكانت تدرك على العموم أن سوفيت رجل غير عادي يجب أن يعامل بلباقة غير عادية.

وهكذا عاشت حياتها اللبقة خادماً له لا صاحبة. وليس من دليل- كما يقول بعض معاصريه- على أنهما تزوجا يوماً من الأيام. فلما ماتت آخر الأمر تركت فراغاً خالداً في قلب العميد العجوز المحزون ومنذ الآن سيغدو سلوكه الخارجي كتفكيره الداخلي ينبئ عن رجل محزون مرور. كتب لأحد أصدقائه يقول "إني لأمقت العالم فقد أصبحت لا أصلح البيتة".

أصبح العميد سويفت لا يؤدي من الطقوس في أيام ميلاده غير قراءة ذلك الفصل من الإنجيل الذي يلحن فيه أيوب يوم ميلاده. إنه ليزيد كل يوم زراية بالإنسان وخدمة لبني جنسه، فهو يتحمس لتخفيف أعباء الإيرلنديين وهو يصليهم بلسانه حرباً ويعانقهم بذراعيه حباً. وغدت آلام إيرلندا شغله الشاغل في شيخوخته وصار مطمحه الذي غلبه على كل مطمح هو أن يخفف هذه الآلام. حدث مرة أن اقترحت الحكومة الإنجليزية قانوناً جائراً بالإيرلنديين فتحدى الظلم بسلسلة من الخطابات الشديدة المفحمة فاضطرت الحكومة إلى سحب الاقتراح. وهذه هي الخطابات التي أمرها سويفت بتوقيع م. ب دراير صاحب حانوت لبيع البضائع الإيرلندية والتي كسبت لسويفت شكران الأيرلنديين وعرفانهم على مر الزمن.

وأصبح ذلك من مصادر مضايقته دائماً فهو لا يجب تملق الجماهير لقد ساعدهم - كما قال - لا حباً لهم بل كراهة منه للعبودية. إنه يعرف تلون الدهماء وتقلبهم فهم مستعدون لأن يهللوا لجرائته في النضال عنهم. لكن أتراهم يحركون أصبعاً لإنقاذه من مغبة جرائته؟ وهو يروي قصة لتوضيح هذه الفكرة. كان أسباني يهودي يسير إلى الخازوق ومن ورائه جمهور متحمس من الأتباع ويخشى الصبية أن يجرموا المتعة إذا هو أنكر التهمة، فهم يربتونه على ظهره صائحين مشجعين "موسى أقم على ثباتك".

وظل سويفت على ثباته رغم الصبية الطائشين والفضوليين الوحشيين في العالم، شديد الازدراء لوحشية الجنس البشري في حنثه بإيمانه وانفعالاته وسخافاته واحتياله وحربه، كان يذهله عدم إنسانية الإنسان نحو الإنسان. إنه فاقد كل إيمان بالعقل البشري. وقد أعلن إفلاس إيمانه بالإنسان في نشرة يقف منطقتها المفحم في صف فريد حتى بين كتابات سويفت نفسه. عنوان هذه النشرة "اقتراح متواضع لمنع أطفال الفقراء من أن يكونوا كلاً على آبائهم وعلى الوطن، وللإفادة منهم في المجتمع" يتساءل فيها ما فائدة كل المقترحات التي تقدم تخفيفاً لوطأة الفقر الأليم والفاقة الملحة عن فلاحي إيرلندا؟.

لماذا يضيع وقت حتى الآن في محاولة تعليم اللوردات الغائبين عن أرضهم أية مرتبة من مراتب الوحمة بمستأجري أرضهم على الأقل؟ لا عليك من تلك الآراء الباطلة الخيالية السلبية. فإن لديه- أي صاحب الاقتراح المتواضع- خطة عملية جديدة كل الجدة أمل ألا تتعرض لأدنى اعتراض وهذه هي الخطة في إيجاز.

"لقد أكد لي أمريكي من أهل الذكر أعرفه في لندن أن الطفل الصغير الصحيح البدن الحسن الرضاع يكون إذا بلغ عامه الأول طعاماً غاية في اللذة والتغذية والفائدة الصحية.. سواء أكان مطبوخاً أو مشوياً أو مقدداً أو مسلوقاً. ولست أشك أدنى شك في أنه يصلح كذلك محمراً أو مطهياً في بصل.

فليرب فلاحو إيرلندا أطفالاً إذن ليكونوا طعاماً للملاك الإنجليزي. فالطفل يكفي طبقين إذا كانت مأدبة للأصدقاء. أما إن كانت الأسرة تتعشى وحدها فإن الربع الأمامي والخلفي يكفيان أعداد طبق معقول. وإذا تبل بقليل من الفلفل أو الملح فهو يصلح جداً لأن يسلق في اليوم الرابع خاصة في الشتاء.

ولست أنكر أن هذا الطعام سيكون غالباً شيناً. لذا فهو مناسب جداً لملاك الأراضي. لأنهم بعد أن ابتلعوا معظم الآباء صاروا- فيما يظهر- أصحاب الحق الأكبر في الأبناء. ولقد حسبت تكاليف إرضاع ابن المتسول فوجدتها تبلغ نحو شلنين في العام. ولن يتبرم أحد من السادة- فيما أظن- بدفع عشرة شلنات في شراء جثمان طفل سمين. بذلك يصير المالك محبوباً من المستأجرين، وتصيب الأم ثمانية شلنات ربحاً صافياً وتكون صالحة للعمل حتى تضع مولوداً جديداً. ثم يدور سوط تمكمه دورته النهائية.. فيقول: يستطيع غلاة المقتصدين أن يسلخوا الجنة.. فإن جلدتها إذا كسى كساء صناعياً صنعت منه قفازات رائعة للسيدات وأحذية ينتعلها السادة المهذبون في الصيف".

قرأ السادة ملاك الأراضي هذه النشرة وأعربوا عن اشمزازهم من بربرية الكاتب ومضوا في طريقهم "الحضري".. طريق أماته المستأجرين الأيرلنديين جوعاً على مهل. أما البربري فقد مضى في ثورة حقه وتبرم حق ساخرًا من كل إنسان.. باذلاً صدقاته لموكب

من المتسولين كان يقصد بابه يومياً أنه يكره المتسولين والدنيا بهم مليئة كما قال "فإنك لتجدهم بين الأغنياء كما تجدهم بين الفقراء فالغني يستجدي مملكة والفقير يستجدي كسرة خبز، وكانت كراهة سويفت لضخام المتسولين أضعاف كراهيته لصغارهم. فهم كلما كبروا- كما يقول في رحلات جلفر- زاد إيلاهم للعين والأنف أما هو فلا غناء له في الاستجداء لأنه لا يجد في المال نفعاً.

ويقول إنه في هذا يحتذى حذو الله "وبوسعنا أن نعلم كم يحتقر الله المال إذا استعرضنا من اختصهم بالمال، كذلك مضى القسيس المجنون في طريقه إلى الشيخوخة متفكهاً معنفاً، وقد خيل للناس جميعاً أنه يقف على رأسه، ذلك بأنه الوحيد الذي يقف على قدميه في عالم مقلوب رأس على عقب.

-٥-

بلغ سويفت الآن أعوام الحكمة البصيرة، وقرر أن يضمن حكمته تلك الرحلات الخيالية، رحلات جليفر، وبعث بمخطوط القصة في ٨ أغسطس سنة ١٧٢٦ إلى الناشر (بنيامين موت) وأرسل مع المخطوط خطاباً بتوقيع ريتشار سيمبسون زعم فيه أنه ابن خال لمويل جلفر وقال لقد ائتمني مستر جلفر منذ بضع سنين على هذا المخطوط في وصف رحلاته.. وقد عرضتها على الكثيرين ممن رزقوا القدرة على الحكم ووهبوا الامتياز. وقد تحسب إذا قرأت بعض أجزائها أن هناك شيئاً من التهكم في موضوع أو موضوعين، ولكن الرأي متفق على أنها لا تجرح أحداً. ثم يمضي مستر سيمبسون في خطابه فيعرض مائتي جنية ثمناً للمخطوط فإذا لم يف المبيع من الكتاب بهذا المبلغ رد باقي المبلغ إلى الناشر.

ونشر الكتاب في خريف عام ١٧٢٦ ونفدت الطبعة الأولى في أسبوع وضحك الجميع من ذلك الهجوم المرير الذي شنه جلفر على غباء الجنس البشري المهجمي، فقد حسب كل امرئ أنه ليس المعنى بهجوم الكاتب، إنما المعنى جاره. فوصل ألم الكاتب ذروة لم يبلغها من قبل. لقد فشل في تحقيق ما هدف إليه "أردت أن أغيظ الناس وأستشيرهم لا

أن أرفه عنهم وأسلمهم". وقصة رحلات جلفر هي مغامرات رجل عاقل في مخبول ملئ بالباطل والزهو. ألا ليت العالم بدل أن يستمتع بعقلانه قد أتاح لهم أن يحكموه. إذن لقل الجشع، وزادت الدمائة. وقلت الثروة الشخصية وزادت الأخوة بين الناس. وقلت القسوة وزادت الرحمة. وقل البهرج وزاد المجد. وقلت الوقاحة وزادت الحكمة. كتب سويغت إلى إسكندر بوب يقول- طالما حاولت أن أنشئ صداقة بين عقلاء الناس جميعاً وهم قل إن يزيدوا على ثلاثة أو أربعة في كل جيل ولو أمكن اتحادهم لساقوا العالم أمامهم سوقاً. ولقد لقي سويغت أحد هؤلاء العقلاء، فولتير- ذلك الشاب الفرنسي النائر المنفي إلى إنجلترا لصراحة لسانه والذي قال (أن صناعتي هي أن أقول ما أعتقد) فجلس فولتير عند قدم القسيس المجنون وتشرب فلسفته وكتب (مكروميجاس) تقليداً لرحلات جلفر وعاد إلى فرنسا يحلم باستئصال الأحقاد والمظالم من حكام العالم- ومضى القسيس المجنون يبحث بلا كلال عن عالم عاقل. وأن جسمه ليطحنه الألم وقلبه ليصيبه الحزن المتكرر لفقد أعز أصدقائه "إن هبة العمر الطويل تشتري بئس باع الفداحة، ولكي يقوي نفسه على احتمال عبء شيخوخة متوحدة كتب دعاء وجد بعد موته بين أوراقه التي لم تنشر "اللهم إنك تهب نعمتك وتصب نعمتك كما يشاء عدلك ورحمتك اللذان وسعا كل شيء... فوجه اللهم أفكارنا إلى ما نصبو إليه من نعيم واصرفها عن ذلك البوار الذي يفوق الوصف والذي نوشك أن نمحي به". كان دائم التفكير في هناء الإنسان.. ذلك الساخر الذي واجهه بني الإنسان بالعواء والشحناء.

محي الآن تفكيره، وخمدت آلامه، وسكن عواؤه، وصار كل ذلك إلى نسيان رحيم لقد خوي عقله من كل شيء وكان يقرأ "قصه البرميل" ذات يوم فقيل له أنه مؤلف هذا الكتاب، فقال (كلا أن مؤلف هذا الكتاب عبقرى) وكثيراً ما كان يرى وجهه الهزيل في المرآة فيقول في أسى من لا يعنيه الأمر (رجل عجوز مسكين) وفي أيام ميلاده حين تدق النواقيس وتوقد المشاعل تكريماً له كان يسأل "من ذلك الرجل الذي يحبه الناس بكل ذلك الإخلاص!".

١٩ أكتوبر عام ١٧٤٥ - سماء صافية فوقه وعقل غائم في رأسه. ولكن الغمام تبدد

لحظة من الزمن وسمع سويقت يتمتم "رباه عنایتك الساهرة بي في رحلتی الأخيرة هذه".
فإذا بدأ رحلته خرجت مدينة عن بكرة أبيها تدعو له بالتوفیق. لقد تعلموا عبادة
ذلك الرجل العظیم الكراهة، العظیم الحب. أما كراهته فللظلم، وأما حبه فللناس.

أهم مؤلفات سويفت

The Battle of the Books Children of the Poor

The Tale of a Tub Directions to Servants

Gulliver's Travels Polite Conversation

وكثير من قصائد التهكم

لورانس سترن

١٧١٣ - ١٧٦٨

كان جد لورنس كبير أساقفة (يورك) وكان يقف في مكان واحد كأنه تمثال من الجرانيت وكان أبوه جندياً قلقاً لا يستقر في مكان كأنه الريح.

"كان يوم مولدي فألاً سيئاً لأبي المسكين، فقد ألقى به مع كثير غيره من الضباط الشجعان في أمواج الدنيا العريضة، وهو خاوي الوفاض إلا من زوجة وطفلين. لقد كان "ألعوبة" يتقاذفها الآلهة المتعادون في وزارة الحرب. وكانت تتحكم في مصيره أيضاً زوجة مخصبة، ولدت له رهطاً من الأطفال الضعاف المصابين بفقر الدم.

وتتفيداً للأوامر الصادرة إلى الفرقة، كانت تتبع زوجها من إيرلنده إلى إنجلترا، ومن إنجلترا إلى إيرلنده، ومن حامية في البر إلى ميناء في البحر، ثم تعود من حيث جاءت. وفي خلال ذلك تلد دون انقطاع وتدفن أطفالاً دون انقطاع حتى أخذ الأصدقاء يتحدثون عن فقد (السيدة سترن) طفلاً في هذا المكان، وآخر في ذاك، وكأن الأطفال كانوا قطعاً بائسة من قطع المتاع، قد كتب عنوانها "من السماء إلى القبر مباشرة".

والحق أن الموت كان بالمرصاد لأكثر من نوع واحد من العمل في خدمة قوات الملك. ففي جبل طارق أصيب أبو لورنس سترن، وكان محارباً شديد المراس، بطعنة في صدره، وكان ذلك في مبارزة من أجل أوزة. وقد وقع الحادث في غرفة صغيرة، وأعمد كابتن فيليس نصله بعنف في جسم سترن بحيث لصقه بالحائط لصقاً. وإذا الرجل المجروح في بادرة حاضرة يرجو (كابتن فيليس) في أدب أن يتفضل قبل سحب نصله بأن ينفذ ما عساه قد لامس سن النصل من ملاط "لا يستحب إدخاله إلى دمي" وشفني (كابتن سترن) من جراحه. وانسحب لينقه في جمايكا.

وهناك مات بالحمى. وقد ذهب مرضه بعقله أولاً. ثم جعل منه طفلاً، وأخيراً لم يمض

شهر أو شهران، حتى كان يسير سيراً متصلاً ولا يشكو من شيء حتى جلس يوماً في كرسي ذي مسندين ولفظ أنفاسه الأخيرة.

وهذا المزاج من البدوات والكوارث، وهو قدر كتب على الجندي الضئيل طوال حياته، استمر في حياة الابن لورنس. فهو كأبيه قد تقاذفته ريح المصادفات وبدوات رفاقه من بني الإنسان. لقد كتب لورنس عن أبيه قال (إنك تستطيع غشه عشر مرات في اليوم، إذا لم تكفك تسع).

- ٢ -

وترك أبوه الأسرة وليس في حوزتها درهم ولا دانق. ولكن الله قويض أحد أبناء العمومة لإنقاذ الأسرة. فأنفق ماله لتزويد الصبي "النجيل العالم" بعلم الآداب القديمة (من يدري؟ لعلك تكون يوماً كبير الأساقفة كجدك) فهل علم ابن العم أن الكتاب الأثير لدى لورنس من كتب القدامى هو (فن الحب) لأوفيد؟ وأن مسلاة لورنس إنما هي التماجن مع الفتيات؟ وبعد دراسة القدر المطلوب من هوراس وأفلاطون وبليني وشيشرون وحيياة القديسين رسم قسيساً في (ستون أون ذي فورست) إحدى قرى يوركشير ونال دخل كنائس جديدة.

ثم أخذ يعبت بالسياسة مع عم له كان من ذوي النفوذ في الكنيسة. وأشرف على عدة أبرشيات أخرى. ثم بحث حوله عن زوجة يزداد بها ارتفاع منصبه. فتودد إلى (اليزابت لوملي) مدة عامين.

وكانت الخطابات الغرامية التي كتبها هذا القسيس الشاب فذق بين خطابات الغرام في أسلوبها الذي يحكي أسلوب القدماء، وروحها المفعمة بتحنان العشاق.

وكان يختم قبلاته بمقتبسات من الفردوس المفقود لملتن، وإشارات إلى أوبرا المتسول، ويؤكد تهدياته بجواشي من (مقال عن الإنسان) لبوب "واعترفت إليزابث أنها أحبتي. ولكنها لم تحسب نفسها من الغنى ولم تحسبني من الفقر بحيث لا تصلح للزواج.. وأصببت بذات الرثة وكنت أجلس إلى جوارها ذات مساء وقد كاد قلبي يتحطم لرؤيتها في هذه

الحالة الأليمة من المرض، فقالت لي (يا عزيزي "لوري" لن أستطيع أن أكون لك، لأني أؤمن بحق أنه لم يبق أمامي غير أيام معدودات ولكني أوصيت لك بكل ما أملك. وأطلعني على الوصية. فغلبنى هذا الكرم على أمري واختار الله لها الشفاء وتزوجنا).

وقد بدأت حياتهما الزوجية بداية طيبة. فقد كان للسيد ذوق موسيقي، كان الراعي يعزف على القيثارة (الفيولونسولو) وكانت هي تغني في مصاحبة أنغامه ولكنها كانت حياة مملة. لأن الزوجة كانت مملة. فإن الفضائل كانت تزداد تعويهاً لها حين نحاول مصاحبة زوجها في قفزاته وونباته الخفيفة الرشيقة. بحيث عجز الزوجان عن تحقيق الشرط الأول للزواج السعيد. وهو أن يمضي الزوجان في الحياة كلها كأنهما شخص واحد. وكان سترن متوقد الذهن. يحملة خياله على أجنحة الضحك، بينما زوجته تسير في كد وعناء، مثقلة القدم غير قادرة على الفهم.

لقد قرر على نحو ما - رغم ردائه الكنسي - أنه سليل أشهر الأسر بالخيال، إن لم يكن بعراقة الأصل، أسرة بوريكس الدنمركية التي يعمل أفرادها مضحكين ببلاط الملك. فليرحم الله يورك المسكين وليحي خليفته مضحك العالم.

ذلك بأن العالم حزين ولا بد أن يسري عنه. فلنلق جانباً بالجد (فالجد محتمل ضال من أخطر الأنواع.. لأنه ماكر) فصميم الجدد هو التصميم وعقد النية.. وهو حمل للجسم على تغطية عيوب العقل بصورة مبهمة؟ وهكذا أضف لورنس سترن إلى الأناجيل المقدسة الأربعة، مجموعه تتكون من أربعة أناجيل علمانية. هي أناجيل النقش والعزف والضحك وعبادة الكتب.

ورغم كل هذا كان يجد الوقت لهوايته المفضلة، وهي البحث عن السعادة فقد أضرمت النار في صدر هذا القسيس الشاب عدد كبير من السيدات. وكانت مغازلاته العذرية مثاراً للفضيحة ومثاراً للغيرة بين أفراد أبرشيته.

على أن هذه المغازلات لم تحل بينه وبين التقدم. فهو لم يزل ينال الترقيات ولم يزل الناس يعجبون ببداياته. وعين قاضياً من قضاة الريف، فكان يجري محاكمة الناس وفي عينيه

لألاء مرح من السخرية بالنفس. ولم تشهد إنجلترا منذ أيام الراهب (تك) مثل قسيس يوركشير هذا، الذي يدفن الموتى، ويعمد المواليد ويضحك ضحكاً صاخباً حتى يخزه جنباه.

والضحك مقدم على الواجب أبداً، وكان سترن يمر بالحقول مرة يوم الأحد ليلقي موعظته في (استلنجتن) حين نفر كلبه الكشاف سرباً من الحجال³ فعاد إلى منزله مباشرة ليحضر بندقيته. وترك الراعي "قطعانه"، الذين ينتظرون مقدمة في مركز عصب. واتخذ لنفسه خادماً فأسماه في فكاهة شهية (مذنب الأمين).

وكان عليها بعبويه فترفق بعبوب غيره، ووجد نفسه قد انتظم في زمالة رهط من الماجنين المثقفين يدعون أنفسهم "نادي متقمصي الشيطان" وكانوا يجتمعون في ضيعة بالريف أطلقوا عليها "قلعة المجانين" وفيها كانوا يأكلون ويشربون ويمرحون ويتحاورون في الأدب والحب.

ويكتبون مقطوعات شعرية لفينوس وابنها في المعمودية فرانسوا رابليه:

وحين يلتئم شملهم في الأمسيات.

(التي كلما ذكرتها نفعني ذكراها).

بلغوا من المرح ما لم يجاوزه جمع.

مما سبق الطوفان أو تلاه.

وقضى سترن النصف الأول من حياته ينشد مثل تلك الأهداف، فابعا في أحد أركان إنجلترا، مغموراً قانعاً ملوماً ومحبوياً من طبيعة المرح السعيد، فإنه على عيويه قد عظم حظه من فضيلة واحدة، العطف الدافق على كل روح حي.

لقد نما عطفه من عذابه. فلقد كان لورنس سترن رجلاً مريضاً. وكانت نظراته تكذب ضحكه. فإنه بجسمه النحيل الهزيل، وردائه الأسود، وساقبه العنكبوتيتين وصدرة المتكسر الذي لا تقومه دعامة، ووجه الذي لا يشتمل على خدين بقدر ما يشتمل على

³ نوع من الطير.

طيات من الجلد خاوية يريد إقناع العالم -واقناع نفسه - أنه غير ما هو في الحقيقة. فإن الرجل تكاد رثاته المصابتان أن تنزفاه حتى الموت ولم يبق غير فتحتي أنفه الضخمتين تَمْتَرَانِ كلما تفتق ذهنه. لقد بنت له الطبيعة هيكلاً مؤسماً، استطاعت روح الضحك أن تبقى عليه الحياة.

- ٣ -

وكان يمضي الساعات بعد أن ينحي عنه قيثارته جالساً في المكتبة يكتب. وكانت مكتبة مكرسة لثالوثه الفكاهي المبارك "لوسيان ورايليه العزيز- وسرفنت الأعز" أولئك الرجال الذين تلقوا الأسي، ومنحوا السرور. وخلفهم من قريب تقف آلهته التي يدين لها بحب أقل: مونتاني وبوب وسويفت. وكان سترن في مكتبته يصفي ولاءه للمعميات الغامضة القديمة، ويعرب في صوفية الأغراب في الضحك، تلك الصوفية العجيبة.

وأعد في هذا الجو كتاباً أدهش العالم وألمه وأخزاه. وهو كتاب (جديد مبتكر) لم يكتب مثله من قبل. فليس له من شكل ولا منطق ولا وقار. وإنما هو قد لاحظ حكمة العالم وغباءه ومأساته ومسلاته ومخاوفه وخطله واحنه، وخلط بين كل أولئك في قصة تشبه الحياة نفسها غني في الإمتاع. وقرأ في التنظيم. وبث فيها مذاقاً حريفاً من فكاهة رايليه. وأطلق على القصة المدهلة "حياة وآراء ترسترام شاندي".

وتلا الصفحات الأولى من الكتاب على بعض أصدقائه بعد العشاء، فسرعان ما ناموا. فجرح شعوره جرحاً عميقاً وسبار إلى الموقد، وأوشك أن يقذف بالمخطوط في اللهب. ولكن أحد الرفاق كانت لا تزال إحدى عينيه يقظي، هي العين التي ترى المستقبل البعيد. فجذب المخطوط من سترن وأبقاه لقابل الأيام. وحتى بعد نشر الكتاب كان سترن مرتاباً في أمر استقبال الناس له. إنه مخلوق ليس له قط من رأس ولا ذنب. فالمقدمة مثلاً مكتوبة في منتصف القصة لا في أولها. والفكاهة قريبة الشبه جداً بالشیطان حين يتغزل في نفسه (إنك تسرف في الهذر مع عقلك الأريب. كأنما تعبت بعشيقتك. أنه بلسم ممنوع للعشاق، ولكنه قليل الإمتاع للمتفرج الخلي).

ومع ذلك فقد كان يرجو أن يشبه الناس قصته بتلك القصة التي نشرت في نفس العام، قصة كانديد لفولتير، وهي أفكه كتاب على مدى الزمان. ودعا آلهة كونيغوند أن تضيف أسرة شاندي إلى معرض الصور القصصية الكبرى.

وأخذ الآن يتلقى التعقيبات من أصدقائه بلندن الذين قرءوا النسخ المبدئية. من (ترسترام شاندي) "أن خير النقاد دون استثناء يرون أن كتابك لا يستطاع أن تطلع عليه أية امرأة فاضله". فأجاب سترن ساخراً (أرجو استثناء الأرامل لأنهن لا يتقزنن قط بهذه السهولة).

فإذا ذهب إلى لندن بعد ذلك، وجد للقصة نجاحاً مظفراً. ووجد أنه قد صار من الأعلام بين يوم وليلة.

- ٤ -

إن معنى كلمة شاندي بلهجة يوركشير (مجنون متقلب مرح) وتلك خاصية يتسم بها الكتاب حتى في طباعته. فالصفحات مليئة بفواصل ونجوم وأشياء تحكي المعازف، وقيثارات تهدد الأنغام وصفحات خاطئة الترقيم (وكان هذا من خطأ الوراق) وصفحة خالية من الكتابة خلواً تماماً.. وسلسلة عجيبة من الأسطر المتعرجة كأنها سجل الفلكيين. وخطوط فاصلة طولها بوصة فما دون.. فلما أخذ أهل لندن في قراءة الكتاب شرعوا يحولون ويعجبون ويفرشون رءوسهم. ثم مضوا في القراءة حتى استغرقوا فيها.. يا لها من آراء عجيبة! يا لها من شخصيات حبيبة! ويا لها من أوديسة ذات مغامرات خارقة!

ولا تبدأ هذه المغامرات بمولد (ترسترام) فالواقع أنه لا يولد حتى الجزء الثالث. ولكنها تبدأ بدوات وأقدار وواجبات وامتيازات جرثومة الجنين التي سيخلق منها الإنسان فيما بعد. ثم تستحشا أشتات هذه القصة إلى التعرف بالتر شاندي، الأب الشاذ الطبع لهذا الجنين الشاذ الطبع، ووالتر شاندي رجل عظم حظه من النظريات، وقل حظه من التجربة. وهو يحاول أبداً أن يعمل ما هو معقد لا ما هو يسير. وترتب على ذلك أنه كان عادة لا يفعل شيئاً على الإطلاق. فإذا كان عليه أن يدللك أذنه اليمنى حاول قطعاً أن يستخدم في

ذلك يده اليسرى عن طريق قفاه، وبذا تلتوي يده في أم، وتظل أذنه بلا تدليك. وهو مسلح بحشد مذهل من النصوص الصوفية، والعقائد السحرية. أنه خطيب موهوب مأساته الكبرى عدم وجود السامعين. أنه أشبه بساحر كادح أمام جمع من المكفوفين.

بل لقد كانت زوجته نفسها عمياء عن رؤية مواهبه.. ولا تأبه لما يقول. فهي لا توجه إليه أي سؤال وبذا لا تمنحه قط تلك الفرصة التي يشتهيها في استماتة بالغة، فرصة المناقشة. يقول ترسترام (وبرحت العالم آخر الأمر دون أن تعلم هل الأرض تدور أم أنها ثابتة. وقد أخبرها أي في لاجحة أكثر من ألف مرة حقيقة الأمر. ولكنها كانت تنسى دائماً).

نلتقي الآن بشخص آخر في بيت شاندي هو "توبي" أخو والتر، وكان العم توبي جندياً اعتزل الخدمة. وهو يقضي أيامه الأخيرة مع أسرة شاندي. وكان مليوناً بالطبية خلوا من الفكر - فإذا تحدث أخوه في المسائل الفلسفية، ركن العم (توبي) إلى تدخين غليونه وصيد الذباب.

وهو لا يصيد الذباب إلا ليطلق سراحه، قال ذات يوم وقت العشاء لذبابة كبيرة كانت تنز حول أنفه، وتقسو في مضايقته طول وقت العشاء.. "اذهي لن أصيبك بأذى" قال هذا وهو ينهض عن مقعده ويخترق الغرفة والذبابة في يده.. "لن أمس شعرة من رأسك بسوء، فانطلقني" ويفتح النافذة ويفتح يده بينما هو يتكلم ليدعها تفر "اذهي أيتها الشيطانية المسكينة. لماذا أوديك؟ لا شك أن العالم يتسع لك ولي".

وكان توبي شاندي حلو الروح ولكن (ولتلاحظ هنا سخرية لورنس سترن) هذا الحب المرهف لخلق الله، هو أيضاً كبير الإعجاب بتدمير الإنسان وهو يقول أمام أخيه شاندي في دفاع فصيح غير ذي موضوع عن إعجابه بالحرب. (لقد كنت وأنا تلميذ صغير، لا يسعني أن أسمع قرع الطبول إلا دق قلبي معها. فهل أنا مسئول عن ذلك؟ هل أنا الذي أوجدت هذا الميل؟) وحين كنا نقرأ عن حصار طرواده الذي استمر عشر سنين وثمانية أشهر - والذي ما كان ليبلث غير أسبوع لو هوجمت المدينة بالمدافع كما هوجمنا في نامور - ألم أضرب بالعصا ثلاث ضربات، اثنتين على يدي اليمنى وواحدة على اليسرى لأني

وصفت هيلين بأنها. هل ذرف أحدكم أكثر مما ذرفت من دمع جزعاً لما أصاب هكتور،
وحين أتى الملك بريان إلى المعسكر يلتمس أن يتسلم جثمانه وعاد بدونه باكياً إلى
طرواده، أفندري ما حدث يا أخاه إني لم أستطع تناول العشاء.

إنه يمقت رؤية القتلى ولكنه يجب رؤية القتل، أو بالأحرى هو يجب رؤية المهارة التي
تتجلى في عملية القتل ولقد أمضى سنوات يدرس الفن العسكري دراسة مركزة. وأعاد
مع خادمه الجندي ترم تمثيل حملات دوق مارلبرو في إيطاليا والفلاندرز وكان في كل يوم
يحلل هذه الحملات على الورق، ثم يعيد تمثيلها من جديد على المنفسح الأخضر المجاور
لتل شاندي. فيستخدم غلايينه لتمثيل المدفع ويبعث فيها دخاناً كثيفاً كأنه صورة هوجاء
لأعمال المدفعية. طلقة بطلقة وأمرأ بأمر. وإنه ليضعف من انتصارات الدوق. وكلما
احتل مارلبرو موقعاً، احتل عمي توي موقعاً أيضاً.. ما كان للعالم أن يتمخض عن منظر
أروع من.. ملاحظة الروح التي كان بها العم توي ومن ورائه ترم، يندفع مهاجماً من داخل
المدينة المحاصرة.. وفي يد أحدهما نشرة وفي يد الآخر فأس- ليقوما بالمناورات الأخيرة.
وما كان أعمقه من سرور يترقق في عينيه حين يقف على رأس الجندي: يقرأ له الفقرة
عشر مرات بينما هو يعمل مخافة أن يحفر حفرة تزيد أو تقل مقدار بوصة. وأما بعد أن
تحفر الحفرة ويساعد الجندي عمي في الهجوم ويتبعه والأعلام في يديه ليرفعها فوق أسوار
الحصون.. فما أعجب ما يتولى عمي (توي) من نشوة النصر.

تلك هي الأسرة التي ولد فيها (ترسترام) قطعة من الضلال وتقلب الأهواء في عالم
ضلت أهواؤه. وتمضي أجزاء خمسة في التجوال الجسدي والعقلي والروحي، تجوال فكه
مجنون، يقتادنا من غير مكان إلى غير نهاية ثم يعود بنا إلى غير مكان. ويقدم لنا في خلال
الرحلة أبعد ما نتوقه من حماقات وانفعالات ومسرات. فالكاتب يقتادنا في جنون على
قدر ما يقتاده القلم وأنا لنلبث حين نتبع تلك الحفلة التنكزية الجنونية من الأشخاص
المتنعين وهم يدورون في دوامتها بلا عقل ولا نظام. وكل يجذب جاره من قدمه أو رأسه
أو سترته وسط صخب يضطرب أي مضطرب.

فإذا انتهى كل شيء لقفنا أنفاسنا وقلنا في عجب "يا لها من مغامرة مجنونة! لكن يا له

من جنون مرح طروب!".

-٥-

وكان في نية (لورنس سترن) أن يتابع الجنون في عدد من الأجزاء المتعاقبة لقصة (ترسترام شاندي) فقد رأى فيما بعد أن ينزل بطله إلى الأرض بعد أن تركه معلقاً في الفضاء وفي تلك الأثناء زار لندن ووجد نفسه الفارس العلم في دنيا الأدب.. فالناس جميعاً يقدمون الولاء لذلك الشاعر والواعظ الطويل الهزيل من يوركشير، الذي امتزجت فيه القداسة والبذاءة أتم الامتزاج. فدعاه "جاريك" و"لورد شستر فيلد" إلى مائدتيهما. وكانت حجراته تزخر بجمع من أرفع الناس مكانة منذ الصباح حتى الليل، وكانت كل دعاباته تنتقل إلى المشارب، وتنتقل عن طريق الصحف إلى العالم أجمع، وأصبحت الشاندية فلسفة الهذر الجديدة، صارت ديدن كل الرجال ومعظم النساء في هذا العصر الإباحي وقدمت كوامخ شاندي في المطاعم وسميت خيل السباق في إيرلنده ترسترام شاندي، كما أطلق اسم هذا الكتاب على الملابس وأدوات الزينة بل وألعاب الورق.

وذاعت شهرة الشاندية في الجانب الآخر من القناة، وكان الفرنسيون لعجزهم عن متابعة اللغة البعيدة عن المؤلف، والفواصل العجيبة في الكتاب. كثيراً ما يقولون (ما أحقق هذا الفارس شاندي).

وبعد أن نال أقصى ما تستطيعه لندن من ملق، وبعد أن استعد لنشر الطبعة التالية من ترسترام، عزم على الإبحار لينعم بالدفء الحبيب في جنوب فرنسا، لأنه كان يستطيع أن يسمع من خلال دمه الضعيف أصواتاً أخرى تدعوه وتعد له لقاء غير مشرق. قال الأطباء الذين فحصوه (يا له من رجل لطيف.. ومن أسف أنه لن يتم الشتاء وهو عل قيد الحياة).

وسرعان ما سرى النبا كأنه إحدى دعابات سترن (أنه ليملاً الفراش نرفاً. ويستلقي فاقد النطق أياماً بعد أن يظهر على الملأ في اجتماع عام ذلك هو تاريخي!).

ويستأجر سفينة في دوفر. والطريق وعر، فيستلقي في مقصورته. أن الرياح تكاد

تأخذ بخناقه "لكن بالله لأعطين الموت فرصة مرحة لمطاردتي. سأقتاده إلى رقصة لم يحلم بها لأني سأجري كالحصان دون أن أنظر لحظة إلى الوراء، سأجري إلى ضفاف الجارون. فإذا سمعته بقعقع في أعقابي سارعت إلى جبل فرسوف.. ومن هناك إلى يافا.. ومن يافا إلى نهاية العالم. فإذا تبعني إلى هناك دعوت الله أن يكسر عنقه".

ولكن الموت بالمرصاد ولن يخدع عن فريسته. وتزداد حالة لورنس سترن سوءاً بالتدريج، ويدخل باريس، كأنه "كيس من السلع الميته مرسله إلى بلوتو وشركاه، وقد قضيت معظم الطريق مستلقياً في قاع العربية على وسادة ضخمة، هادئ بعد نظري إلى شرائها قبل بدء الرحلة".

ثم تحدث معجزة مباغته فينهض عن وسادته ويقترح عباب المجتمع ليداعب الحياة دعابة ختامية، ولا تمضي أسابيع سنة على وصوله إلى باريس، حتى يكون قد رقص مع نصف الهاأها.

لقد حير الموت نفسه بعض الوقت. فقد شك في عنوان فريسته فانصرف عن الباب وهو يقول في اعتذار عن اقتحامه: "لا شك أن هناك خطأ في هذا الأمر".

ويذهب الفرنسيون "ولكنه مذهل ذلك الفارس شاندي"، ويدعوه دوق أورليان أن يجلس في جمعة من الرجال ذوي الأظوار الشاذة. وتخصص إحدى المضيفات نفسها به في أيام الخميس، فتدعو كل جائع وكل ظامي. أن يتناول وجبة إعجاباً بعقله المتفتق، ولا ينجو أحد من ألمعيته الشاندية. فإن أعجب الأفكار تجري في رأسه أبداً.

ويلقي قليلاً من المواعظ في باريس من قلبه لا من رأسه ولكنه كان طول الوقت يكاد يغلبه الضحك على أمره. ويوشك أن يقذف بشعره المستعار في وجه السامعين، كتب مرة يقول (إني أضحك حتى أبكي وأبكي حتى أضحك).

ويحدث له هنا ما حدث له في لندن إذ غلبه جمال النساء على أمره. كتب فرنسي قوي الملاحظة يقول: هذا القسيس يعشق النساء جميعاً، وبذا احتفظ بنقائه. فإنه ليرتجف إذا مسته أطراف أنامل سيدة، ويود لو ألبسها الحذاء، ولو نام في الغرفة المجاورة لغرفتها في

فندق (كلها أعمال بريئة إذا فهمتها على هذا الوجه).

وهو بالغ الخرق في تصرفاته، بالغ الشوق إلى معرفة تصرفات الناس ومساخرهم فيسافر إلى جنوب فرنسا على متن بغل بجانب تابعه الخاص الذي كساء سترة قرمزية، ويطعم أتانته كعكه بعد أن يمضغ نباتاً شوكياً، لكي يرقب التغير في تعبيرات وجه البغل. وهو يلقي العملة الصغيرة ويومئ إيماءة العظمة إلى المتسولين إذ يتعلقون بحذائه الذي يبلغ ركبته، ويلوي عن الطريق أميلاً مجرد أن يدخل في نقاش ممتع مع رهبان كان قد لقيهم في طريقه، ويدخل متجر قفازات ويمسك بمعصم البائعة فإذا عد رسغها عشرين نبضة دخل رجل فتقول هي (إنه زوجي لا أكثر) ولذا يستمر ممسكاً بمعصمها حتى يتم أربعين نبضة. وإنه ليدعو حارس أحد المسارح أن يقذف بجندي ألماني ضخم الجثة خارج مقعده لأنه رفض أن يحرك رأسه حتى يستطيع قزم يجلس خلفه أن يرى المسرح. (ألسنا جميعاً أقزاماً نحاول رؤية المسرح لفنقه معنى المسرحية؟).. ألسنا أشبه.. بدمعة فخر تذرّف خلصة بين كل دمتين من دموع الهوان؟.

ثم يعود إلى سماع وقع أقدام. فإن ذلك المختال الواسع الخطى الذي يروع الخاطيء يقترب في سرعة. فيرجو سترن لو تم اللقاء في نزل منعزل بعيداً عن قلق زوجه وابنته وصحابه. وكان يرجو أنه حين يدخل ساحة الحساب بناء على الإعلان الذي لا بد أن يصل إلى الجميع، لا يبدو دفاعه بالغ القحة أمام المدعي العام الأكبر فهل كانت حياته تكاد تخلو من التدين؟ نعم ولكنها تكاد تخلو أيضاً من النفاق. وكان يضرع أبداً إلى الأقدار (امنحيني النعمة والحكمة والدين إن شئت ولكن فوق كل شيء دعيني أكن إنساناً) أنه لم يدع قط أنه أي شيء آخر "فدعيني أكن مجرد إنسان".

إن ممثل الاتهام حين طار إلى ساحة العدل السماوية وفي يده التهمة قد أحمر وجهه خجلاً حين سلمها. وإن الملاك المسجل حين كتبها ذرفت عينه عبرة سقطت على الكلمة فمحتها إلى الأبد.

أهم مؤلفات ستون

A Political Romance. Sermons by Yorick.

Tristram Shandy. The Sentimental Journey.

سير والتر سكوت

١٧٧١ - ١٨٣٢

في خريف عام ١٧٧٧ كانت السيدة (كوكبرن) وهي ابنة عم والدة والتر سكوت تقضي المساء مع أسرة سكوت فكتبت في الصباح الكتاب التالي إلى أسقف الأبرشية.

"...كنت أتعشى في الليلة الماضية مع أسرة سكوت.. وهذه الأسرة طفل على أعجب حظ من العبقريّة. وكان يتلو على أمه حين دخلت، فحملته على مواصلة القراءة وكانت القصيدة تصف سفينة تنحطم فكانت انفعالاته تشتد كلما اشتدت العاصفة. فهو يرفع عينيه ويديه قائلاً "ها هو الشراع قد اختفى انتهى. سيموتون جميعاً" وبعد انفعاله يعود إلي قائلاً "أنها شيء محزن جداً فيحسن بي أن أتلو عليك شيئاً أمتع" وكتبت أفضل أن نأخذ في الحديث فسألته رأيه في ملتن وفي كتب أخرى كان يقرؤها فأبدى لي رأيه رائعاً فمن الملاحظات التي أبدتها قوله (من العجب العجيب أن يعرف آدم.. كل شيء مع أنه جاء العالم لتوه).

ولما أخذ إلى مخدعه في تلك الليلة أخبر خالته أنه أحب هذه السيدة فسألته (أي سيدة) فقال (مسز كوكبرن)، طبعاً، ولعلها طلعة في الفنون مثلي. فسألته خالته: وما الطلعة؟ قال: ألا تعرفين.. إنها الشخص الذي يريد أن يعرف كل شيء.

- ٢ -

كان للفنان الصغير عقل ضخم وجسم قوي ورجل عرجاء، فلقد أصيب في شهره الثامن عشر بصدمة من شلل الأطفال فأصيبت إحدى ساقيه بالكساح مدى الحياة. وأما باقي أعضائه فظلت كما قال (سليمة مكتملة النشاط، شديدة المراس، فتعلم بها المشي والركوب بل والجري مع خير رفاقه) وكان كريم الأب والأم، وكان كرم المحتد يدعوه إلى الاعتزاز بالنفس لا إلى الكبر والخيلاء فهو طوال حياته رفيق طيب بين رفاق طبيين. يقول

أحد العمال بعد أعوام طويلة: "إن سير والتر ليتحدث إلي كما يتحدث إلى أقاربه الأذنين".

وكان منذ طفولته قلقاً كأنه الإعصار، فهو أبداً. يفعل شيئاً أو يقول شيئاً. وكانت ذاكرته أشبه بورقة النشاف فهي تمتص كل ما يسمع أو يقرأ. وكان يعدو حول المنزل يردد الشعر أو بعبارة أخرى يهتف بالشعر ويصبح. وكان يستحيل على أي إنسان غيره أن يسمع له صوت في حضرة والتر. ويقول عنه أسقف الأبرشية: أن المرء إذا تكلم في حضرة هذا الطفل فإنما يتكلم في فوهة مدفع.

إنه شيطان صغير مستقل الإرادة، نهم إلى العلم، التحق بالمدرسة في الثامنة من عمره، وقد كان يحفظ شكسبير وهوميروس عن ظهر قلب، لكنه لم يكن يعرف من الحساب شيئاً، فسلكه مدرسه بين الأغبياء في مؤخرة التلاميذ.

وكان التلاميذ أول الأمر يعيرونه بعرج قدمه "لا فائدة من أن تلاعب أعرج" ولكنه دعاهم إلى النزال المرة بعد المرة وكثيراً ما كان يبصر وأنفه تسيل منه الدماء. وأخيراً كسب احترامهم.

وكسب أيضاً إعجابهم لأنهم عرفوا قدرته على رواية القصص "أي قصص يا جيمي!" عن النجاد والوهاد والمناوشات الدامية بين أهل النجاد وأهل الوهاد في المنطقة الحرام عند الحدود.

لكنه وجد وقتاً لدراسة الحساب بين قراءاته وحرابه ورواية القصص. وما مضى عامان حتى بلغ الفرقة الأولى. وما مضى عامان آخران حتى صار على أهبة الالتحاق بالكلية.

لكن مرضاً خطيراً يعترض سبيله في المدرسة ويكاد يقضي على حياته. فقد انفجر له وريد في الأمعاء فقضى أسابيع في الألم، وشهوراً في النقاهة ثم صار على أهبة استئناف التعليم. فدخل الكلية ليعد نفسه لمهنة أبيه.. القانون.

وكان والتر سكوت يفضل حياة الجندية على حياة الحمامة. لكن حياة الحرب مستحيلة على صبي أعرج، لذا حصل على درجته من الكلية وقنع بنسخ الوثائق القانونية

بمكتب أبيه.

لكن عقله ما برح يطوف بالعالم وتتجاوب فيه الموسيقى العسكرية. وتطوع فعلاً بعض الوقت في فرقة من متطوعي الفرسان وشارك في تمريناتها اليومية. ولكن عاهته الجثمانية أدت إلى إخراجه منها. فعاد إلى مكتبه وإلى مغارات عقله.

أخذ يكتب الشعر "غيرة من ابن جلدتي الأسكتلندي روبرت برنز" وحاول أبوه جهده ليشبهه عن هذا الطريق "أن هذه الشطحات غير المجدية التي يشنها خيالك لن تؤدي بك إلى شيء" ولكن أصر سكوت على سلوكه، وكان عليه وهو يتدرب بمكتب أبيه أن يسافر إلى النجاد ليحصل إيجارات العملاء أبيه، وفي هذه الرحلات لقي ولتر كثيراً من الشخصيات الشائقة، وسمع كثيراً من القصص الممتعة. وكان قد أوتي البراعة في رواية القصص والروعة في الإنصات. ويقول أحد هؤلاء القوم في النجاد "كنا لا نسمع عشر كلمات إلا أخذنا في الضحك أو الصخب أو الغناء".

من حملات التحصيل إلى النجاد هذه نبت شعر سكوت.. ونبتت فيما بعد قصص ويفرلي.

- ٣ -

وقد وقع في غرام فتاة رفضت أن تتزوجه، وتزوج من فتاة رفضت أن تحبه لكنها أعجبت به لتماسك خلقه، ومرح قلبه وروعة عقله. فكان بينهما زواج ينطوي على مودة دائمة، لكنها غير عارمة. فقد أحاطته بذلك الجو المعتدل الدفء الذي يلزم بالضبط لنماء عبقريته وترعرعها.

وكان هو نفسه يقول عن عبقريته "إنها مجرد كفاية في التعبير".

وقد حبر على عجل بعض القصائد الأسكتلندية وعدة مترجمات عن الألمانية. لقد بلغ حينذاك عامه الثامن والعشرين ولكن لم يكن لديه أي أمل في النجاح الأدبي. لقد وافق أباه تمام الموافقة على أن شطحات الخيال لا تؤتي أكلها، فصار يكتب ليتسلى في وقت فراغه من أعمال القانون.

لقد قرر أن يشتغل بالقانون فعين مأموراً لمقاطعة "سلكر كشير" وهي وظيفة تدر عليه دخلاً طيباً ولا تستغرق من وقته إلا قليلاً وتتيح مزيداً من الحرية لمزاولة عمله المنتظم بالحاكم، وفسحة من الوقت لمزاولة هوايته الأدبية.

وقد ظل أعواماً عدة يجمع أهازيج الحدود الأُسكتلندية. وهو الآن يعقب على هذه المجموعة ويعدها للنشر، وهو لا يفعل ذلك طلباً لمجد شخصي بل معونة لأحد أصدقائه القدامى بالمدرسة، هو الطابع "جيمس بلانتين"، وكان هذا الرجل في أمس الحاجة إلى عمل لمطبعتة بقيها الترددي في مهاوي الإفلاس، فقدم سكوت (أهازيج الحدود) إلى بعض الناشرين اشترط عليه شرطاً واحداً هو أن يطبعها بمطبعة بلانتين.

وهكذا احترف الأدب ليعين صديقاً من أصدقائه.

ولم تتجح المجموعة نجاحاً مالياً كبيراً. وكان عنوانها "أهازيج الحدود الأُسكتلندية" ولم يكن سكوت يتوقع لها النجاح فهو يقول "إن اتجاهاتي الأدبية أدخل في باب المتعة منها في باب المنفعة". كذلك لم يكن النجاح المالي لقصيدته الأولى، ذات الأصالة والابتكار وعنوانها "أنشودة الشاعر الأخير". ولكن نجحت هذه القصيدة. فدهش لذلك أعظم الدهشة. أن نجمة ليدل دلالة حاسمة على أن حياته ستكون للأدب لا للقانون، ولكنه لا يدرك كفاءته الحققة حتى الآن وإن بلغ عامه الرابع والثلاثين فهو يقول "أما عن ولعي بالأدب فإني أضحي من أجله بفرض ذهبية في مهنتي تفيض علي الشراء والجاه".

كان يصبو قبل كل شيء إلى أن يكون في ذيل أعلام القانون الأُسكتلنديين فخاب أمله أعظم الخيبة إذ صار أول أعلام الأدب الأُسكتلنديين، وكان الأُسكتلنديون حينذاك يعاملونه على أساس تقويمه لقدر نفسه فهو كما قال "يجد منزلاً يأويه في كل مزرعة" لا بوصفه شاعر الشمال العظيم، بل بوصفه "مأمور سلكر كشير الوديع" ولو أنك طلبت إلى معاصريه تحليل مشاعرهم نحوه لأجابوك إن الذي يجونه فيه هو والتر سكوت الإنسان.. لا المأمور.

كان غاية في الظرف والبساطة، صادراً عن سجية، زاخر الرأس بالنوادير والملح، بريئاً

من التعامل والادعاء، قد وهب قلبه كله لأصدقائه، وإن عيوبه كفضائله لتتلق بإنسانية واضحة ممتعة. كتب إلى أحد قرائه يقول "ستجدني نصف محام مهوش العقل، وستجدني نصف صائد فإن كوكبة من الخيل لاتزال تركض في رأسي مذكنت في الخامسة من عمري، وستجدني نصف متعلم ونصف مجنون، وستجدني نصفاً في كل شيء، ولكنك ستجدني جميعاً. وبكل جوارحي، عارف فضلك ومحبك الأمين، خادمك بكليته.. بجوارحه جميعاً" هذه العبارة هي مفتاح النغم في شخصية والترسكوت.

- ٤ -

ولئن كان والترسكوت أحياناً سخاء، فقد كان أحياناً حكمة أيضاً، فإنه ليحرص على كفالة الراحة لأسرته- التي تتكون الآن من أربعة أطفال- فيوظف مدخراته في دار للطباعة هي دار صديقة (بلاتنين) وهكذا شارك في مغامرة لعلها كانت تنجح لولا أمران:

قصور بلاتنين عن فهم الموقف التجاري، وقصور سكوت عن فهم بلاتنين.. فظل المشروع أعواماً طويلة يسير هونخا، وظل سكوت يزيد باستمرار مقدار ما يلقي في المشروع من دخله أنه لمندفع أبداً إلى مأساة قاصمة، ولكن مضي وقت طويل قبل أن يعي سكوت هذه المأساة. وكان في هذه الأثناء معيناً بالمحاماة التي تجلب إليه دخلاً يسيراً، متلهياً بالشعر الذي يدر عليه دخلاً وفيراً.

فقد نظم "مارميون" و "سيدة البحيرة". وعدة قصائد صغيرة، وكان يتلقى التمجيد الأدبي في تامل والضربات الأدبية بانتسام.

سمع مرة بتحقيق لقصيدته "سيدة البحيرة"، فانفجر ضاحكاً طيب النفس. وكانت صاحبة هذا التحقيق ابنته (صوفيا) وهي صبية في الثالثة عشرة من عمرها، وكان جيمس بلاتنين قد قابلها في مكتبة سكوت بعد قليل من نشر "سيدة البحيرة" فسألها عن مدى حبها للقصيدة.

فأجابت في بساطة تامة كما ذكر لأبيها "أوه... إني لم أقرأها، وأن إني ليقول: إن أشد ما يؤدي الصغار قراءة قصائد الشعر".

غير أن شعر سكوت إن لم يكن من رائع الشعر فهو بعيد عن فاسده، وإن الفیصل في هذا هو الذوق. فأنت لا تدري طعم الفطيرة ما لم تطعمها، ولا يلزم العلم فيمن طعمها لكي يتذوق جمالها. وهذا سكوت يجري تجربة عن فلاح أمي صديق، لكنه رياضي ذكي متحمس فيتلو عليه المشهد الأول من (سيدة البحيرة) وهو مشهد (صيد الطي) فيضع الفلاح يده على جبينه كما قال سكوت ويصغى في انتباه عظيم طوال تلاوة صيد الطي...

حتى يصل إلى أن الكلاب ألقّت بنفسها في البحيرة وراء صاحبها. فيقف وقد تملكه العجب بغتة ويضرب المنضدة بيده، ويعلن في صوت ناقد قد أدخره لمثل تلك المناسبة، ويعلن في صوت ناقد قد أدخره لمثل تلك المناسبة، ويعلن "أن الكلاب قد أصيبت بعطب تام إذ سمح لها بخوض الماء بعد مطاردة قاسية إلى هذا الحد".

إن للقصيد مذاق الحياة يستوي في تلذذه الفلاح الأمي والقارئ المتعلم. وإنما لنشعر حتى يومنا هذا أن سيدة البحيرة برغم إيقاعها الريب وماللتها بين الحين والحين قصيدة شهية حية.

نجحت (سيدة البحيرة) نجاحاً فاق كل مأمول ودرت الثراء ليس على مؤلفها وحده بل وعلى كل خمار وكل حوذي وكل سانس خيل وكل تابع يقيم على مقربة من بحيرة كاترين. ذلك بأن الوفود من كل أجزاء بريطانيا بل ومن القارة (أخذت تحج إلى مشهد القصيدة الذي أذاع صيته ساحر الشمال، وازدحم كل منزل وحانة بوفود الزائرين المتقاطرة فقد غدت بحيرة كاترين مثابة للزوار وصارت القصيدة كتاباً مقدساً واسماً يهتف به عند الوغي. كانت مجموعة من الجند تحارب تحت أمرة (ولنجتن) في شبه الجزيرة. فكان قائدهم يتلو عليهم في صوت مرتفع وصف المعركة في المقطوعة السادسة وكان الجند مستلقين على الأرض ينصتون إلى الشعر الملهم بينما نيران مدفعية الأعداء تقصف فوق رؤوسهم وكان انتباههم صامتاً مستغرقاً إلا حين يسمع منهم هتاف فرح كلما أصابت الشاطئ القريب إلى ظهورهم قذائف الفرنسيين.

وظل عدد المبيع من نسخ القصيدة يتزايد من طبعة إلى طبعة، وتمكن سكوت بفضل حقوق التأليف من أن يحقق حلم حياته كلها فأنشأ له في الريف مزرعة. فلما استقر في مزرعته على ضفاف نهر تويد فتح أبواب منزله وأبواب قلبه لكل من في الريف من الدوق إلى الفلاح الأجير. فإذا حذره صحابه من الإسراف في موداته.. أكد لهم أن كل زواره يؤدون حسابهم بطريقة أو بأخرى. فكل زائر مهما يكن مغموراً، كان يحمل في برديه أنفس ما يهدي.. يحمل صديقاً جديداً! فقد كان يكفي بعملة الصداقة تماً لبضاعة الكرم والبذل.

لقد شاب رأسه كما كتب لأحد خاصته "لكني لا أستطيع الشعور بأن محي أو قلبي قد أصيبا بالبرد من أثر ثلج المشيب" والواقع أن تقدم السن لم يصب بالبرد محه وقلبه بل لقد أتاح لهما الدفء فطار محلّقاً في آفاق من الخيال جديدة، فبعد أن ظل حتى منتصف العمر بقرض الشعر حتى غدا شاعراً من الطبقة الثانية نراه ينتقل إلى النثر فيغدو شاعراً من الطبقة الأولى.

وكان في أعوامه الأولى قد حاول مرة أو مرتين أن يكتب قصة نثرية وما لبث أن كف عن المضي في محاولة شيء فوق قدرته. فلقد عرض في سنة ١٨٠٥ سبع فصول من "وفري" على ناقد صديق يدعى "وليم أرسكين" فقال له صاحبه ينصح في غير مجاملة (أضرب بهذه الفصول عرض الأفق فهذه الفصول تنطق بعجزك عن كتابة القصص) فلم يضرب سكوت بفصوله عرض الأفق.. ولكنه نحاه جانباً ثم وقع نظره عليها مصادفة في عام ١٨١٣ وهو يبحث عن أدوات الصيد في درج مكتبه، وأعاد قراءة فاتحة القصة وقرر أن يتمها "لمجرد المتعة".

وهكذا وجد (ولتر) أنه قد امتلك منجماً من الذهب دون أن يعلم. ولكنه لم يكن قط على ثقة من قيمة القصة فنياً، حتى بعد أن عرف قيمتها عملياً، فنشرها جميعاً غفلاً من الإمضاء، وقد فسر ذلك في أواخر حياته بأنه كان يظن كرامة المأمور لا تبيح له أن يصير كاتب قصص وكان يكتب قصصه مستخفياً كأنما هو يوغل في رذيلة سرية مخزية. فإذا أتم القصص أرسلها تمرق كالسهم لتصيد له الثروة.

وأصابت سهامه النفسية فرائس تعدلها نفاسة من الذهب والجد، لكنه لم يكن مجدداً شخصياً.

وكان يحدث من حين لحين أن يجلس ناقد فاحص أنه مؤلف القصص. فما فرغت "ماريا أدمورث" من قراءة "وفرلي" حتى أرسلت كتاباً لمؤلفها "أما سكوت أو الشيطان" ولكن سكوت لا يؤيد صلته بالكتاب ولا ينكرها. لقد جلس ذات مساء إلى العشاء مع الوصي على عرش إنجلترا فطلب الوصي كأساً طافحة يشربها في نخب ويفرلي، ونظر إلى سكوت نظرة ذات مغزى فملاً سكوت كوبه حتى طفحت وقال (يبدو على سموك الظن بأن لي حقاً في شرف هذا النخب ولست أستطيع ادعاء هذا الشرف ولكني سأحرص على إبلاغ "سيمون بيور" الحقيقي تلك التحية السامية التي وجهت إليه الآن).

وظلت تواليفه تصب المال في خزائنه انصباب الماء في الشلال، وظل سكوت يصبها بدوره في هوة ليست بذات قرار، مؤسسة بلانتين للطباعة. ولم يك يدري طول هذه المدة أن المؤسسة تسير من سيء إلى أسوأ فتوسع في شراء الأرض وتورط في شبكة من الرهونات وسلى جموع زائريه وأقام العشاء وحفلات الرقص لأهل الريف على خضرة مزرعته وضرب في التلال والوديات برغم عرجه وركب للصيد ليؤلف القصص.

فكيف بالله اتسع وقته لكل هذا؟ وابتهج بما نال من تكريم بما في ذلك لقب بارون. وزوج أبناءه وكتب قصصاً أخرى وأصاب مالاً جديداً وأوغل في أعماق مشروع بلانتين المفجع ثم جاءت الصدمة فقد أفلس بلانتين وضاعت ثروة سكوت كلها. وكانت الصدمة مفاجئة كما كانت مفجعة لكنها أحالت سكوت من رفيق طيب إلى رجل عظيم. فهو منذ اليوم بطل لقصة أغنى بالإلهام من كل ما كتب. فقد بلغت ديونه نتيجة لإفلاس (بلانتين) ١١٧٠٠٠ جنيه فنصحته أصدقاؤه أن يعلن إفلاسه.

ولطالما قدم هو النصيحة نفسها لعملائه إذ هو محام، ولكنه الآن يرقص في عناد وإصرار أن يلتمس هذا الطريق القانوني للفرار. وقال: لن يخسر أحد بسببي بنساً واحداً. فإذا حاول أفراد أسرته أن يشاطروه البأساء، أبعدهم عن الحجرة قائلاً: إني أمقت احمرار الأعين والأنوف، وأخذ يشتغل في صبر رواقى فهو يكتب ويكتب ليؤدي كل ما عليه من

دين.

لقد أحال نفسه آلة حية.

كان شابان (لوكهارت ومنزيس) يتعیشان في منزل منزيس ذات مساء، وعلى حين فجأة رأى لوكهارت صديقه يحملق من النافذة قلقاً.

فسأل لوكهارت: ما خطبك؟ أتشعر بتعب؟

فأجاب منزيس: كلا سأكون بخير لتوي، لو أنك فقط سمحت لي بالجلوس حيث تجلس.. إني أرى من هنا يداً مدثرة ولا زلت أرقبها منذ جلسنا. فهي تشوق عيني.. فهي لا تقف عن الحركة أبداً، وهي تجبر صحيفة بعد صحيفة. ثم ترمي بما على كومة من المخطوطات ولا تزال اليد تتحرك دون كلل. ولسوف تظل في حركتها حتى يؤتى بالشموع، ويعلم الله كم ستستمر بعد هذا. وهذا يحدث كل ليلة أنها على الأرجح يد ناسخ غبي خشن.

كلا إنه ليس بالناسخ الخشن بل هو ولتر سكوت يؤدي ما عليه من دين.

ويخر مريضاً من الإجهاد، ولكنه يقابل مرضه بروح رواقية. فإن مهمة الرجل الشجاع أن يألم ويعمل. فلما عجز عن الجلوس صار يملئ المخطوطات من فوق مضجعه، وكانت تمر لحظات يزم فيها أسنانه ألماً، ولكن لا تمضي النوبة، حتى يعود إلى الإملاء.

وماتت زوجته فنحاهها عنه، ما أشق الوحدة. وعاد إلى عمله فكتب القصص والقصائد والتراجم. وها هو ذا يسدد ربع ديونه، ثم نصفها ثم ثلاثة أرباعها، ثم يتحطم عقله من الإجهاد كما تحطم جسمه، فقد وقع في وهمه أنه سدّد ديونه جميعاً، فما أجمله من وهم.

ولقد كتب في ساعاته التي يعود فيها إليه عقله وصفاً لرجل مريض هو أحد أشخاص قصصه فجاء في الواقع وصفاً لنفسه "المقعد الوثير مليء بالوسائد، الأطراف المددة مدثرة بالفانلة، الجلباب الواسع، وقبعة الليل.. كل أولئك تنطق بالمرض لكن العين المظلمة التي كانت يوماً تتأجج بالنار الحية، والشفاة اللاغية التي كان تمددها وتقلصها يسبغ روحاً أي

روح على محياه الحي، واللسان المتلثم الذي كان يوماً يفيض بالفصاحة فيضاً، والذي طالما حمل من حدثهم من الحكماء على تعديل آرائهم، كل هذه الأعراض الحزينة أظهرت أن صاحبي في حالة الكآبة والحزن التي تعتري من بقيت لهم حياة الحيوان بعد أن فقدوا ذكاء الإنسان".

غير أن عقل سكوت ينهض في الفترات التي تتخلل آلامه. فبتم قصة أخرى (روبرت الباريسي) ثم يتأهب للراحة. فالخراش قد قارب نهاية الأخطار.

فبعث به أصدقاؤه إلى رحلة بحرية فوق طراد، قدمتها البحرية مشكورة، وجاء فيمن جاءوا لتوديعه لوردات وعوائل من علية القوم، ورجل من عامة الشعب، كان إعجاب سكوت به فوق إعجابه بالجميع ذلك الرجل هو: وليم ورد سورث.

وقد بدأ على ظهر السفينة روايتين جديدتين. فهو في غسق النسيان كانت تواتيه بروق خواطف.

ثمة شيء لا بد أن أفعله قبل الموت، ثم سمع بموت جيتة ذات يوم، فرجا الربان أن يوقف الرحلة، فإن جيتة على الأقل قد مات في وطنه..

فهبنا بنا إلى أبوتسفورد.

بلغها في ١١ يولييه سنة ١٨٣٢ وكان لا يكاد يستطيع المشي. لكنه رجا أن يوضع في كرسي أمام مكتبه، قائلاً: أعطوني الآن قلمي، واركبوني لحظة وحدي غير أن ابنته حين وضعت القلم في يده لم تستطع أنامله الانطباق عليه.

فنقلوه إلى السرير ولبث به شهرين ثم أغلق عينيه في هدوء تام (لم يستطع مثال قط أن يصور شخصاً مستريحاً أجل من هذا وأعظم).

ولا عجب في أن يبدو السلام عليه والطمأنينة، فقد أدى دينه كاملاً لدائنه في السماء.

أهم مؤلفات سكوت

The Lay of the Last Minstrel (a poem)	The Abbot
Marmion (a poem)	Kenil Worth
The Lady of the Lake (a poem)	The Pirate
Waverly	Ivanhoer
Peveril of the Peak	The Monastery
The Fortunes of Nigel	Redgauntlet
Guy Mannering	Quenten Durward
The Heart of Midlothian	St. Ronan's Well
The Bride of Lammermoor	
Life of Napoleon (9 volumes)	
Count Robert of Paris	

أونوري دي بلزك

١٧٩٩ - ١٨٥٠

كان في طفولته يعزف على القيثارة ساعات متصلة، وكان يحدث بما أصواتاً غاية في الإيلام، ولم يك يفهم علة لعدم شعور الناس بجمال موسيقاه. وكان في المدرسة بدلاً من الإقبال على الدرس يكتب مقالاً عن "الإرادة البشرية" ولم يدر لماذا مزقه المدرس في ثورة. وكانت عيناه المتسائلتان تبدوان قويتين النظرة، حتى لقد حسب الناس أن الأحلام قد جرت عليه ذيل الغباء. ولكن أمه كانت من وقت لآخر تشده للعبارات العميقة التي تنطق بها شفتاه "أنوري.. محال أنك تفهم ما قلته اللحظة" كذلك قالت في عجب لابنها الذي لم يكن يتجاوز السابعة من عمره. وكان أونوري هو اسمه لأنه ولد يوم القديس أونوري فيا له من تحد لطفل أن ينسب إلى قديس، بل وقديس من قديسي الشرف.

وكان أبوه كاتب تموين للجيش، وكان يجمع في نفسه كثيراً من "مونتاني وراپليه والعم توي" وكان متفانلاً حالمًا، أورث ابنه مزرعة من الأحلام ولا شيء سواها. وينس منه مدرسوه في المدرسة الثانوية، ونفضوا أيديهم منه، وتركوه لآفاق أحلامه "أن هذا الصبي السمين يسير في حالة سبات عقلي" كذلك كتبوا في تقريرهم عنه. وخرج أونوري من المدرسة إلى الشوارع وأكثر من ارتياد المكتبات طلباً للأخيلة والحقائق ومرق كالحيال إلى السربون وأصغى دون أن يلحظه أحد إلى محاضرات الإعلام. لم يدر فكتور كوزان ولا جيزو إلى أي مدى وإلى أي بقاع سترحل كلماتهم في التاريخ والسياسة والفلسفة.

فدعته أمه وكانت امرأة فائقة الفطنة إلى أن يعود إلى هذا العالم، وذكرت له أن من واجبه دراسة القانون. فالأب بلزك، وقد بلغ الآن عامه الرابع والسبعين، قد أدرج اسمه بين الخالين إلى المعاش. وكانت الأسرة تجتاز ظروفًا ضنكًا، وقد أوقفه داعي الواجب عن السير ذات يوم أثناء نزهته اليومية في مقابر لاشيز، وهي بقعة كان يجيها ويغذي فيها وحيه وإلهامه، ويصدر إليه فيها الوحي والإلهام كأعمق ما يصدران وفيها كان يزن أقوى آرائه

ويبدأ في خطته ذات الطموح الفذ.

فرجع إلى بيته يعلن لأسرته أن "لست أبغي دراسة القانون بل أريد أن أكون أديباً" "أذهب إلى سفرا، وفكرت أمه وكانت لها عبقريتها الخاصة في خطة لإفاقة ابنها من أحدث أحلامه، فأخبرته أن ليس بوسعه أن يعمل في المنزل لأن ضيق المسكن لا يتيح ذلك، واستأجرت له علية تحت سطح منزل واثنتها بأقل للضرورات وهي إنما تقدم هذه الهدية المزعجة ترحو أن تشفيه بما من جنون طموحه. فيبارك أونوري هذه الهدية. فإذا جلس بين القدارة والهوام شعر أنه يقتعد عرش أجداده الروحيين.. ملوك القلم الجياع.. نعم ولكن ما أمتع أن يسلم لهواه العنان فينطلق في عظم أحلامه.

أتى لزيارته صديق فوصف الزيارة هكذا (دخلت عليه ضيفة تحت سطح منزل أاثتها كرسي لا قاعدة له، ومائدة كسيحة، وسرير بئس، وستاران قدران قد أسدلا إسداً نصفياً، كانت على المائدة محبرة وكراسة كبيرة مألئى بكتابة عجلى وأبريق شراب الليمون، وكوب وكسرة خبز، وكانت حرارة ذلك الجحر البئس خانقة، وكان المرء فيه يتنفس هواءً موبوءاً) وكان بلزك يجلس على سريره وعلى رأسه قبعة من القطن، "مرحباً بك يا صديقي في ذلك المسكن الذي لم أبرحه غير مرة واحدة طوال الشهرين الأخيرين فأنا طول هذه الفترة لم أفض من سريري الذي لا أبرحه وأنا أعد الأثر الأدبي الرائع، وكانت على النضد تمثيلية قد تمت لتوها هي (الأثر الأدبي الرائع) الذي من أجله كان المؤلف يحس النعيم وسط كل هذه القاذورات.

وأخذ بلزك يوماً هذا الأثر ليقر له أسرته فلم يسمع استجابة استحسنان وجاء به ثقة من ثقات المسرح في الأكاديمية الفرنسية وقال له:

"هل تتفضل يا سيدي بقراءة ذلك المؤلف وترشدني ماذا أفعل في المستقبل فقراً السيد المخطوط وأجاب.

أفعل أي شيء في المستقبل غير الكتابة الأدبية. فلم يزد أونوري عن هز كتفيه وهو يقول: يخيل إلي أني لا أحسن المأساة.

ولكنه أقام على الكتابة في عليته. فهو قد عجز عن أحزان العالم فقرّر أن يمنعه. لقد فشل في تأليف مآسٍ ملهمة فليجد في الكتابة ليصيب رزقاً فحسب. فكتب قصصاً مثيرة للمجالات الخفيفة. إن رأسه لمحتشد بالخطوط... لكن قلبه وجيبه خاويان.

كتب إلى أخته يقول "إني جوعان يا لور هل تتحقق الرغبةتان الكبيرتان اللتان أصبو إلى تحقيقهما وهما أن أكون شهيراً وأن أكون محبوباً؟".

فانطلق يعمل في اندفاع متوهج ويصوغ القصص على غرار ثابت فهو يكتب ستين صفحة كل يوم، وما هي إلا ثلاث سنوات حتى أكمل واحداً وثلاثين كتاباً من كتب المغامرات نشرها بأسماء مستعارة، ولكن اسمه ظل غير مشهور ولا حبيب.. وكان دائماً يتقاضى حقوق التأليف صكوكاً مؤجله الدفع. وكانت ديونه أيضاً وعوداً مؤجلة السداد. فهو على نحو ما عاجز تماماً عن أن يسيطر على الحاضر. ولما استمرت ديونه متفوقة على دخله أبداً، شعر أن عليه إتمام قصصه الحاملة أسرع فأسرع.

ولكن وضع أخيراً للحالم أن عليه أن يجد عملاً آخر، لأن الأحلام الممتعة إنما توافي الأحشاء المليئة المدثرة في دافئ الثياب. كان بحاجة إلى دخل آخر غير الكتابة فأراد أن يصيب مرتباً أسبوعياً. لكن كيف؟

نعم إن لديه رأساً مليئاً بالخطوط، وهو يستطيع الشروع في خطط باللسان تفتن ألباب الناس. من هذه الخطوط أن يجعل من نفسه ناشراً.

كان يتحدث عما يعتزمه من مغامرات بإيماءات شديدة العنف، وحماسة بالغة الشغف، حتى لقد اشترى له أحد الأثرياء داراً من دور النشر، واندثرت الدار كأنها فقاعة من فقاعات الصابون. لكن الممول الذي خسر سبعين ألفاً من الفرنكات في هذه الصفقة كان لا يزال مسحوراً بفصاحة بلزك ودلاقتة، وقدم بلزك إلى أخيه وكان غنياً أيضاً فأحال الناشر طابعاً.

وأصاب مشروع الطباعة ما أصاب مشروع النشر من انهيار بفضل توجيه بلزك. فقد أغرى أصدقاءه بأن يشتروا له مسبكاً للحروف. وسرعان ما قاده إلى الدمار، وأقبل عليها

أقرباؤه يقدمون له من المال ما يكفي لإنقاذه من الإفلاس وإنقاذ أسرته من العار.

وأنشأ جريدة ذهبت بدداً من أحلامه. ثم عاد إلى الكتابة يقهفه مرحاً. كلا أنه في الواقع لا يحمل ضغناً لأحد، والحق أنه سوء حظه وخيانة معاونيه— كما شعر مقتنعاً— هو ما أسقطه، فالمؤكد أنه لم يكن قط خائناً في أي شيء. لكن لماذا بهم نفسه بهذه المسائل؟ إنه ليبلغ بأحلامه أقصى السعادة. أهو مدين بمائة ألف فرنك قبل أن يبلغ الثلاثين.. فليزين حجراته بشيت أزرق فإن اللون يزدهيه. ويكتب إلى أخته، وكان عسيراً عليه أن يجد رسوم البريد "آه يا لورا لو أنك فقط تعلمين كم أتحرق شوقاً إلى (لكن صه! احفظي السر) ستارين زرقاوين موشاتين باللون الأسود (صمتاً دائماً) ومهما يبلغ منه العذاب والإرهاق فإنه لا يستطيع أن يخلص ذهنه من الستارين.

كان يتمتم في نومه "الستارتان دائماً" إنها فكرة ثابتة متأصلة، ماذا بهم أن تخلو معدته من الخبز؟ إن لديه شيئاً أهم منه بكثير. ففي روحه الجمال، وإنه في وقت العشاء ليمسك بقطعة من الطباشير ويرسم على نضده دائرة تمثل طبقاً ثم يكتب داخل هذا الطبق اسم طعامه.

وكذلك كان يصوم ويلوك ويزردد أغرب الأطعمة التي أستطاع عقله أن يحيل رموزها إلى حقائق. وإن اللعاب ليوافي فمه ودموع السعادة لتشب إلى عينيه. لكن هناك لحظات كان اليأس فيها يمسك بتلابيب قلبه. في هذه اللحظات لم يتقده من الانتحار غير حب امرأة وذكائها، كانت تزيد عليه كثيراً في السن. لقد أقبل عليها في لحظة من أحلك لحظاته "لا تعزبي لا فائدة من العزاء!! إني لمنتحر" وما هي إلا كلمة ترفيه وتعجب حتى قال "يا لله إنك لعلى حق! إن عبقريتي ستكفل لي الحياة".

وفي تلك الأثناء كانت عناية الله تهميه وتراهم. وكان يسير في طريق التوفيق فهو على الرغم من كل ما يعتور حياته من اضطراب وتشويش سيصل إلى مأربه. وإن الكمية السخيفة من قصصه لتصوغ عقله على نحو خاص. فهو في ألمه وديونه التي تحزه وخز أطراف السنان، يحصل على علم عميق بالعلم ورحمة كبرى بالألم والعذاب، فقد تمخص

طموحه الدفاق وكفاحه المستعر، عن إلهام الفنان، حلم قصير قصر الحياة والموت، عميق كالهواية، عظيم كاصطخاب البحر.. دعاه إلى العمل، والأفران كلها موقدة ونشوة التفكير تخفي ما يستقبل من متاعب.

ذلك هو وحي الفنان الذي هو أداة متواضعة في يد إرادة تبدو أوفر الأشياء نصيباً من الحرية، وإن كانت في الواقع لا نصيب لها من الحرية على الإطلاق".

- ٢ -

هذه روايات وقصص أصدرتها المطبعة باسمه الحقيقي الآن: قصص عن الطبقة الوسطى الناهضة من أصحاب المتاجر والصيرفيين والنشالين، وعن الحضارة التي تعبد المال وتسير بالبخار. وضحك بلزك ملء شذقيه مرحاً من تلك الضجة التي أحدثها "لدى أبناء طيبة أخبرك بما يا أختي الصغيرة. لقد زاد ما يدفعه المحررون لي عن مقالاتي ويخبرني (وردت) أن "طبيب الريف" قد نفدت نسخة في ثمانية أيام.. ها ها! بذلك أستطيع أن أبرز لسد الديون المستحقة في نوفمبر وديسمبر تلك الديون التي تزعجك وثمة ملايين كثيرة ستندرها على (أوجيني جراندي) وجعل يحلم بنفسه جالساً في المعهد، وفي مجلس الأعيان، وفي الوزارة و"لم لا يوجه المؤلفون والحاملون دفعة الحكومة؟ وهل أحق بحكم الناس ممن جابوا آفاق الفكر؟ بودي أن أرى ذلك الشخص الذي يدهش إذا عينت وزيراً".

ثم يطل في دفتر صكوكه، فيخبو الضوء الوردي من أحلامه. وكأنه كلما كتب زادت ديونه، وهذا تحد هائل لقوانين المنطق. فجعل يذرع الحجرات التي أثنها حين بدت أول بارقة تشير بالتوفيق. وعمرها بكتب رائعة ومقاعد أثرية منقوشة. وأجمل آثار الفن وآنية من خزف السكسونيا، وأنسجة صينية موشاة بالصور. ويعود منهكاً إلى عمله، يكد وسط المباحج من أجل الكونتيسة ب.

ويكتب عن أعظم المحتالين وأفجر الفجرة ويطلق روائح لمتجمع العفنة ثائرة وكأنما قد أطلق الرياح من حقيبة إيلوس. وكان يجلس ويعمل في عطاف أبيض كأنه راهب من رهبان

الدمنيك، ويلبس حذاء من الجلد الأملس الأحمر الموشى بالذهب، ويلف حول جسمه البدين سلسلة ذهبية من طراز البندقية، تتدلى منها أداة مذهبة لطي الأوراق، وسكين ذهبي، ومقص مذهب. وهو يشرب جرعات عديدة من القهوة التي تغلي ليظل يقظاً. وكانت الكتابة طقساً جليلاً كأنه القداس.

كانت الكتابة تبدأ في الساعة الثانية صباحاً حين يستيقظ الكاهن الأعظم من مضجعه ويتناول قلمه.

وفي ضوء شمعات أربع يتأمل البذأة غير المقدسة التي تطفح بها مآدب باريس من ضحايا الحب والفضيحة. وفي السادسة صباحاً يستحم ويشرب عدة أقداح من القهوة، ثم يصحح تجارب الطبع.

ومنذ التاسعة صباحاً حتى الظهر يهرع الصبية عائدين من المطبعة إلى المؤلف محاولين حل طلاس الصفحات التي كتبت على عجل والصلبان والنجوم والأسهم المتجهة صوب الألفاظ الجديدة، حتى بدت صفحات التجارب كأنها كتاب سري لمنجم في القرون الوسطى.

كد من أجل الترف، وعين إلى الجمال رانية صافية. بحيث لا ترى الأضواء والظلال في النساء ذوات الأثر في سعادته. فهو إن يكن في تواليفه أستاذاً في تاريخ القلب، فإنه غر ساذج لا يفهم أبسط النساء في حياته. أنهن ترف كثيف يخدعه لونه، ولا يسمح لعقله بالنظر من خلاله. فهو يولع ولعاً جنونياً بما ركيزة "كنت ذات مساء كل شيء لها حتى إذا كان النهار كنت لا شيء.. ففي خلال الليل ماتت المرأة.. المرأة التي أحبها".

ثم كانت سيدة أجنبية تقيم بعيداً عن المجتمع في قصر ببولندا. ولم يكن لديها شيء تفعله فكتبت إليه خطاب غرام في روح متصوفة. وقابلها سراً في سويسرا وتبادل وإياها القبلات تحت سمع زوجها وبصره، وأنفق ثماني عشرة سنة من أمله وقوته وحياته على الكونتيسة وراء الفستولا التي لا تبادله الغرام.

"العمل والعمل دائماً". ليال حامية تليها ليال حامية. أيام تفكير في أثر أيام تفكير.

وتنقل من التنفيذ إلى الخيال ومن الخيال إلى التنفيذ. فإن شراء قصر ومعيشة البذخ لأموار تبلغ في يسرها تأليف قصة. لن أحيا حياة الأوساط بينا أفكر تفكير الآلهة: ها ها! هذا هرم صغير من المال، قوام الحياة. وما هي إلا أسابيع قليلة حتى ذاب الهرم.

فإذا بلغ الأربعين كانت ديونه قد بلغت مائة وسبعين ألفاً من الفرنكات وإنه لرقم سريع القفز بلغت أرباحه وحدها ستة آلاف من الفرنكات في العام. وإنه ليتأمل العصا الذهبية في يده، ويتنقل في عربة مكشوفة ذات دولابين، يجرها حصان يخطو في خطأ عالية، وقد جثم إلى جانبه نمر صغير أليف. ويؤلف رواية في ثلاثة أيام، ويتم أخرى في ستة أسابيع لم ينم خلالها غير ثمانين ساعة، بمعدل ساعتين في اليوم. ثم تعتوره في حديقة خليلته تلك الرشيقة نوبة إرهاق تخور معها قواه.

فلما قصرت قصصه عن أن تغل المال الكافي، ولي وجهه شطر المسرح فألف مسرحية في ستة عشر يوماً كان مصيرها الرفض. ثم أودع فكرتها مسرحية أخرى فقبلت الفكرة. فما أسرع ما أرسل يستدعي جوتير وصاح نافذ الصبر حين وافاه جوتير (ها قد جئت آخر الأمر أيها المكسالم المترهل؟ كان يجب أن تكون هنا منذ ساعة. غداً سأقرأ لها ريل مسرحية عظمى من خمسة فصول).

"أتريد أن تقرئي المسرحية وتسمع رأيي؟" هكذا قال جوتير وقد أخذ له مقعداً وتأهب لسماع قراءة طويلة. فقال بلزك في بساطة "أن المسرحية لم تكتب".

"يالله! إذن يجب إرجاء قراءتها أمام المخرج ستة أسابيع"، "كلا يجب أن نسرع في كتابة المسرحية والحصول على المال. فان على ديناً فادحاً يجب أداؤه. أنصت إلى ياتيو. هكذا دبرت أمري. ستكتب أنت الفصل الأول. وسيكتب أورلياك الفصل الثاني ويكتب لورنت الفصل الثالث ويكتب الرابع دي بالوي وأكتب أنا الخامس. ثم أقرأ أنا المسرحية كلها لها ريل غداً الساعة الثانية عشرة كما اتفقنا" قال جوتير "إذن فأذكر موضوعها وأشرح لي أحيايلها وصور شخصوها في بضع كلمات حتى أستطيع أن أشرع في العمل".

فصاح بلزك في إيماءة رائعة "آه إن كان علي أن أرى موضوعها لك فلن تنتهي".

ومع ذلك فإن المسرحية قد كتبت. ويصفه لنا أحد أصدقائه في أثناء تجربة (تمثيل الرواية) وصفاً حياً "كنت تكاد تنكره من الضنى والإعياء. وأصبح قلقه وتشويشه أمراً يعرفه الناس جميعاً. فكان الناس ينتظرون أمام باب المسرح ويشهدونه يندفع في الشارع وقد انتعل حذاء ضخماً يخرج لسانه من السروال ولا يستكن فيه. وكانت جميع الملابس التي يرتديها تبلغ ضعف الحجم الذي يلائمه، ويغشاها الطين من الشوارع".

وكتب قبيل تمثيل المسرحية "لقد قاسيت شقاوات كثيرة، ولكن شقوتي كلها تنتهي إذا أصبت النجاح. تصور قلقي وتوجسي يوم تمثل مسرحيتي فوتران أن تمضي خمس ساعات حتى يتقرر هل أستطيع أداء ديوي أم لا أستطيع".

ولم تنجح المسرحية. فقد صمم وغد القصة على أن يمثل دوره هازلاً متفكهاً، فهو إذا خلع قبعته بان منه شعر مستعار على شكل هرمي. وهو كساء للرأس لاحق في استعماله لغير الملك لويس فيليب، فغادر أورليانس مكانه. وبرح المسرح وكان من العسير إتمام الرواية إزاء ما حدث من الضجة وما سمع من صفير الاستهزاء وما تردد من تهديد الجمهور وتوعده، وما أسرع ما حظر الرقيب الرسمي تمثيل هذه الرواية.

ولكن بلزك كان مطمئناً جهد الاطمئنان في أثناء حفلة الافتتاح تلك. فإنه لفي سبات عميق على أريكة عند آخر المسرح وقد اشتمل عليه حلم جديد.

- ٣ -

حلم جديد آخر واهيار مالي جديد. فيهرب من دائنيه متنكراً في ملابس امرأة وقد استخفى بأفانين التزيين، وجعل يتنقل في سرعة بين حجرات الأسطح ومزارع الريف حسماً شاءت الريح، وجعل يتسلل إلى منازل أصدقائه ويتحدث في الأخلاق والأدب والحب فيما بين الخامسة مساءً والخامسة صباحاً مع "جورج ساندر" تلك النابغة الأخرى من نوابغ القرن. ثم يظهر له كتاب جديد وتتراكم عليه ديون جديدة.

فيدعو ناشريه بالعقبان التي تنهش لحوم برومبيوس ويكتب إليهم قائلاً: "سيحل يوم قريب تتالون فيه الثراء على يدي، ستذرع عرباتنا غابة باريس وسينفجر أعداؤكم وأعدائي

حسداً". صديقكم: أ.ب

وتلي ذلك حاشية بخط بالغ الدقة "وبهذه المناسبة يا صديقي. إنه لم يبق لدي مال؛ لذا اقترضت مبلغ ١٥٠٠ فرنك من روتشيلد وكتبت بذلك المبلغ صكاً باسمك، يستحق الأداء بعد عشرة أيام من رؤيته".

ولكنه ظل مقيماً على الأمل في أن مشروعاً تجارياً سوف ينهض به على قدميه، وسوف يسعه أن يحلم وهو على رفرف النعيم. وكان قد عرف من مطالعته أن الرومان الأقدمين قد استخرجوا الفضة من مناجم لها في سردينيا، وكان على يقين من أن هذه المناجم لا تزال بها فضة يمكن استخراجها. وحدث بمذه الفكرة أحد التجار وعقد معه شركة وقرأ في الصحف ذات صباح أن شريكه قد تعاون مع بعض الوكالات الحكومية على استغلال مناجم سردينيا دون مشاركة بلزك. ولكنه يقيم على حلمه المتفائل، ويوقظ صديقيه جوتير وساندو، في ساعة متأخرة من الليل، ويخبرهما أن صوتاً وافاه وهو في غيبوبته وأن ذلك الصوت قد حدد له المكان الذي خبأ فيه *Jouissint L'ouverture* كنزاً، وظلت الفكرة لسوء الحظ - لا تعدو مجالها النظري، فإن أحداً من الكتاب الآفاقيين لم يتهيأ له من المال ما يذهب به إلى هايتي.

ولكن يمضي بلزك في خطته، فيعقد شركة مع صهره. ويتكسر نظام السطوح المائلة للسكة الحديدية، ويحلم بإنشاء ترع من نانت إلى أووليانز. وينقل شجر البلوط من بولندا إلى فرنسا، وبزراعة فدان من أرض المدينة أناناساً. ليته فقط يحصل على بضعة آلاف من الفرنكات يبدأ بها مشروعه. ويجمع أقوال نابليون وبيعه بأربعة آلاف فرنك لبائع قبعات، حسب أنها قد تعينه على نيل نوط الشرف، ثم قرر الحصول على احتكار لصناعة تماثيل أوروبا وأنسجة أوروبا الموشاة بالصور ونقوشها ليبيعه للعالم. فسوف يشتري مثلاً: (أبولو بلفدير) ويدع أمم الأرض قاطبة تتنافس على شرائه. ألا ليت له فقط منزل ريفي صغير!

وذات يوم يمتلك منزلاً. ولكنه يخشى تكاثر دائنيه إذا سمعوا بما أصاب من ثراء فهو

يقول لكل زواره (إني لا امتلك من ذلك شيئاً كما تفهمون، فهذا منزل أصدقائي وأنا أخدمهم).

"من أولئك القوم العجيبون الذين يقنطون هنا وقد اتخذوا أونوري دي بلزاك خادماً لهم" إن حجرات المنزل تكاد تخلو من الأثاث وأن جدرانها المطلية بالجبس الناعم لتحمل على أبعاد منتظمة أروع الأوصاف (لأشياء غير موجودة) قد أثبتت على عجل بخط يعرفون صاحبه حق المعرفة: "هنا رخام باري مطعم" و"هنا لوح مقاطع لفتحة الموقد من رخام كارارا" وعلى السقف "هنا نقش لأوجين دلاكروا" وعلى الأرض "هنا أعجب ما أبدعت يد إنسان من طلاء بالألوان المائية والفسيفساء".

ويحمل بلزاك في يده عصا ذهبية وعليها الشعر التالي مترجماً التركيبة (قاهر الصعاب جميعاً).

وتفد إليه رسالات بالغة العجب وتستحوذ على ذهنه فكرة أنه مغنطيس فيعتقد أن شأنه كشأن القطب الممغنط ويعلن أنه إذا حصل على سر معين أستطاع أن يأمر كل إنسان بطاعته وكل امرأة بحبه.

كذلك جعل يحلم بألف رواية هزلية وينفذ إلى النزعات البشرية وينسج بساطة الوهمي من الأرض إلى السماء على قوس قزحي عربي الطراز. فهو إن كان من قوم يكدحون في النهار فإنه ينظر إلى نفسه على أنه عضو في الطبقة الوحيدة النبيلة حقاً.. فهو أخ في الملك هارون الرشيد أمير من أبدعوا نسيج القصص وأمتعوا الناس.

وأي دخر من الجمال ذلك الذي يطالعك في نسيج قصصه. إنه لا يخشى أن يتهم بالمبالغة. حتى ليقول إن الرذيلة إن هي إلا الرغبة في معرفة كل شيء. وهو يربط مصيره بمصير فوست. فلقد برئ من كل خداع حق في أمر العالم. فهو في أقصى خيالاته سيموت كما تموت الحشرة المزخرفة قد أخذت زينتها لموسم الحب. ولم تلبث أن سحقها قدم عابر سبيل. ففتساءل أنت فيم اللهفة هذه كلها على البهرج الباطل إذن؟ بريك ليس هو البهرج ما يعيننا وأن بلزاك ليناجي روحه وقل من ملايين الأصدقاء من سمع نجواه "ليست

بي من الفقر خشية ولولا أن العار وزرابة الناس تصبان على المتسول لتسولت واستجدت الناس لأستطيع أن أحل في سلام تلك المشاكل التي يزر بها عقلي. وأني في بعض الأوقات لأقبض بيدي على عالم الفكر وأعجنه وأشكله وأنفذ من خلال واعيه.. ولكن المرء الذي يسبق زمانه بقرنين يختم حياته على المشنقة.. من أجل ذلك احتفظ بحدائقي ومشروعاتي المالية لأنيم وأخدع تلك الروح الشريرة التي قد تنصب المشنقة لرجل ممزق الثياب.. بربك.. لأصبحن بالحق في سكوني. فليقم الملائكة مصحات للأرواح المعذبة. ولكن حتى يفعلوا سأشيد للأرواح المعذبة قصراً من الأحلام".

- ٤ -

وآتت خياله فكرة هائلة حينما كان شاباً حالمًا قد سلخ من حياته الشاذة الأطوار ثلاثين عاماً، هي أن يؤلف سلسلة من القصص، تكون في مجموعها مسلاة إنسانية كاملة من نوع ملهارة النماذج الاجتماعية. فهرع إلى منزل أخته كما كان يفعل دائماً إذا اشتمل عليه حلم كبير. وأقبل كأنما هو كبير الزامرين في الجيش. فهو يحكي الموسيقى العسكرية إذا هدرت وضربات الطبول إذا قرعت، ثم هو يصيح (يا صغيرتي هنيئي).

وجعل يختلف إلى عمله يهمهم بالنغم. ويرت على أكتاف الأصدقاء. فهو يؤدي دور المهرج السعيد بينا فكرة مغامرته الشاعرية تكتمل نضجاً، ومهما تختلف عليه الهجة والضيق، والأهجة والإفلاس. ومهما يبلغ اضطراب أمره في المسائل العملية فهو لا يجيد عن مهمته طيلة عشرين عاماً.

لقد ألف غيره من القصاصين كتاباً أو كتابين أو عشرة، هي نتاج موقوت لفنهم حين يستوي للفن مزاجهم، لكن أي القاصين قد حلم بكتابة ستة وتسعين كتاباً كل منها خط يشارك في إتمام صورة مسلسل متتابعة للحياة. إنها المهزلة البشرية للأرض.. رصيفة المهزلة الألهية للسماء التي كتبها دانتي.

ولكن ما كتبه بلزك كان أكثر من كتابة "معارضة" ملحمة دانتي. فهو فنان يجيا في بيئة يسودها العلم الحديث ولا يحكمها إيمان القرون الوسطى. فدبر أمره على أن يدرس

مملكة الإنسان كما درس بوفون مملكة الحيوان. فيكتب بحثاً شاملاً في التشريح الخلقي المقارن للجنس البشري، ولم لا يفعل وقد صنفت الحيوانات أصنافاً. ورتبت في أجناس وأنواع، وما الجنود والعمال والأساتذة والساسة والتجار والبحارة والشعراء والمتسولون والقساوسة إلا نماذج يتميز بعضها من بعض تميز الذئب والأسود والنسور والغربان والقروش بعضها من بعض. فالإنسان تحكمه النوازع ذاتها التي تحكم الحيوان، وعلى الأخص دافع المصلحة الشخصية. والأدب إنما يجمل الإنسان، والنفاق يزوره فالحيوان باق في الإنسان وإنما يختلفان في أن عقل الإنسان أرحب من عقل الحيوان؛ لذا كبرت حاجاته وعظمت مخاطره.

وهكذا أقام في متحف التاريخ الطبيعي البشري صورته للبشر كاملة، تنتظم آماله ورغائبه ومطامحه وكفاحه ومنافساته وغرامه وضعفه وملقه ومخاوفه، هي صورة شاملة لوحشية الإنسان كلها في حكم نابليون الأول ولويس فيليب. وكان بلزك شديد الإعجاب بالكورسيكي الضئيل. وكثيراً ما طاب له أن يقارن نفسه بنابليون فذلك الرجل جندي يناضل بالسيف وأنا جندي يناضل بالقلم. "ولكني سأنجح حيث فشل نابليون. فلسوف أغزو العالم".

وغزت (المسألة الإنسانية) العالم فعلاً. فهي تقدم عالماً جديداً يشتمل على طبقة جديدة.. هي الطبقة الوسطى. إنهم رجال جدد لهم مهام جديدة، وآمال جديدة ودين جديد، دين الديمقراطية الذي يؤمن بالرجل العادي، فالكادح في المنجم وقد أتخذ على وجهة قناعاً، والعامل وقد ارتدى سرواله الثقيل والتاجر وقد وقف وراء خزانته، هم أبطال الادب الجديد، والطبقة الجديدة، والحياة الجديدة. لقد كتب أسلكس وشكسبير وكورني تمثيلات تدور حول النبلاء والملوك، فيعلن بلزك تحديه لقراء هذه القصص بقوله "أن قصصي البرجوازية لتحمّل من الآسى ما لا تحمله مآسبكم التمثيلية".

وبلزك كشكسبير يفتن في تلوين كل طائفة من طوائف الخلق البشري، فلا يألوها إضاءة ولا تظليلاً، وهو كشكسبير في مناعته على العدوى بالأمراض العقلية والإسفاف الخلقي الذي شاء أن يتناوله. فهو يصور تحلل النبلاء وانهيائهم وظهور الطبقة الوسطى

التي تنتظم الصيرفي وطالب الكسب والعصامي، وجاءت قصصه ملحمة للشهوة المادية يسودها ظمأً غالباً إلى النجاح المادي. كتبها أمير شعراء النزعة الرأسمالية. فالمال هو المقياس الوحيد لقيمة البشر. فهو دم الحياة يجري في عروق أشخاصه، فيمد الرنتين بالهواء، ويمد العقل بالغذاء، ويمد القلب بالإيمان. إن رنين الذهب هو موسيقاهم وشعرهم وفلسفتهم ودينهم وحياتهم وهو المادة التي تصاغ منها أحلامهم. وتحت طلسمه السحري يبدعون الجمال ويقترفون الجرائم (وفي سوق الأوراق المالية تدور معارك البطولة وتجري الخيانات الفاضحة. إن المال ليتكاثر والنقود تجذب النقود، وقطعة الفرنكات الخمسة تحسد الفرنكات العشرة وتكافح في سبيل التكاثر. إن المال هو قوة الكون التي تحكم الأرض. هو بروسبرو وكالبيان. هو الله والشيطان اللذان يتأرجح بينهما العالم).

وينتقل بلزك مزهواً بين حجرات الزائرين وقاعات التجارة، وبهتلك حجب النفاق التي تقف دون شخصه، ويظهر على أرواحهم، ولكنه يزدري أن يصدر عليهم حكمه إذ كيف يحكم؟ إن الإنسان ليصف الأشياء جميعاً أوصافاً مجردة - طيب شرير فاضل مردول - وهي ألفاظ يختلف مدلولها باختلاف الناس، فأحكام الناس عمياء. "وليس من مبصر في حكمه غير الله" وما شأن أرضنا هذه الحمقاء؟ أهي جزء من كون أحرق؟ يجب بلزك عن هذا السؤال سلباً.

إن الكون ليسير نحو غاية منطقية. وليست هذه الغاية مجتمعاً على شاكلة مجتمعنا. فإن الهوة بيننا وبين السماء سحيقة مخيفة. وليس الإنسان مخلوقاً كاملاً وإلا لما كان الله، ومع ذلك فمن كل هذا. من شكل مجتمعنا، ذلك المجتمع الذي يعد حب الإنسان أكبر الأخطاء. والتقدم صيحة جوفاء.. وضعت يدي على الحق الصراح. إن الحياة إنما توجد في داخلنا ولا وجود لها خارجنا. وأن ارتفاعنا فوق مستوى أفراد جنسنا بقصد أن نتحكم فيهم، أن هو إلا تضخيم لعمل المدرس. ومن أمكنته قوته أن يسمو إلى حيث يرى السماء، فأخلق به ألا يدير بصره إلى قدميه".

وفي ضوء هذه الفلسفة، قسم بلزك سكان العالم لا إلى أبطال وأوغاد، وأخبار وأشرار. بل قسمهم إلى فعالين ومفكرين وقديسين. وأدنى هذه المستويات مستوى

الفعالين، من الحارين والتجار ومبدلي النقود. وأبطال الدفع والجذب. ويليهم رجال الفكر من العلماء والأساتذة والفلاسفة والمدرسين والمرشدين، ثم يأتي أهل الخيال من الشعراء والفنانين والموسيقيين والأنبياء ومنقذي العالم. فقد قدر للإنسان - فيما يرى بلزك - أن ينهض من العمل إلى النظر عن طريق التفكير المجرد، فإذا بلغ المرحلة النهائية عاد اللحم المادي إلى أصله المقدس.. عالم الله الروحي.

ولم يتم بلزك خطته العظيمة قط، فهو فنان أكثر منه صانع. ولا يستطيع أن يتم مهمته غير الصانع. فلقد كتبت كل قصص المهزلة الإنسانية في كدح أليم وأسلوب غامض، وكثيراً ما كانت نيران الهامة بعشاها السحاب من تعقد التعبير. لكنه ظل حتى آخر أيامه يجهد في إبداع آيته وترك منها صرحاً، زاد في روعته أن قوته لم تكتمل.

-٥-

فلما قارب الخمسين كتب القدر الفصل الأخير من المهزلة البشرية لحياته الخاصة. فإن الكونتيسا هانسكا التي كان يتبادل القبلات وإياها في الخفاء طيلة إثني عشر عاماً قد فقدت زوجها، وأمكن آخر الأمر أن تكون له. فكتب إليها في هذيان مستمتع "لن أكون مديناً بدرهم واحد يا عزيزتي، سأصيب من أعمالك خمسمائة ألف فرنك. دعك مما تدره (الملهاة البشرية) مما يزيد على ذلك المبلغ. وهكذا أيتها السيدة الجميلة ستزوجين مليونيراً أو أكثر إن قدر لي أن أعيش".

وأخذ له منزلاً. وابتاع الصحف والطنافس والحريز، والأنواط والساعات والصور والمائات، وأعدّها كلها. ولم يبق إلا إخراجها من صناديقها عشية زواجهما. أعد هذا المنزل ليكون مأواهما في شهر العسل. وجعله تحفة رائعة تنتظر قدوم ملبكته.

لكن مدام هانسكا كانت قد ملت هونوري دي بلزك منذ أمد طويل، وهي الآن لا تأبه مطلقاً لتلك العبقرية التي كانت موضوع عبثها ساعات الفراغ. فظلت خمس سنوات أخرى تتأبى عليه، ثم ضاقت بحصاره إياها فتزوجته. فكتب بلزك إلى أخته "لقد بلغت قمة سعادي فإني الآن في أوج أحلامي".

ثم أفاق من سكرته فألقى سيدة أحلامه امرأة نصفاً، متورمة الساقين والذراعين من النقرس، وكثيراً ما كانت تعجز عن المسير. لكنها لم تشعر أنها ثقل شيئاً عن أمير قلبها، وسر ذلك عندها وعند طبيبها. فبلزك يوشك أن يموت.

فيذا بلغنا شهر مايو، شهر الحياة والحب. كان فكتور هيجو يزور زميله في الأدب، فكتب تلك العبارة الوجيهة "تزوج وهو غني على أبواب القبر" إن استنزافه التام لنشاطه، وهو نشاط لم يعرف تاريخ الأدب له مشبهاً قد حطم جسمه القوي آخر الأمر. وكان بصره أول شيء ذهب ثم انحطم قلبه واستقرت في رجله الغنغرينا.

أنه في شهره الأخير، فراه محتبناً في منزل فخم، وقد استلقي على أريكة يغطيها الديداج الأحمر والمذهب، وقد اصطبغ بلون الأرجوان من الألم وتعفت ساقاه. ولكن رأسه لا يزال بركاناً يقذف بالمشروعات، أنه لمولع بالأخيلة لكنه يدعها إلى أحلام تفوقها جمالاً.

وفي يومه الأخير جاءه فكتور هيجو يقدم تحياته. دخل منزل الرجل الضئيل الخرافي، وحاول أن يقرأ سر الحياة في وجه يموت، لكنه لم ير شيئاً غير الموت والتحلل. وكان بحجرة الاستقبال تمثال نصفي ضخم للكاتب، وكان هذا التمثال الرخامي النصفي أشبه شيء بشبح الرجل الذي يموت "فيذا دنوت من المضجع رأيت منظره الجاني وكان يشبه نابليون. وكانت ممرضة عمجوز عليلة على أحد جانبي السرير، وعلى جانبه الآخر خادم رفعت الغطاء. وأخذت يد بلزك. وقالت الممرضة: سيموت حول الفجر".

مات في الليل. ولا وراء أن فرنسا كان يخيم عليها الليل، فالناس لم يكادوا يتنبهون لموته. لكنهم لم يمنحوه تمجيداً ولا تكريماً حتى في حياته، فحين تقدم لعضوية الجمع الأدبي الفرنسي، أوصد القوم المتعالون الباب في عنف دون ذلك "الجلف الفلاح".

فالمجد- كما قال بلزك- "هو شمس تشع على الموتى".

أهم مؤلفات بلزاك

La Comédie Humaine	César Birotteau
Eugénie Grandet	Louis Lambert
Vautrin	Père Goriot
La Cousine Bette	Le Cousin Pons
La Recherche de l'absolu	Pamela Giraud
Un ménage de garçon	Les Illusions Perdues
Splendeurs et misères	Lys dans la Vallée
	Des courtisanes

اسكندر ديماس "الأب"

١٨٧٠ - ١٨٠٢

كان إسكندر في الرابعة من عمره حين مات أبوه، وخرجت أمه من حجرة الموت، فرأت الطفل يصعد الدرج وقد جر وراءه بندقية ثقيلة.

"إلى أين أيها الطفل؟"

"ذاهب إلى السماء."

"يا عجباً.. لماذا؟"

"لا بارز الله.. فقد قتل أبي."

وكان إسكندر منذ طفولته الأولى أشبه بالفرسان الثلاثة، محارباً مشهوراً يجاهد صعاباً عزيزة المنال. فقد تحدر من أصلاب قوم من المغامرين والحاربين. ولبي جده الأرستقراطي (دافي دي لا بايتري) نداء الدم فأبحر من نورمانديا إلى جزيرة سان دومينجو. وعاش فيها حياة الأباطرة، يحوطه رهط من الأرقاء السود، وقد ولدت له إحدى الأمماء، لويزا ديماس، ابناً أسود، أسماه (توماس اسكندر) وقد ورث ابن دافي دي لا بايتري هذا فوران أبيه وتهيجه:

"أريد لأ تطوع في الجيش."

فقال له أبوه: لا بأس. لكن يجب أن تتطوع باسم أمك. فإنه ليشقيني أن يحمل جندي أسود اسمي ذاك الشريف (دافي دي لا بايتري).

وهكذا انضم توماس إسكندر إلى الجيش الفرنسي عام ١٧٩٣ باسم ديماس. وما هي إلا سبع سنين حتى رقى من رتبة النفر إلى رتبة القائد. يا له من رجل محارب ظريف عجيب شجاع دمث مفكر. ذلك الأرستقراطي الأسود ذو البشرة السوداء والشعر

الكستنائي. لقد هاجم البرانس، وأخذ ألفي أسير، ودافع وحده فصيلة نمساوية عن إحدى القناطر، وكان دائماً يحارب في مقدمة رجاله.. ولقد أغمى عليه مرة بعد معركة فأشرف على الموت، فسأله مساعده حين فتح عينيه:

"هل جرحت أيها القائد؟".

"كلا.. ولكني قتلت كثيرين جداً".

كان يحارب تحت أمره نابليون بوصفه جمهورياً متوقداً. وظل جمهورياً متوقداً حين نصب نابليون نفسه دكتاتوراً.. فطرد من الجيش مجللاً بالإهانة والتحقير. في هذه الأثناء كان قد تزوج وأنجب طفلاً قوياً كأنه الرجل، وزنه تسعة أرتال وطوله ثماني عشرة بوصة. وقد ولد الطفل أبيض اللون والحمد لله. كما قالت أمه: له بشرة متوردة وشعر فاتح اللون، وعينان زرقاوان، ولم يبق من آثار أصلة الأسود غير غلظة الشفتين فسموا هذا الطفل إسكندر.

وقد شب الطفل منذ طفولته الأولى قوياً في جسمه وعقله وروحه الثائرة.. إن الرجل الشرير (نابليون) قد لطح أبي بالعار، فسأكرس حياتي كلها لمحاربة الأشرار.

- ٢ -

وحاولت أمه أن تجعل منه عالماً، لكنه يبغض التعلم، ثم تحاول أن تعلمه العزف على القيثارة، لكنه يبغض الموسيقى. وأخيراً تحاول أن تحب إليه العمل بالكنيسة ولكنه يفر من بيته ويقيم بالغابات أياماً عدة. فاستسلمت أمه لليأس (إنه لا يقدر إلا على شيء واحد.. هو الكتابة بخط حسن، لكن أي معنوه لا يقدر على ذلك؟).

ولكن إسكندر كان أبعد ما يكون عن العته، فله عينان يقظتان، وعقل متفتح، وقلب يسع العالم كله حباً. وهو على كراهته قراءة الكتب كان يتعلم في سرعة مطالعة الحوادث الجارية في صور بديعة شتى، وكانت أعظم الأحداث تجري في هذه الأيام الثائرة، ففي يونية عام ١٨١٥ رأى إسكندر عربية تقتحم الشارع الرئيسي في "فيير كترية" ولمح من وراء الستار هيكلاً لرجل.. حازم.. مستقيم ذي عزم وإرادة، هو نابليون يسير عجلاً إلى

واترلو.. وماهي إلا أيام قليلة، حتى رأى نفس العربة تقتحم نفس الشارع في الاتجاه المضاد فأرى وراء الستار، خيال الهيكل نفسه كسيراً غائصاً في وسائده، محطماً "هو نابليون قد فر من وترلو".

وبعد هزيمة نابليون حاولت أم إسكندر أن تستعيد ثروتها ومكانها، فعرضت على ابنها أن يختار بين أن يدعى بذلك الاسم الأرستقراطي "بكل سرور".

ويضحك الممثل ويقول وقد وضع يده على جبين اسكندر: هأنذا أكرسك للشعر باسم شكسبير، وكورني وشيلر.

قال الممثل هذه الكلمات في روح أقرب إلى المزاح منها إلى الجد.

لكن المسألة عند ديماس ليست مسألة مزاح أنه شاعر يباركه شكسبير وكورني وشيلر، سأحقق هذه النبوءة! سأحققها لتالما ولباقي الدنيا كلها.. فيها.

وذهب إلى منزله وجلس يحيل قصة سكوتس (إيفاهو) إلى تمثيلية.

- ٣ -

لم يستطع أن يجد منتجاً لقصة (إيفاهو) ولا لتمثيلته التالية ولا للتي تلتها. لكنه ظل يأمل ويلهو بالنساء ويولد له أبناء غير شرعيين ويكتب التمثيليات والقصص ويحاول في إلحاح دائم ليفرض عبقريته على عالم عنيد. وكلما رفض منتج أو ناشر أن يقابله كان يكتفي بالابتسام للسكربتيرة قائلاً شكراً يا آنستي لست ممن تخور عزائمهم بسهولة سأمراً ثانية.

وأخيراً سنحت له الفرصة بفضل إصراره وتفأؤله. فإن إحدى تمثيلياته وعنوانها (كرستيانا ملكة السويد) قد قبلت للتمثيل في المسرح الفرنسي واختير الممثلون، وبدأت التجارب وتقرر النجاح للمؤلف الشاب. لكنه ألقى بالفرصة جانباً وقد فعل ذلك بدافع من كرم النفس. فإن مؤلفاً مسرحياً آخر.. رجل عجوز قضى طول حياته يحاول الوصول إلى المسرح على غير طائل قد أتم الآن فقط مثلما فعل ديماس تمثيلية عن ملكة السويد.

فقال ديماس "فلنسمح للزميل العجوز بأن يجول جولته على المسرح قبل أن يودع الأرض" وسحب روايته في إيثار وشهامة.

ثم شرع يكتب تمثيلية جديدة عنوانها (هنري الثالث) وظفر لها بمنتهج وجعل ينتظر على أحر من الجمر حفلة الافتتاح. وكانت ليلة ١١ فبراير عام ١٨٢٨ فأخذ ديماس في ارتداء ملبسه استعداداً للمسرح.

لقد أعد كل ملبسه مقدماً (السرعة.. السرعة حذار من التأخر فلبس حذاءه وسرواله وقمصه.. وفجأة وجد أنه قد نسي شراء زيق. فاستل مقصاً وقطع به زيقاً من الورق المقوى لف به عنقه. ثم هرع الفارس (المورق) إلى المسرح ونظر من خلال ثقب في الستار "أن القاعة مزدحمة حتى الأبواب".

كانت الحفلة نصراً باهراً. واستحالت ضجة الاستحسان عنا. إسدال الستار إلى هذيان محموم حين ظهر المؤلف، ورأسه مرفوع عالياً، حتى أن ناصيته غير المشوطة كادت تشتعل من أنوار المسرح. ذلك هو الرقيق ذو الزيق الورقي قد أصبح الملك الجديد للمسرح الباريسي.

وأقبل ديماس على مملكته كأنما قد ولد للملك. فهو يوزع الابتسامات ويتقبل التكريم، ويستاف النجاح الحلو كما يستاف نسيم الفجر. ويكتب تمثيليات جديدة ويحظى بانتصارات جديدة ويغزو معشوقات جديدة.

ثم يقوم بمغامرة جديدة. فقد صار الكاتب محارباً. ذلك بأن شارل العاشر قد أصدر مرسوماً بمنح حرية الصحف فنار المنتقون الباريسيون على المرسوم، وانضم ديماس إلى الثورة.

وفي هذه الثورة كان نصيب ديماس من الصباح أكثر من نصيبه من الكفاح. وكان دوره في الحرب أشبه بدور الذبابة على عجلة المركبة. ولكنه يحظى بأن يغرق وجهه في العرق البارد. ويحظى بالنصيب الأوفى من التصفيق. قال له لافييت صائحاً وهو يعانقه (مستر ديماس لقد ألفت أعظم رواياتك).

فشكر ديماس لافبيت على تحيته. وعرض عليه أن ينظم الفلاحين الفرنسيين. وقبل لافبيت ما عرضه ديماس، فازدان ديماس في ملابس صارخة الألوان (فهو كالأفريقيين يزدهيه البهرج) وحذاء لامع وسروال في اللون الأزرق الملكي وسترة قرمزية ذات أكتاف فضية وخوذة لها ربش أحمر متموج وشريط مثلث الألوان. ثم شرع يعمل مع مساعده وكان هذا المساعد مزوراً قد أنقذه من المشنقة. وخطب جماهير الفلاحين وأمتعهم وفشل فشلاً أليماً في محاولة تنظيمهم.

لقد فشلت الثورة تماماً ولم ينجح الثوار إلا في إسقاط ملك سيء وتتويج ملك أسوأ. فغادر ديماس فشله السياسي إلى نجاحه الأدبي، فألف مسرحية.. أنطوني وهرعت باريس كلها تتماجن وتستمتع بقومها التمثيلية والإباحية "يا إلهي ما أوقفه من مؤلف! وما امتعه من شاب!" وقد مزقت السيدات أطراف سترته في حماسة الليلة الأولى.

ويظل الزنجي الوقح الممتع بصدريته الزاهية، وأسنانه اللوامع، يدور على متن دوامة القدر. فيولد له طفل وتجره عشيقته ويصاب بالهبيضة ويؤلف مسرحية أخرى ناجحة.. ثم يشارك في ثورة فجأة أخرى ويفر إلى سويسرا خشية أن يقبض عليه لأنه "جمهوري خطر" ثم يطمح إلى العمل في الكنيسة على حين بغتة ولم لا؟.. لقد خلقت المسرح الجديد فلا خلق في الدين مذهباً جديداً.

لكنه ترك الفكرة فجأة، كما قد أخذها فجأة. فهو نائر لا ينسجم طبعه مع هدوء الكنيسة. وأن متع الأرض لأشهى من أن تستبدل بها وعود السماء. "وأني لأؤثر أن أظل وثنياً وأدفع الثمن في الآخرة" وظل إلى آخر أيامه وثنياً يسلي الرجال، ويغوي زوجاتهم، وينتج مسرحياته، ويرفل في حلل المجد، ويواجه ما يلقي من نجاح وفشل بتهمال طيب كريم. يلقي المديح بجزء كتف، والإهانات بابتسامة.

ولكن إن صدر القدح عن حقد بالغ فهو أحياناً يمزج بابتسامته الحلوة شيئاً من الملح. كان شاب من الأشراف يباهى بأصله، ثم التفت إلى ديماس وهو يقول (حدثني الآن عن أصلك).

فأجابه ديماس (ولد أبي في الهند الغربية. وكان جدي رنجياً. وكان جدي الأعلى قرداً.. يبدو أن أسرتي قد ابتدأت من حيث انتهت أسرتكم). وقال له يوماً بلزك منافسه المر في صالون أدبي محاولاً أن يخضد شوكة الروائي الشاب (حينما تستنزف مواهي سأكتب التمثيليات) ففاجأه ديماس بقوله: (إذن فأكتب التمثيليات حالاً).

- ٤ -

في السادس من فبراير عام ١٨٣٢ ظهرت فتاة موهوبة من المونتبارناس تدعى (إيدافير) في إحدى مسرحيات ديماس (تريزا) وبعد التصفيق الذي أعقب إسدال الستار الأخير أُلقت الممثلة بنفسها بين ذراعيه (مسيو ديماس لقد خلقت شهري. كيف لي أن أرد جميلك يوماً ما؟) فقال لها (ليس أسهل من ذلك) وأرسل عليها ابتسامته التي لا تقاوم. وظلت سنوات عدة ترد عليه جميلة. ثم تزوجا، الأمر الذي دهش له الجميع فأسلم ديماس نفسه حياة منزلية.. ورضي الوميض بالأغلال. لكن الأغلال كانت تتدلى على ظهره، ولا تلجم قوته المتهورة. فطالما كان يترك صاحبه ليغامر خارج المنزل.. وكان يسمح لزوجته في سماحة أن تبحث هي عن مغامراتها الشخصية في المنزل إذ كان شعاره (عش.. ودع غيرك يعيش).

وأنه لدائم البحث عن مثيرات جديدة، وغرام جديد، وتلميل جديد. فإن أمجاده المسرحية قد بدأت تخبو. ونيران الثورة قد خمدت في العالم كله. فلا بد لطاقته القلقة من سبيل جديدة. لكن أين؟ وكيف؟.

"آه.. لقد وجدت السبيل الجديدة في القصص التاريخي". لسوف يعيد الماضي الذي مات إلى حياة صاحبة. لقد مات والتر سكوت ملك الخيال فليحي الملك الجديد إسكندر ديماس، وشرع يعمل كالحوموم في روايته التاريخية الأولى الفرسان الثلاثة، وكان يعينه في البحث التاريخي Augustc Maquet وهو عالم له بصر بالحبكة القصصية أما ديماس فكان لا يعني بالحقائق الميتة ولكنه شديد العناية بحقائق التاريخ الحية فهو يقول (لا بأس من انتهاك حرمة التاريخ بشرط أن تنجب منه طفلاً).

وجعل يعمل في قصته لا يدركه التعب.. من الساعة صباحاً حتى الساعة مساءً. مرتدياً قميصاً بلا أكمام مفتوح العنق، وإلى جانبه وجبه غداء لم يمسه في الأغلب. وإذا تصادف أن مر به زائر في ساعات العمل، لوح له بيده اليسرى محيياً بينما اليد الأخرى ماضية في الكتابة. كان يعمل دائماً في احتشاد هائل. لكنه احتشاد اللاعب، فهو يعيش مع أشخاصه ويحدثهم ويمازحهم. وقد جاء رجل من الإنجليز لزيارته فسمع ضحكة تنفجر من مكتبه فقال للخدام:

سأنتظر حتى يكون سيدرك بمفرده.

فأجاب الخادم إن سيدي بمفرده.. وإنما يضحك من فكاهة حلوة سمعها من شخص في روايته. كان يعيش مع أشخاصه نهاراً ومع إخوانه ليلاً، فإذا سأله الناس كيف استطاع أن يشعر بالمرح والنشاط بعد كده اليومي، أجب بأن محصولة اليومي لم يكن كدأً على الإطلاق (إني لا أولف رواياتي، بل أنها تؤلف نفسها في داخلي) لكن كيف ذلك؟ (لست أدري.. سل شجرة البرقوق كيف حملت إليك ثمارها) لقد أوتي موهبة الخلق، وموهبة الصداقة الغامضة والأشد ندره. فهو يحتفظ دائماً ببيته مفتوحاً وقلبه مفتوحاً.

وكانت ساعة الغداء بمنزل ديماس تمتد من منتصف الساعة الثانية عشرة إلى منتصف الساعة الخامسة. وكان يقبل ضيوف جدد دائماً. وكان على الخدم أن يهرعوا إلى القصاب يشترون شرائح لحم جديدة. وإذا استطاع ديماس أن يستريح من عمله فهو يختلط بصيوفه بحرية. فكان يأتي من غير دعوة كثير منهم على الرحب والسعة، قال له صديق (أنتفضل بتعريقي بالسيد الذي هناك؟) فأجابه (كلا لا أستطيع فيني لا أعرفه) كأن كرمه أشبه بموهبة ليست بذات قرار. وهو أبداً يلقي فيها بكل ما يكسب. فهو دائماً مدين. حتى لقد أصبح المحضر أشد ضيوفه مواظبة على زيارته وحدث مرة أن طلب إليه صديق المعاونة على دفن رجل مسكين مات لتوه، فأخرج ديماس من جيبه خمسة عشر فرنكاً وسأل: (ومن ذلك الرجل المسكين الذي مات؟)

محضر

فقال ديماس صائحاً إذن سوف تدفن محضراً.. إليك خمسة عشر فرنكاً أخرى..
ادفن اثنين منهم.

- ٥ -

وبينما جيوب ديماس يغيض منها المال ظلت شهرته تسمو من قمة إلى قمة. فهو ينتقل من تحويل التاريخ إلى قصص إلى تحويل القصص إلى تاريخ، فإن قصة (مونت كريستو) والتي شارك في كتابتها L'aaquist هي من صنع الخيال الصرف لكن أشخاصه كذلك بهم من الحيوية ما جعل الهداة في مرسيليا حتى يومنا هذا يشيرون للزائر إلى بيوت Mercedes Mosel وصوامع Edmond Dantes ورئيس الدير Floria في قلعة (IF).

لقد خلق ديماس من السحب والأبخرة مساكن قوية، ورجالاً أحياء. ولم يكن ديماس يهدف إلى الخلق، بل كان يهدف إلى الإمتاع. فمهمة المؤلف فيما قال إن يكتب في روح مستمتعة حتى يحيا أشخاصه مسرورين. ما قيمة أي فن ما لم يبعث الناس على المرح؟ لم يدع الشعر والعلم وإنما كان يهدف إلى البراعة في القصة. فإذا قال له أحد ظرفاء النقد أنك تكتب عن أحداث لا علم لك بها البتة- رد عليه ديماس بقوله: لو أني أدرس الأحداث فأني لي الوقت اللازم لكتابتها؟. فكان (ماكيه) ومساعدوه الآخرون (وكان أعداؤه يتهمونه بإدارة مصنع المقصص يعمل بانتظام) يمدونه بالحقائق الجافة. وكان يأخذ هو هذه الحقائق ويعمل فيها نار الخيال وروح الحياة.

وهكذا جلس في مصنعه حتى أقبل ليل حياته الأدبية وكان أشبه بالراوي العربي، الذي يطيل سهر قبيلته تحت سماء البادية المزدانة بالنجوم. فإذا قاربت نهاية السهرة كانت كأس نجاحه قد مزجت بمرارة الحسد، ولكن هذه المرارة نفسها لم تخل من زهو. فهو إنما يحسد ابنه.. ذلك بأن اسكندر ديماس (الابن) قد كتب قصة غادة الكاميليا التي فاقت في شهرتها كل ما كتب أبوه فجعل كل من الأب والابن يحاول التفوق على صاحبه بأن يقدر في صاحبه ويجب صاحبه ويوشك أن يعبد، فيقول إسكندر ديماس الأب "لقد

أنجبت ولدًا.. فاستحال إلي ثعبان" فيرد عليه ديماس الابن عابثاً "وأنا أنجيت أباً فاستحال إلي طفل".

ظل حتى آخر حياته مستهتراً ضاحكاً مغامراً. ورغم تقدم سنه، وثقل جسمه لكثرة ما أصاب من مائدة النجاج. فقد ظل عقله هائجاً قلقاً على عهده فحيثما تنشب ثورة يقذف بنفسه وسط دوامتها، فقد استعد عام ١٨٤٨ لأن يقود الحرس الوطني إلى باريس، ولكن الحرس الوطني يرفض أن يتبعه وانضم عام ١٨٥٩ إلى حركة غار بيلدي ولم يكنف بالمشاركة بثروته التي بلغت ٥٠.٠٠٠ فرنك، بل عرض أن يهب حياته نفسها دفاعاً عن الحرية الإيطالية، وقبل بعد أربع سنوات أن يتولى قيادة الثورة اليونانية ضد الأتراك، ولكن يتبين له أن منظم الثورة (الأمير Skandenberg) رجل محتل. وكان نشاطه القلق دائم السعي إلى التعبير عن نفسه تعبيراً عملياً فلم يجد إلى الراحة سبيلاً.

ويعود إلى باريس وهو في عامة الثالث والستين، بعد أن زار إيطاليا للمساهمة في الثورة، فيقابله ابنه في المحطة في الساعة العاشرة ليلاً (لا بد أنك متعب جداً بعد ما بذلت من جهد يا أبي، فدعني آخذك إلى المنزل!) فصاح ديماس الأب كلا، أريد لأرى جوتير قبل أن آوى إلى فراشي، وأخذ ابنه غصباً إلى منزل صاحبه القديم. وكان المنزل موصداً حين بلغاه فأثار ديماس ضجة أيقظت جوتير من نومه. ما الخبر؟

ديماس الأب وديماس الابن.

لكننا جميعاً في الفراش.

ماذا؟ في الفراش في تلك الساعة المبكرة، أقبلوا أيها الكسالى تيقظوا جميعاً وكانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحاً حين عاد الأب والابن من منزل جوتير، ثم قال ديماس الأب (الآن يا إسكندر أريدك أن تأتي بمصباح) (لماذا؟) (لدي عمل أريد إنجازه) ثم ترك الابن أباه أمام مكتبه وذهب لينام. فإذا صبحا بعد الفجر بزمن طويل وجد على المكتب ثلاثة مقالات تامة معدة لثلاث مجالات ووجد ديماس الأب يخلق ذقنه ويغني أمام المرآة. (كيف أنت يا أباه؟) (غض منتعش يا بني، كأني أقحوانة ندية) ثم يتبدى في عينيه بريق

وهو يقول "أترانا نحن الشباب يدركنا التعب في سهولة كما يدرككم معشر الشيوخ".

-٦-

وأخيراً يلقي شاب الثامنة والمستين بقلمه جانباً ليستريح لا تعباً من مغامراته القديمة بل شغفاً بأن يجرب شيئاً جديداً، وكان قد فرغ لتوه من غرامه الأخير مع الممثلة الأمريكية (أدامنكن) وكان هذا الغرام عاصفة قصيرة سريعة انتهت بمأساة حين قتلت الممثلة في سقوطها عن ظهر حصانها. فذهب ديماس إلى منزل ابنه (بني لقد أتيت إليك لأموت) ولم ينس بعدها بنت شفة. فإذا هز صحابه رءوسهم محزونين وهم يقولون إن ديماس قد أضمحل وانهار رد عليهم ابنه بقوله (أن عقلاً كعقل أبي لا يمكن أن يضمحل أو ينهار. ولئن رفض أن يحدثنا في لغة اليوم فذلك لأنه أخذ يتفهم لغة الخلود).

أهم مؤلفات ديماس

Les Trois Mousquetaires

Vingt ans après

Le Vicomte de Bragelone

Monte Cristo

La Reine Margot

La Dame de Monsoreau

Collier de la Reine

Impressions de voyage

فيكتور ماري هيجو

١٨٨٥ - ١٨٠٢

كان فيكتور ماري هيجو عام ١٨٦٥ منفياً على جزيرة (جرنسي) فقد نفاه نابليون الأصغر من باريس لإسرافه في حب الإنسانية، فإذا كان التاسع والعشرون من إبريل من تلك السنة جاءه خطاب.. إذ كان الرجل ذائع الشهرة جداً بعنوان فيكتور هيجو، باخيط. وبعث في نفس اليوم مع وزير أمريكا في بلجيكا بخطاب موجه إلى "مواطي من أبناء العالم" وقد أعرب في هذا الخطاب عن حزنه على مقتل لنكولن (لقد ارتج العالم كله لذلك الهول الذي أصاب وشنطن) ثم يختتم المنفى خطابه بتوقيعه (مواطن مخلص في جمهورية البشر).

وإن من الناس من يعتبر فكتور هيجو وأبراهام لنكولن بمكان العقل والقلب من القرن التاسع عشر.

-٢-

ومن عجب أن الطفل الذي شاء له القدر أن يكون أكثر الجمهوريين الأوروبيين تحمساً قد نشأ على تقديس الملكية. فقد كان أبو فيكتور هيجو قائداً في جيش نابليون وحين بلغ فيكتور عامه الحادي عشر رأى نابليون خلال شوارع باريس راكباً. ما راعني إذ ظهر الإمبراطور واشتملت على تلك الرهبة المقدسة ضجة الجمهور الصاحب الذي يسير وراءه يردد الأناشيد الجماعية، وإنما راعني رؤية الإمبراطور يتحرك صامتاً شجاعاً كأنه آلة من البرونز. وظل فيكتور هيجو حتى بعد اكتمال نصحه يرى في أباطرة فرنسا أنهم قد شاركوا البرونز صلابته وشاركوا الله جلالته.

وقد جاءه حب الإمبراطور من طريق أمه أكثر مما جاءه من طريق أبيه. إذ كانت السيدة هيجو تتعل دائماً حذاء أخضر.. لأن الأخضر يرمز إلى ملوك فرنسا. وكان

الأخضر أيضاً لون عيني مدام هيجو. وكانت هذه السيدة غيوراً على زوجها دائماً، وكان زوجها غيوراً عليها دائماً.. وكان لهذا وذاك سبب فحياتهما الزوجية كانت سلسلة تتعاقب فيها المصالحات والانفصالات.. وجود نساء غريبات في بيت الجنرال هيجو ورجال غرباء في منزل مدام هيجو. أما فيكتور فكان يعبد أباه وأمه جميعاً.. رغم أن حياة أبويه المضطربة قد جرت على طفولته تجوالاً لا يستقر من باريس إلى بوردو، ومن بوردو إلى سجوفيا، ومن سجوفيا إلى مدريد، ثم عود من مدريد إلى باريس.

وكان من أثر هذا التجول أن جاءت تربية فيكتور الصغير تربية مهوشة.. فقد أصاب معلومات من هنا ومن هناك يعوض تشعبها ما يشوبها من سطحية.

قال صديق لأمه (هذا الطفل يعرف القليل عن كل شيء) فأجابت أمه (نعم يعرف القليل القيم عن كل شيء).

وهكذا جعل ينتقل من مدرسة إلى مدرسة. يستاف عجلاً رحيق هذه الزهرة ورحيق تلك.. حتى وصل في عامه الثالث عشر إلى كشف عظيم هو شعر فرجيل فترجم الأنشودة الأولى لفرجيل وكوفى على ذلك بضرب صبه عليه مدرس له فقد فرغ ديكوت لتوه من ترجمة نفس الأنشودة التي ترجمها هيجو فكيف يجرو هذا المبتدئ الصغير على منافسته. فجفف فيكتور عينيه.. ومضى لشأنه. فنظم أغنية في مسابقة مدرسية.. لم يكن ديكوت من المحكمين فيها فنال الجائزة الأولى وكتب ملحمة وتمثيلية وقصة فشراف بتلقيه الطفل الأسمى.

وبرهن الطفل الأسمى على أنه قد نضج قبل أوانه، لا في الأدب وحده، بل في الحب أيضاً، فهو في سن السابعة عشرة يخطف فتاة في السادسة عشرة هي: (اديل فوشير) "أتذكرين يا أديل؟ لقد كنا في السادس والعشرين من إبريل ١٨١٩، حين جلست عند قدميك ذات مساء. فطلبت مني أن أفضي إليك بسرري الأعظم، فاعترفت مرتعشاً بأني أحبك، فلما سمعت جوابك يا اديل العزيرة وجدت في نفسي أسداً جسوراً".

وتزوجا بعد عامين فما أجهما من زوجين. هذه الفتاة ذات العينين السوداوين

الجريئتين والبسمة الشقية، وهذا الفتى بقم الشاعر وجبين الجندي. وما أمتعها من حفلة زفاف! كانت مناسبة فاضت بالعسل، واللبن، والزهر، والفاكهة، والضحك والحب!.

غير أن الحفلة قد ترددت فيها نغمة ناشر واحدة، فقد اقتحم الحفل رجل يحمل فأساً. وسار صوب العريس لا يلوى على شيء، واستطاعوا أن يحولوا بينه وبين ما يريد. يا له من مجنون، أنه أوجين أخو فكتور الأكبر أصابه من الغيرة مس... فقد كان هو أيضاً يبغي الزواج من (أديل).

وكان المشهد العاصف ليلة الزفاف مقدمة حياة عاصفة لفكتور، فصارت الريح تمب عليه تارة بالسرور وتارة بالأسى في عدل واستواء، فهو يكتب ديوان شعر ناجح وتمثيلية ناجحة، ويحظى بإعجاب الجمهور وثناء النقاد، ويمنح شريط الليجيون دونير، ويولد له طفل لا يلبث أن يموت وتموت أمه.

وتتكشف له خيانة من صديق كان أعز عليه من أصدقائه جميعاً. ذلك هو الناقد سانت بيغ الذي انقلب عليه.. إذ حاول مع زوجته أمراً لم تقره عليه.. كانت هذه الفكرة المرة تملأ شعاف قلبه حين حضر افتتاح مسرحيته (ارناني) وكان عرضها حدثاً عظيماً. فقد كتب لتمثيلية "هيجو" هذه التي تحررت من التقاليد، أن تكون فاتحة الجهاد بين الابتداعيين والإتباعيين بين نار الجديد ورماد القديم. فقد تحدى هيجو خصمه إلى منازلته إذ يقول "في هذه المسرحية تحطيم أي تحطيم لكل النظريات وفنون العروض والمذاهب إني أمسح عن وجه الجمال ذلك الطلاء العتيق الذي كان يحجبه، فلن تكون قواعد ولا نماذج بعد الآن".

ومثلت المسرحية في ضجة يختلط فيها الاستهزاء والاستحسان. فإذا أسدل ستار الختام، تغلب هتاف الاستحسان. وتطلع النظارة كلهم في حماسة فائقة إلى ملك القصص المتوج الجديد. ولكن هيجو لا يشعر بعاصفة الإعجاب فعيناه معقودتان بالشرفة التي يجلس فيها سانت بيغ ناظراً إلى (أديل) لا يتحول عنها.

وأخف هيجو على سانت بييف في الرجاء، فوعد سانت بييف ألا يرى (أديل) بعدها قط، إلا أنه لا يفي بوعدده. بل يصير على مقابقتها والكتابة إليها.. مخالسة كما حسب، ولكن الأمر لم يفت على هيجو، وحاول هيجو أن يندمج في عمله لينسى أساه. فكتب قصة (نوتردام دي باريس) وقد بدأها في ٤ سبتمبر عام ١٨٣٠ واشتغل فيها متحمساً كالحموم خلال الخريف وأوائل الشتاء، وأتمها في الخامس عشر من يناير. إنها قصة معبد مقدس، هو بناء حجري له روح حية ويقول المؤرخ الفرنسي مشيليت "لقد أقام هيجو إلى جانب الكاتدرائية القديمة، كنيسة نوتردام، كاتدرائية للشعر تعد لها رسوخ قدم وشموخ أبراج".

ثم يختلف عليه تصفيق الإعجاب وعذاب القلب والعمل. ثم يقع في غرام جديد.. مع (الطير الناري) جوليت الممثلة الحسنة التي عثت بحسبها كثير من الرجال، ولكنها تكرس قلبها الآن لرجل واحد. وتظل خمسين عاماً هائمة وهي بفيكتور هيجو.

وظل فيكتور هيجو هائماً ولهان بجوليت لا عن زهادة في حب (أديل). فإن هذا الحب قد بقي ولم يزل.. ولكنه صار أشبه بحب الطفل لأمه منه بحب الزوج زوجته. ولعل (أديل) قنعت بهذا اللون الهادئ من الحب. فقد كان شعورها نحو هيجو.. ونحو سانت بييف، شعوراً أفلاطونياً دائماً لا تملك فيه ولا حيازة. فالحب عندها شمس مائلة فهي تستمتع بدفئها المتحرر قانعة بالبقاء بعيداً عن وهجها العمودي.

وأما غرام هيجو وجوليت، وكانت لا تخلو هي أيضاً من لمحة الشعر، فكان أشبه بلهب قاهر غلاب، فهما لم يعرفا قط ذلك الشعور بالشبع والملاحة من الحب. وظل طوال نصف قرن، بعد ليلتهما الأولى يستجيب لخمير قبلاتهما (إني أقبل جسمك وروحك، أنت الجمال وأنت النور، وإني لأعبدك).

وكانت جوليت معبودة هيجو تلك، طفلة لا اسم لها من أطفال الشعب. كانت لقيطة وهي عند هيجو ترمز إلى كل لقطاع العالم. وكان من أثر حبها إياه أنه تحول تدريجاً من بوربوني إلى برجوازي، ومن ملكي إلى اشتراكي. ويعلن أنه منذ الآن سيصدر في حياته

عن إخلاص مشفق للمنبوذين، فيلسوف يستخدم كل ما أوتي من قوة- كما قال- في الدفاع عن المستضعفين. وظل هذا مبدأه الذي يترسمه حتى آخر أيامه. فهو ينضم إلى صفوف الشعب في ثوري ١٨٣٠، ١٨٤٨ وهو بهذا لا يخاطر بسمعته وحدها بل وبحياته نفسها. فهو في ثورة ١٨٤٨ يحارب فوق المتاريس (لقد قتلني الإجهاد فقد قضيت ثلاثة أيام ولياليها يقظان في وسط المعمة وليس ثمة فراش، ولا طعام ولا شراب غير النزر اليسير، وليس من طريق للراحة غير الجلوس على الرصيف لحظة بين الحين والحين).

وبينما هو خارج منزله قائم عند المتاريس، إذ هاجم منزله من يدافع عنهم من الناس، وجعلوا ينتقلون من حجرة إلى حجرة، يحطمون ويمزقون ويكسرون، حتى بلغوا حجرة مكتب فيكتور هيجو، فأروا شيئاً على مكتب عالٍ قرب الشباك، إذ كان هيجو يكتب دائماً وهو واقف، رأى المهيجون عدداً من الأوراق مبعثرة.. وكان زعيم المهيجين مدرساً سابقاً يدعى (جويز) فألقى نظره على الأوراق، إنها بداية قصة. ثم نظر إلى صحيفة العنوان.. ليس اسمها شيئاً، فسأل أحد رفاقه ما اسم القصة؟ (البؤساء).

-٥-

بدأ هيجو كتابة (البؤساء) في باريس، وأتمها في (جرنسي) وهي الجزيرة التي نفي إليها لمناهضته طغيان نابليون الثالث. وظلت عاصفة أقداره تلاحقه، فجعلت الحياة والموت يتبادلانه ضمناً ولكماً، فهو يختار للأكاديمية، وتغرق ابنته (ليبولدين) عند مصب نهر السين، ويعترف به شاعر فرنسا، وتموت له ابنة أخرى قبل الأوان، ويحج إلى مزار جزيرة القديس، ثم يصيبه غرام تعس يتبعه جنون ابنته الثالثة. هكذا جرت الأحداث التي حفت بتأليف (البؤساء).

فإذا كتب ملحمة الأسى البشري هذه، ربت الله على كنفه وأحال بصره من الأرض إلى السماء (لقد دعيتي الأرض شاعراً.. فجاءتني السماء بل نبياً). فهو من خلال شقائه قد صار نبي الألم (لقد واجهت رهبة الموت.. فوجدت فيما يليها زهرة الحياة.. زهرة الحياة

أمل من لا أمل له، إنجيل المتواضعين المستضعفين. عطف الله وحده على كل مخلوق معذب).

هذا هو موضوع (البؤساء) إحالة العذاب رحمة، وإحالة الرحمة حباً. وكان كتاباً ثائراً صاخباً عطوفاً. استشرى في العالم ناراً جائحة، فقد حاصر الباريسيون مكتبة (بانير) في السادسة صباحاً من يوم نشره، وما هي إلا بضع ساعات حتى كانوا قد مضوا بخمسين ألفاً من نسخ الكتاب، وهتف بفكتور هيجو الذي أسر وحده على صخرة (جرنسي) المواطن الأول للعالم، وتلقى المواطن الأول أمجاده في اعتداد متواضع.

وأخذت سنة تصغر كلما مرت السنون (فتحت شعري الأبيض يعيش حب ربيع الحياة فالنور لا يعرف الشيخوخة). لقد صار من الجبارة في الاحتمال الجسمي والعقلي فهو يستيقظ عند الفجر ويندفع في البحر. ثم ها هو ذا واقف قبل شروق الشمس أمام مكتبه. ويصيب قدراً من الراحة بعد الظهر مع أقلام الرسم، فهو يحب النقش قدر ما يحب الأدب. ثم يسير في نزهة طويلة على شاطئ البحر ليستمتع بالشمس ورشاش الماء الذي تذرره الرياح.

وهو لا يستخدم قط عصا يستعين بها في مسيره فوق الصخر، ولا مطلة تطله من المطر. فهو لا يخشى الحر أو البرد (أي خالد لا أموت ولا يستطيع شيء إيدائي..). وكان أكالاً أكياً. فهو يجهز على عدة صحاف من اللحم في جلسة واحدة. وقد مرت به أيام كان لا يرد جوعه دجاجتان.

نم في أكله، نم في تفكيره، نم في قبوله أحزان الحياة ومسراتها على الحزن إلا مقدمة السرور ولو أننا درنا آذاننا على استماع سمفونية الحياة لتبين لنا أنها تنتهي بنغم جميل.

واجه في هذا الاطمئنان المطلق موت اثنين من بنيه وموت زوجته (أديل) وفي هذا الاطمئنان واجه الغزو الألماني لفرنسا عام ١٨٧٠ وكان حينذاك قد عاد من منفاه بجنوسي (كل امرئ إلى الجبهة أيها المواطنون لتنهض المدن عن بكرة أبيها. ولتشعل النار

في كل الحقول. المدن المدن المدن. أنشئوا غابات من الحراب. ضاعفوا من رماحكم وأعدوا مدافعكم. وأنت أيتها القرية ارفعي مشعلك على كل رجل غنياً كان أو فقيراً عاملاً كان أو فلاحاً أو كاتباً أن يحضر معه أو يلتقط من الأرض كل ما يشبه السلاح أو القذيفة. جروا الصخور وكوموا أحجار الرصف. أحيوا الأخاديد إلى خنادق. اقتلعوا الأحجار من أرضنا المقدسة اقدفوا الغزاة بعظام أمنا فرنسا).

ثم ينبعث من عينه ضوء ينبئ بالمستقبل (لا تخشوا هزيمة اليوم بل كونوا قلباً واحداً ويداً واحدة تعمل لهدف واحد هو النصر في النهاية).

وبهذا الإيمان نفسه. الإيمان بنبالة الأسي البشري. وتوجيه الكد البشري إلى هدف محدد كتب قصة من خير قصصه عنوانها (الكادحون في البحر) وهذا موجز لها غير واف:

تشأ صداقة بين (ليتيري) عم دروشت الساحرة وولي أمرها وبين المغامر (رانتين) ويرد رنتين على مودة ليتيري بأن يسرق منه ٥٠.٠٠٠ فرنك، وكان هذا المبلغ هو كل ما ادخره ليتيري طيلة أربعين عاماً وكان مخصصاً ليكون صداق (درشت). وتصير دروشيت وقد صار يتبعدها فتى في صمت. ذلك هو جيليات وهو شاب لا ريب في شجاعته، وإن حفت بميلاده الريب. وكان يتبعدها على البعد، ولكنه يشعر أنه أهون من أن يفتأحها بحبه.

وينفذ جيليات قسيساً من الغرق ذات يوم، فيهبه القسيس جنبهاً، فيرفض جيليات ويقبل الإنجيل حين يعرضه عليه، فينشأ موقف طريف، فتاة حسناء صداقها قد سرق، شاب ذو مركز وضع يجب الفتاة حب المستئيس، وشاب آخر أرفع مكاناً وأرقى تعليماً. هذا هو الثالث الذي لا مفر منه، لكن فلنمض في سبيلنا لنرى كيف يمضي المؤلف في تنمية موضوعه وكيف يحكم الوشائج بين مصائر هؤلاء الشبان الثلاثة ومصائر غيرهم من الناس.

وكان لليتيري عم (دروشت) زورق بخاري يدعى الدوراند يقوده الريان كليبان وكان ليتيري قد فقد كل سفنه الأخرى وانحصرت كل آماله في الدوراند وربانها، وكان الريان رجلاً أميناً يستحق ثقة سيده فيه، قابل في إحدى رحلاته المحتمل رانتين الذي سرق مال

ليتري والذي كان على وشك الفرار من البلاد بثروة تقدر بخمسة وسبعين ألف فرنك، فيضطره وقد شهر عليه الغدارة إلى أن يسلمه المال ثم يقلع إلى ليتري ليعيد المال إليه.

وهنا يزيد المؤلف في تعقيد القصة ليطيل خيوطها فتتحطم البخرة دوراند فيرسل كليان ركابها إلى الشاطئ في القارب الطويل وينتظر الموت في هدوء فوق السفينة الغارقة. لقد كادت تتحطم الآمال التي وضعها ليتري على مستقبل دروشت فقد خسر الدوراند ولم يبق منها شيء عدا الآلات التي كان ليتري نفسه قد رسم تصميمها. ولو أنه أستطاع فقط أن يستعيد الآلات إذن لأمكنه بناء سفينة أخرى حولها وقد تعود الحياة سيرتها، فهل من أحد يستطيع إلى الآلات سبيلاً؟

لو أستطاع ذلك أي رجل فله يد دروشت. فينيري أحد الناس لهذا العمل الذي يكاد يستحيل نجاحه. ذلك الرجل هو (جيليات). فيهرع إلى حطام السفينة. وكان تحت هوة في القناة. وكان بلوغه يستلزم النزول تسليقاً على جبل معقد وكان عملاً فوق طاقة البشر أداة في جسارة بالغة. وجعل يكذب يوماً بعد يوم ويتحمل الجوع، إذ قد أطاح البحر بجزء من قوته الذي أحضره معه. فهو يعيش على الأصداف والسلطعون (ضرب من النبات) حيثما أستطاع استخراجهما.

وذات مرة كان يخوض ماء ضحلاً في أحد الكهوف فهاجمته سمكة ضخمة. غير أنه نجا بأعجوبة.

وهكذا يظل جيليات كادحاً كأنه رمز لكل أولئك الادميين الكادحين الذين يجهدون ويشقون ويأملون أن يفضي بهم جهادهم إلى مرفأ الأحلام.

ثم يشرع المؤلف يعدنا لقمة الحوادث. فيأخذ جيليات إلى مسارب الكهف النائبة فيعثر على هيكل لعظام رجل. ويستطيع جيليات أن يتعرف على صاحب الهيكل بفضل منطقة تحمل اسمه. فهو هيكل ربان السفينة، كليان. وكان قد ربط في المنطقة ربطاً محكماً صندوق حديدي به خمسة وسبعون ألف فرنك فيأخذ جيليات المال ويعود كادحاً. ستأخذ دروشت صداقها ويأخذ ليتري آلاته ويستطيع جيليات آخر الأمر أن ينقذ

الآلات ويستعد للمكافأة التي وعد، وهي يد دروشيت.

يقترّب في المساء من المنزل الذي تقطنه الحسنة فيسمع بلبلاً يعني. وكانت أغنية تصدح في قلبه كذلك. كانت دروشيت في الحديقة لكنها لم تكن وحدها فإن معها القسيس الشاب الذي أنقذ جيليات حياته وكانت دروشيت والقسيس يتعانقان. فينكص جيليات على عقبه ويتركهما لهواهما. وتتزوج دروشيت من حبيبها ويبحران إلى إنجلترا فيقف جيليات يرقب السفينة على صخرة تقع على حافة الماء فيرتفع المد ويصل إلى ركبته ثم فوق رأسه. وهكذا تنتهي حياة أحد الكادحين في البحر.

لكنه قد نال مكافأته. فهو إلا يكن قد كسب يد دروشيت، فقد كسب ما هو أهم من هذا بكثير، وهو سعادة دروشيت.

- ٥ -

نحن في العيد الثمانين لميلاد هيجو. فنسمع أحد أصدقائه ينادي "زهور لابد من الزهور" ونرى الطريق المرح الذي يمتد بين نيس وباريس وقد حفت بجانيبه أحمال عربات وقطارات من الزهر، وطغى الزهر على منزله حتى طمره فعلاً، ويرى خمسون ألف طفل، هم أزهار حية جميلة. يغنون ويرقصون تمجيداً للجد هيجو. ويمشي في طرقات باريس نصف مليون من العمال يرددون النشيد المفضل عند هيجو (المارسييز).

وأعقت ذروة نصره هوة أساه، فما كاد يحتفل بعيدة الثمانين حتى ماتت أعز صاحباته (جوليت) "إنك أن مت فإني مقيم على حبك" كذلك كتب إليها قبيل النهاية "ولو أنني مت لأقمت على حبك برغم ذلك.. هل مت.. إذن ينبغي أن أموت..". وموت جوليت انتهت معيشة هيجو على الأرض، وأخذ يتوق إلى حياة وراءها أعظم منها، ولم يكن يخامر أدنى شك في عظمة تلك الحياة.

"قلو أي موشك على سحق نملة، فرأيتها قد ضمت كفيها البائستين في ضراعة لتزفتت بما. فلماذا لا يرحمني الله إذن. إني لأتوسل إليه أن يهب النعيم المقيم لك.. ولي.. وللجميع..".

"ولم يكن هيجو وحيداً مع أنه فقد حبيبته، وحليلته، وأبناءه جميعاً عدا واحدة هي اديل التي كانت مصابة بجنون لا براء منه فقد كان يعيش بين أحفاده كان أشبه بشجرة البلوط يحيط بها نطاق من شجيرات صلبة. فإذا أوشك على تلقي دعوته إلى السماء قال لهم "يا ملائكتي الظرفاء إني راحل عنكم، فأنا أشعر أن الله يناديني فأنا أذهب لأرى ثانية صغاري الآخرين الذين في السماء إنكم لن تروني ثانية، لكن سأكون معكم دائماً، قريباً إليكم، أقرب إليكم مما أنا الآن، وسأبارككم كما أفعل الآن".

ومات في ٢ مايو وهو يوم سانت جوليا، يوم يحمل اسم جوليت، وكان أصدقاؤه يتوقعون أن يدفن في حفل رسمي غير أنهم لم يدهشوا حين سمعوا رجاءه الأخير.

(أريد أن أمنح ٥٠.٠٠٠ فرنك للفقراء.. وأريد أن أحمل إلى القبر في عربة الفقراء) وكتب في نهاية هذا الرجاء عبارة بسيطة تعبر عن إيمانه (إني أرفض الصلوات التي تؤدي في كل الكنائس فأني أؤمن بالله)

أهم مؤلفات هيجو

Marion Delorme
Les Le Roi S'amuse
Ruy Blas Les Burgraves
Hernani

Notre-Dame de Paris
Les Misérable
Travailleurs de la Mer

وعدد كبير من قصائد الشعر المسرحي والغنائي

جوستاف فلوبيير

١٨٢١ - ١٨٨٠

في عام ١٨٤٠ أقبل إلى باريس لتعلم القانون شاب غريب فيه حياء، وفيه فظاظة، فيه وسامة وفيه إهمال، فيه كبرياء وفيه حساسية وسلطنة، هو في عامه الثامن عشر يبدو كأنه أفريقي في قميص من الفانلة الحمراء ومعطف أزرق، وهو صموت، فإذا فتح فاه حلت أن لسانه كان منقوعاً في برميل من الخل، فهو يبدي احتقاراً للتقاليد، ويرى حماقة البالغة في كل الناس بما فيهم هو، "إن أول جاهل يقع عليه بصري هو أنا إذا ذهبت إلى المرأة في الصباح لأحلق"، ويردف قائلاً: "وآخر من أرى من الجهال هو أي شخص يتفق لي أن أحدثه قبل أن آوى إلى مخدعي".

من ذلك الشاب العجيب؟ إن بالطلاب فضولاً إلى معرفة من يكون.

إنه فلوبيير، جوستاف فلوبيير، ابن كبير الجراحين بمستشفى روان، ولقد قال أحد الطلاب لفلوبيير سائلاً (لا شك في أنه مما يفيض على نفسك السعادة الفائقة أنك ابن رجل عظيم ذائع الشهرة).

وأي سعادة في ذلك؟

(كيف! فكر في كل هذه الأرواح التي ينقذها) فأجاب فلوبيير في تمكهم.

(إن أبي ينقذ الأغبياء صوتاً لما يأتون من حماقات).

- ٢ -

كان غريب الأطوار منذ نشأته الأولى، فهو دائم الاهتمام بالجانب الأريد الكتيب من الحياة، فهو يتسلق إبان طفولته جدار مستشفى أبيه، ليشهد الجثث في قاعة العمليات، وكان مفتوناً بوجه خاص بالمجانين والمعتوهين، وكان يتوهم أن المجانين والمعتوهين يبادلونه الافتتان. وكان دقيق الملاحظة بطبعه فما كاد يتعلم الكتابة حتى بدأ يقيد لمحات

عن الناس. وشب ابن مشرح الجسوم البشرية مشرحاً للأرواح البشرية. فهو منذ صغره يؤلف التمثيليات ويمثلها مع أخته على مسرح منزلي هو مائدة الطعام، ولم يقنع بمسرحياته فكتب قصة ومقالين علميين أحدهما عن كورني والأخر عن الإمساك، كتب كل هذا قبل أن يصل إلى الحلقة الثانية من حياته.

لكن كان عليه أن يستخفى من أبيه حين يكتب.. لأن دكتور فلوير كان لا يقبل بتاتاً أن يحترف ابنة الأدب. وحين حاول جوستاف أن يقرئه إحدى روايته أدركه النوم. فهو يتوق إلى أن يجعل من جوستاف جراحاً ماهراً مثله ومثل أشيل (أخي جوستاف) فنحن آل فلوير أسرة محترمة ولا نحب أن يكون بيننا أفاقون ولا شعراء. ولذا أرسل جوستاف إلى مدرسة محترمة وظل ثماني سنوات يحلم ويرقب ويكتب ويهزأ برفاقه الطلبة ويصاحبهم، لأنه في قرارته روح وديع، شأن معظم قساة الساخرين، فإذا كان عامه الثامن عشر أخبر أباه في بساطة أنه لن يكون طبيباً.

وكان أبوه مستعداً لأن يتساهل معه "إذا لم تشأ أن تكون طبيباً فلتكن محامياً، وأرسله إلى باريس ليدرس القانون.

ولكن جوستاف كان عنيداً "إني بربري عندي عناد البرابرة"، وحب البرابرة للمغامرة "إني من نسل قراصنة صقليين"، فسيغدو قرصاناً روحياً أفاقاً باحثاً عن ذهب العبارة الرائعة "إني لأنوي أن أكون أديباً لا شيء غير ذلك" ...

فبيس منه أبوه كما ييأس من حالة مرضية لا رجاء فيها، وتنفس جوستاف الصعداء. فهجر كتب القانون والتفت إلى دون كشوط "إنجيل الحماقة البشرية"، وصار هذا الكتاب المصدر الأول لفلسفة فلوير والمبدأ الرئيسي الذي يؤمن به "ليست كارثة البشر أنهم أوغاد، بل أنهم حمقى".

وكتب بهذه الفلسفة عدداً من المسرحيات والقصص تتناول نواحي الحياة الردياء القاتمة، منها قصة رجل فقد روحه تماماً، ومأساة مذهبول يدفن حياً ويموت مجدداً بالقدر، ومغامرات مخلوق أمه من الآدميين وأبوه من النسانيس، وقصص عجيبة فجأة كتبها لجرد

إمتاع نفسه وإمتاع أصدقائه.

وكان أصدقاء فلوير هؤلاء أكثر منه تشاؤماً. "وكنا مجموعة من الشباب الماذرين نحيا في عالم عجيب. ونضرب في طريقنا المألوف بين الجنون والموت".

وقد انتحر بعض هؤلاء الشباب، ومات آخرون في فراشهم، وشق أحدهم نفسه برباط عنقه، وأقبل كثير منهم على الشراب ابتغاء الخلاص من أفكارهم.

ولكن فلوير يستطيع الاحتفاظ بتوازنه، فلا يجن ولا ينتحر، وكان الفضل في ذلك لثلاثة من أصدقائه التقليديين، أرنست شيفالير، والفرد ليورتفين وماكسين كامب.

وبينما كان لجوستاف اهتمام متشائم بالأدب والموت كان هؤلاء الشبان الثلاثة اهتمام مخلص بالأدب والحياة، وكان شيفالير يجمع في شخصه بين الشاعر والسياسي. إذ كان رجلاً رأسه في السحب وقدماه على الأرض. وكان ليورتفين ابناً لتاجر ناجح، وقدرته شخصياً أن ينجح في أعماله. ولعل من الطريف أن تعلم أن ليورتفين خال موباسان.

وأما دي كامب محرر مجلة باريس فقد نصب نفسه مرشداً لفلوير وهادياً، لا في مضارب الخيال وحدها، بل وفي مسالك العالم أيضاً.

فأخرج فلوير من عزلته وأغراه بمقابلة الناس واستصحبه في رحلته إلى المشرق عام ١٨٤٩.

وكانت هذه الرحلة إلى المشرق من الفصول الممتعة في حياة فلوير (لن أنسى قط تلك التجربة.. هذه الألوان والأصوات التي سمعتها في مصر وعلى ضفاف النيل، وفي سوريا، وفلسطين، ومالطة والقسطنطينية) وفتن بالأهرام افتناناً خاصاً (حين بلغنا سفح التل الذي تقوم عليه هذه الأهرام أطلقت حصاني كالإعصار. وفعل دي كامب مثل فعلي، فلما وقع بصري على هذه العظمة دار محي كما تدور الدوامة، وكنا وقت الغروب وقد تبدت الأهرام الثلاثة كلها في لون وردي وكأنها غرقى في بحر من الضياء).

ثلاثة أهرامات وثلاثة أصدقاء وعشيقة واحدة. وكان قد لقي لويز كولت، وهي الفتاة التي عشقها، في معرض الفنان برادير. وكانت شاعرة هزيلة المهوبة جلييلة الحسن.

ولم يتحمس كثير من أعلام الأدب في باريس لجمال شعرها، ولكن شعر جمالها يلهبهم ويأسر قلوبهم. وكان فكتور هيجو محزوناً لبت زراعي فينوس ميلو فذكرت له لويز أن ذراعي التمثال الشهير قد عثر عليها.

فسأها هيجو دهشاً أحقاً عثر عليهما؟ أين هما؟ فأجابت "تحت كمي".

لقي فلوير الخجول هذه الحظية الشابة الجريئة فأسلم إليها قلبه وعقله وقدرته كلها على التمييز بين الأشياء. "إنها ليست أجمل نساء باريس وحسب بل هي أذكاهن كذلك" كذلك قال في عمى العاشق وغفلته.

لكنه لم يبن بما قط، لسبب واحد هو أن أمه كانت قد رفضت مثل هذه الزيجة فأبوه كان قد مات، ويقيم فلوير الآن مع أمه في (كرواسي) على مقربة من روان، وكانت مدام فلوير سيده ضئيلة عصبية المزاج تحب ابنها حباً أثراً (فلن تشركني فيه امرأة أخرى، ولو كانت من ملائكة الجنة)، ولكن فلوير كان يبغض الزواج هو أيضاً. فهو لا يرضن بأي غالٍ لديه إلا أن تستأثر بجسمه امرأة. فجسمه ذاك ليس غير خيال نفسه، فهو كان يعيش في عالم الأفكار لا عالم الأشياء وهو القائل (لم يحدث قط أي احتضنت امرأة حقاً، ولا لويز نفسها وكل ما انضمت عليه ذراعي إنما كان خيال الحب وليس الحب نفسه).

ومع ذلك فقد كان خيال الحب ذاك من القوة بحيث أثر في طريق حياته كلها. فهو يوجد أسلوبه الأدبي بإلهام لويز ويقدم على كتابة سلسلة من القصص قدر لها أن تقفز به إلى الصف الأول من بين الخلاقين في أدب العالم.

ومع ذلك فإن وحي الحب وإخلاص الصداقة لم يكونا غير أخيلة عابرة في عالم أفكاره... ذلك أن فلوير رجل متوحد أساساً، يحيا مع أفكاره في خلوة. فهو يقطع ما بينه وبين لويز وما بينه وبين أصدقائه الثلاثة. وينسحب إلى خميلة عبقريته. وكان سليط اللسان سليط القلم. فإذا تقدم إليه دي كامب بنصيحة عملية بشأن نشر كتبه حمل النصيحة

على محمل الإهانة (إني لا ألوئك على نشر تواليفك. وأشكرك على النية الطيبة التي صدرت عنها نصيحتك في شأن نشر تواليقي).

ولكن جنونك بيعني على الضحك، لقد اختلفت المسالك بك وبي فنحن لا نبحر في قارب واحد. فليهد الله كلامنا إلى حيث شاء. فيحملك إلى مرفأ أمين ويقذف بي في عرض البحر).

وهكذا ترك صحابه وخلصاه وعشيقته، ووجه قاربه نحو منفسح البحر الطليق. بحر حياة أدبية عنيفة لا تهدأ.

- ٣ -

كان فلوير في أدبه مزيجاً نادراً من الكاتب الخيالي والواقعي، فهو يقول عن نفسه: إني لأنطوي على رجلين متميزين، أحدهما يحب الضوضاء والإنشاد والتخليق كما تعلق النسور، ويحتفل برنين الديباجة وذرى الفكر السامقة. والآخر يبحث عن الواقع ويوغل فيه أعمق ما يستطيع، ويحفل باستخراج الحقائق الصغيرة كما يجب استخراج الحقائق الكبيرة، ويتمنى لو يضع يدك على ما يخرج من الأشياء هذا الشخص ينعم بالضحك ويستمتع بحوانية الإنسان.

كان فلوير طوال حياته يتأرجح بين عالمي الخيال والواقع. كان أحياناً يخلق إلى ذرى الخيال وأحياناً أخرى يسف حتى يوغل في وحل الوجود المادي.

ومهما يكن العالم الذي يتفق له أن يعيش فيه الآن، فإنه يتوق أبداً إلى العيش في عالم آخر. فهو لا يتحدث قط عن الكتاب الذي يؤلف، بل هو دائماً يتحدث عن الكتاب الذي سوف يؤلفه بعد هذا، فكانت سلسلة مؤلفاته لذلك تعاقباً متصلاً مطرداً بين الواقعي والخيالي: مدام بوفاري. التربية العاطفية إغراء سانت آنتوني. بوفارو بكيشيه. ولم يكن هذا التعاقب مجرد اتفاق، بل جاء نتيجة صراع داخلي دائم بين الفنان والعالم، الشاعر والساحر القاسي، مواسي البشرية ومزديبها.

لكنه كان دائماً فيما يكتب الفنان السامق، وهو يهتم باللفظ أول ما يهتم. فاللفظ

عند فلوير ليس مجرد أداة للفكر، بل هو وحدة حية لها صوت وعبير شخصية وروح. وكان يصقل صفحاته ويعيد صقلها، وكان كثيراً ما يهب يوماً بأكمله لينقح عبارة واحدة، حتى يستحيل مجموع الكلمات على هذه الصفحات وحدة غناء كاملة، فهو يتجنب ما أمكن تكرار لفظ بعينه في نفس الصفحة، "إن من الخطأ إيذاء أذن القارئ كما أنه من الخطأ إيذاء قلبه".

لكنه لا يكاد يحترم عقل قرائه، فالعقل البشري غبي أتعس غباء، وكان هذا الدرك من الغباء البشري ينفره ويستهو به في آن معاً، فهو يدرسه كما يدرس طبيب مخلص مرضاً كريهاً لعله يستطيع علاجه بعد أن يتبين سببه. فإذا قيل: أن "آرنست رينان" كان أبداً يحاول أن يجدي شيئاً من الحكمة حتى في الأحمق فإن جوستاف فلوير كان يحاول أبداً أن يكشف شيئاً من الحمافة حتى في الحكيم، ولكن الطبيب في فلوير هو الذي يجب أن يتعمق الشخصية الآدمية، مصراً على إجراء كشف طبي ففري كامل، لكي يكشف عن المرض ويستأصله فور ظهوره.

وفي جهوده للكشف عن المرض واستئصاله، مرض الحسة الرأسية، تفكر وكتب أعظم قصصه، مدام بوفاري، وكانت هذه القصة قصة روح خاطئة مثلها مثل فاوست جيته. ولكن إذا كان بطل جيته الأخرق يهتدى بغريزته إلى الطريق الصحيح الأوحده. فإن بطلة فلوير المتدبرة تضللها غريزتها وتغريها بالطريق الخاطئ الأوحده. طريق الابتعاد عن الملل والسعي إلى الموت عن طريق الإسراف على النفس.

فقصة (اما بوفاري) هي صورة واقعية لروح خياليه. كانت (اما) - ابنة فلاح رحيم شهواني مرح مثقل بالخيلاء بعيد عن الدين. فربيت منذ طفولتها الأولى تربية أغرقتها بالعيش وراء الآفق "ففاكهة الحقل التالي ... أحلى دائماً في خيالها من فاكهة حقلها".

وقد نشأت في دير. فطعمت غزلاً مرهفاً من تلك الأساطير الدينية التي كان يسمح لها بمطالعتها أيام الأحد من باب التسرية، وعادت من الدير إلى المزرعة فوجدت نفسها مرة أخرى في وسط بيئتها الدميمة وأحلامها الجميلة، فهي تتوق إلى هجران أصوات

الحظائر والحقول ومناظرها وروائعها. تريد لترحل من هنا إلى مكان آخر، تتوق لأن ترى أحداً يبسر لها هذه الرحلة، فيظهر في حياتها شاب، شارل بوفاري، وهو ليس حسناً ولا سيئاً، ولا ماهراً ولا غيبياً. هو مجرد رجل عادي مغمور لا طرافة فيه، لكنه في نظر (أما) فارس الأحلام الذي سينقذها من سأمها.. فتتزوج، ولكن ما هي إلا لحظة بعد الزواج حتى تعود إلى أحلامها القلقة لأن بوفاري يمثل هذا المكان العادي، و(أما) دائمة الحنين إلى المكان الآخر الرائع.

وهذا رجل آخر قد أقبل لينقذها يسمى (ليون) وكان شاباً رقيقاً خيالياً. قضت معه لحظة قصيرة من السعادة الفائقة، وأصابت معه نظرة مختلصة إلى السماء فيما وراء الأفق.. ثم تركها..

فيعود إليها الواقع من جديد أثقل وأكأب وأخنق للأنفاس مما كان. وتمضي الأيام متناقلة كأنما أقدامها قد شددت بأثقال من الرصاص، حتى أحلامها قد صارت الآن مثقلة بملاحة متصلة.

ثم يأتي العاشق الجديد فتلقى بنفسها بين أحضانه أشد ما يكون التهالك، إنها تدخل إلى شيء ساحر، كل شيء فيه عاطفة ونشوة وهذيان تحوطها مساحة شاسعة من الزرقة، ويرف في أفكارها رائع الخيال. وأما الوجود العادي فيبدو بعيداً مسفياً في الظلال التي بين هذه القمم، وتمضي حليماً جديداً مع عاشقها الجديد (رودلف) فيسافران معاً في الخيال إلى بقاع نائية إلى إسبانيا بغيثاراتها، وإيطاليا بسمائها الزرقاء، والشرق بماذنه وأسواقه لكن هذا الحلم أيضاً سرعان ما يتبدد. إذ ينشأ بينها وبين رودلف شجار ثم تركن (أما) إلى الحقائق التي تقع قريباً من هوة اليأس. إن عالمها الحقيقي لا يحتمل، وعالمها الخيالي، قد تحطم، ولم يبق غير شيء واحد هو النسيان. فتتلمس هذا النسيان في حمى انفعال شهواني. فتقابل (ليون) مرة أخرى وتلقى بنفسها بين أحضانه، لا بوصفها عاشقة هذه المرة، بل بوصفها محظية.

فهي تحلم الآن: لا بأن تفر من الواقع، بل بأن تفر من نفسها.

وهكذا تسقط من هوة إلى هوة من (ليون) إلى عازف أوبرا. من عازف الأوبرا إلى كاتب عقود. ثم توقفت حتى عن الأحلام، لقد أصبحت حياتها فراراً مختلطاً يائساً مفرعاً. ثم كان الاختيار الأخير بين السجن والقبر. واختارت (أما) القبر لأن الحمأة ليست إلا نكسة إلى الواقع، أما الموت فهو الرحلة المخيفة المرجوة وراء الأفق، الرحلة العظمى الأخيرة إلى أرض الخيال.

لقد ظلت (أما بوفاري) خيالية حتى النهاية.

- ٤ -

لما نشر فلوير قصة (مدام بوفاري) نعى عليه النقاد، ووصفوه بأنه خطر على الأخلاق، فقبضت عليه الحكومة الفرنسية بتهمة التمكين للأدب الخليع من التسلسل إلى الجمهور. وبعد محاكمة عاصفة حكم براءته ولكن ذلك لم ينجه من توبيخ شفوي توجه به إليه رئيس الجلسة، وكان على جمهور الفرنسيين أن يقنعوا كلاً من النقاد والحكومة أن مدام بوفاري صورة صادقة للحياة. وأنها في أمانتها مع الحق ليست أكثر بذاءة من وصف صادق لكتلة من كتل الجليد الهاوية. وكان فلوير لا يحفل بعواصف القدر ولا زوابع المدح. كان يجلس كما يجلس راهب معتصم في منزله، ويسخر بالعالم ويمتعه على التعاقب، ليصير إلى حالة عقلية خير من حاله. إني ساخر متهمكم لا شك في ذلك، ولكن السخرية هي الملح الذي يمكن البشر من أن يستمرئ تفاهة الحياة.

كان فلوير أشد رجل في أوربا عزلة، كما يصفه أصدقاؤه، كان ينفق الجزء الأكبر من السنة في (كرو است) لا يذهب إلى باريس إلا لماماً، ليتحدث إلى جورج ساند، أو يتعشى مع فيكتور هيجو، وقلة من أرواح توائمه.

كان ضخم الجثة، له شارب قرصان، وعينا طفل، ومع أنه كان يجب لقاء زملائه إذا عرضت فقد كان يفضل الوحدة على الاتصال بهم، وكان يقطن منزلاً طويلاً واطناً يقع على السين، وكان لحجرة مكتبه خمس نوافذ "فحيثما أنقل بصري أرى السماء العالمية".

منزل قديم متين، ورجل عجوز متين، ذو عادات مستقرة متينة، يستيقظ في الساعة

العاشرة بانتظام، فيقرأ خطابه وأوراقه، ويتناول فطوراً خفيفاً في الحادية عشرة، ثم يسير متنزهًا على ضفة النهر، ويعود في منتصف الساعة الواحدة فيجلس للعمل حتى الساعة السابعة، ثم يتناول عشاءه. ويتنزه نزهة قصيرة في الحديقة، ويعود إلى مكتبه ليقضي في العمل فترة أخرى تستمر حتى بعد منتصف الليل.

إنه يكاد يعيش بكلبته بين كتبه "يا له من رجل عجوز خشن، يبغض بني الإنسان" كذلك كان يقول عنه جيرانه، لكنهم لم يعرفوا إن هذا المبغض لبني جنسه، قد ضحى بمعظم ثروته لبعض أقاربه الأبعدين الذين كانوا أوحج إليه منه.

وهكذا عاش وحيداً يبذل هباته لا ينتظر عليها شكراً، ويكتب قصصه لا يبغى منها شهرة. إنك إذا حللت الإنسان وجدت آخر الأمر أنه يحيا في أفكاره. وهذا هو المكان الذي يجد فيه متعته الوحيدة، ويتلقى فيه جزاءه الوحيد. وكان وسط أفكاره هذه يكتب قصته (بوفارو بكوشيه) فأخذ الموت بيمينه، وقاده إلى مشاهد جديدة لتواليف أعظم.

أهم مؤلفات فلوبيير

Madame Bovary

Salambo

Bouvard et Pécuchet

ناثانيال هوثورن

١٨٥٤-١٨٠٤

كانت حياة هوثورن رمزاً شعرياً للخلق، كما كانت مخلوقات هوثورن رمزاً شعرياً للحياة. ولد لقوم يجوبون البحر، فجلس منعزلاً على الشاطئ، يسجل في هدوء ذلك الصراع الأبدي بين الرمل وموج الشاطئ. ولقد يبدو هذا العزوف في نظر أصحاب الشخصيات النشطة إضاعة للوقت ونكوصاً عن مواجهة المشكلات الخطيرة التي تواجه الكبار في العالم. على أن "عبث الأطفال هذا- كما يقول هوثورن- يغدو رائعاً مادام على هذا النطاق الواسع".

وبينما كان الآخرون يحاولون في استماتة أن ينقشوا أسماءهم في الرمال، كان هوثورن يرقب تدافع الأمواج لتعفى على آثارهم. "ارسم الحروف (على الرمال) ضخمة، بحيث تزيد على أن تقاس بخطوتين أو ثلاث. وليكن الحفر عميقاً كي يبقى على الزمن! أن السياسة والحارين والشعراء لم يستنزفوا قواهم لهدف خير من هذا الهدف.

فهل حققوه؟ عليك إذن أن تعود في خلال ساعة أو ساعتين، وأن تبحث عن ذلك الاسم الذي حفر عميقاً. وستجد أن البحر قد عفا عليه، وبينما الزمن نفسه يدفع بموجات العفاء على أسماء السياسة والحارين والشعراء.

أرهف سمعك أنت فإن موج الشاطئ يضحك منك!".

وقد صرف عنايته إلى مراقبة هذه الآثار، وذلك العفاء على المحاولات البشرية، وإلى أن يقدم للتاريخ خصائص تلك الحروف التي نقشت في الرمل قبيل أن تعفو عليها الأمواه.

وكان شديد العناية بنوع آثار حركة المتطهرين المتداعية في أيامه فأدرك كنهها وحفظها من النسيان قبيل أن يحل محلها التفاوض الطروب الذي ساد أيام ما بعد الحرب

وحينما قرر هوثورن أن يكرس نفسه للأدب، كان يعلم أنه قد قضى عليه بحياة الفقر والألم والإهمال. ذلك أن الأدب كان في أمريكا سلعة غير رائجة، بل لقد كان قرض الشعر أيام المنتهرين يعد خطيئة. شأنه في ذلك كشأن لعب الورق أو شرب الخمر أو تقبيل زوجة رجل آخر سواء بسواء.

وكانت أقدم المسرحيات الأمريكية، تتفادى رقابة المنتهرين بأن يطلق عليها تجملاً (محاضرات خلقية). على أن الرقابة كانت قد خفت أيام هوثورن إلى حد ما، وإن بقيت مهنة التأليف من المهن غير المأمونة، غير أن هوثورن كان على استعداد لأن يقوم بالمجازفة. فإنه من قوم مغامرين، فلقد كان آل هوثورن يقودون السفن منذ أجيال خلت. وكان دم البحر يجري في عروقهم وكان الإقدام على المخاطر المجهولة طبيعة ثانية في هذه الأسرة. وفضلاً عن ذلك فإن التعليم الأول لهوثورن قد جعله غير صالح لحياة الأعمال أو المهن. فلقد ربي بحيث صار (رجلاً انطوائياً) إذا استخدمنا تعبير علماء النفس المحدثين. فكان يعيش في عالم تفكيره الخاص.

وقد ولد في بداية القرن (١٨٠٤) وفقد أباه البحار وهو لم يزل طفلاً. فاعتكفت أمه مع ناتانيل وابنتيهما الصغيرتين في منزل منعزل في (سالم)، وهناك اعتزلوا العالم، وكأنما قد أغلقت عليهم سفينة في وسط الأطلنطي. بل كان كل فرد منهم يحيا منعزلاً عن باقي أفراد أسرته.

لقد قضت تلك الراهبة المنتهرة العجيبة على أطفالها بأن يجيوا في هذا الدير الصغير العجيب. فكان كل من الأبناء يأكل ويلعب ويقراً ويتفكر في حجرة خاصة، بحيث اضطر ناتانيل إلى أن يخلق عالماً من الأشخاص الخياليين ليكونوا في صحبته.

وكان بالإضافة إلى ذلك قد أصيب في باكر عمره إصابة بالغة في ساقه، فأقعدته هذه الإصابة سنوات كثيرة عن مشاركة الأطفال الآخرين في اللعب. وإذ كان حساساً بطبيعته.

متأثراً بترمت أمه، فقد كان يقضي النهار بطوله داخل المنزل، فإذا كان الغسق أو الظلام خرج يتجول في الحقول، أو على شاطئ البحر. كان من أثر هذا المسلك أنه عرف الطبيعة في أقطام أمزجتها. فكان طول حياته لا يرى إلا وقد اكتسى حلة غبشاء أو سوداء. وإنما لنجد هذا المزاج واضحاً في كل أسلوبه الأدبي، فكانت لغته ذات حلاوة حزينية وكأنها العالم يغني لينام.

- ٣ -

التحق في عامه السابع عشر بكلية بودوان، وهناك قابل اثنين من الطلبة كان لهما أثر في مستقبل حياته، هما هنري لوجفيلو، وفرانكلن بيرس. ولقد قاسى في حياته الدراسية ذلك الشقاء الذي يلقاه عادة عبقرى أعمق من معلميه فكراً، فحصل على درجات صغيرة. فإذا تخرج عاد إلى (سالم) وأقام يحلم بالحياة كما قال "بدلاً من أن يمينا الحياة".

وكان يكتب القصص ويقرؤها لنفسه ثم يلقي بها في النار. لقد عجز عن أن يكون ممثلاً في مسرحية الحياة، ولم يقنع بأن يظل أحد النظارة، فقرر أن يكون معقلاً شديد الملاحظة. وكان يقرأ إذا كان الصبح، ويكتب إذا كان العصر، ويمشي مسافات طويلة إذا كان الليل. وكان ينظر إلى الأرض المظلمة ويعمرها بالأشكال والعواطف التي تنتمي إلى عصور ماضية وإلى جيله أيضاً.

لقد صار مكتشفاً للسر المكنون، وباحثاً في مجاهل الروح البشرية. فأخذ عظام التاريخ الجافة فكساها لحمًا لا ينتمي إلى هذه الأرض شاحباً ولكنه جميل - ثم يقذف بهذه الأشخاص الهشة في الخطيئة، ويحلل تصرفاتها بقسوة المتطهر وحنان الشاعر. وإنما لنجد هذا الازدواج في عبقريته، وذلك الصراع الدائم بين تقواه ورحمته، حتى في أقدم ما نشر من كتبه وهو مجموعة القصص المسماة (قصص تروى مرتين).

ومن أشد هذه القصص دلالة عليه (عمود مايو بالجبل المرح) وهي قصة شاب وشابة دخلا حصن المتطهرين بنيو انجلند، وفي قلبيهما لوثة من الوثنية الهوجاء. فالحياة عند المتطهرين حقيقة صارمة، ولكنها عند هذين الشابين الوثنيين لا تعدو أن تكون رقصة مرحلة. إنهما خاطئان ولا بد من عقابهما على الخطيئة. وهكذا بينما هما يحتفلان بزواجهما

حول عمود مايواذ هاجمها الحاكم انديكوت بجنده فجرد عمود مايو من أزهاره وقضى على الزوجين المدعورين بحياة من المشقة الجسدية والانقباض الروحي، ولكن هنا نجد الشاعر في هوثورن يناهض المتطهر فيه. فحين أخرج الزوجان من مشهد السعادة قام الحاكم العجوز القاسي برفع إكليل الورود من بين حطام عمود مايو وقذف به بذات يده فوق رأسيهما. إن الخطيئة الدميمة تجزى بالعقاب. ولكن ألمها الجميل يجزى بالورود، وكانت هذه نغمة جديدة في الأدب الأمريكي ولكن الجمهور الأمريكي لم يكن قد تهيأ بعد لهذا النوع الجديد من الأدب، ففشل الكتاب من الوجهة المالية

- ٤ -

لقد تقدم رفاقه في الدرس في مضمار الحياة. فقد صار لونغفيلو أستاذاً في هارفرد وصار بيرس عضواً في مجلس الشيوخ الأمريكي. أما هوثورن فلم يزل يضرب على غير هدى. وحصل على عمل فترة من الزمن هو وظيفة وزان فحم في جمر ك بوسطن. غير أن هاريسون قد انتخب رئيساً جديداً للجمهورية ففصل هوثورن من عمله في موجة التغييرات التي تلي الانتخابات الأمريكية عادة.

ثم استثمر مدخراته، وكانت تبلغ نحو ألف دولار في المستعمرة التعاونية المسماة "بروك فارم" واعتقد أنه سيستطيع العيش دون الكفاح في طلب الرزق، وكان هذا العصر يتميز في تاريخ أمريكا بأنه عصر التجريب. فنبت فيه كل المذاهب، الاشتراكية والحركة النسائية والتسامي الفردي والفوضوية والشبوعية وما إلى ذلك، وكان المثاليون على استعداد لأن يعلنوا مقدم عصر سعيد لا شقاء فيه. وكان المنتظر أن تصبح بروك فارم بزعامة مارجريت فولر إحدى جنات هذا الفردوس الذي سيقوم في الأرض، وقد أثبت أعضاء بروك فارم كفاية عملية إذ اختاروا صاحبنا هوثورن- ويا له من اختيار- مستشاراً مالياً لهذه المستعمرة.

وهكذا نرى هوثورن في دور جديد. دور ممول الفلاحين. فألقى بقلمه جانباً وحمل مذارته، وبدلاً من أن ينثر الحبر على الورق صار ينثر السماد على الحقول- فيا له من منظر غير متسق، منظر ملاك في كومة من القاذورات. لقد تحمل هذه الحياة قرابة عام. ثم

عاد إلى (سالم) بعد إذ فقد كل ماله في تجربة بروك فارم. ولكنه قد وجد فيها مادة لقصته الوحيدة ذات الألوان (قصة بلثيديل) ويختلف أشخاص هذه القصة عن الأشخاص القائمة في قصصه الأخرى في أنهم ينعمون بدفء الشمس ساعة الظهيرة.

إنه الآن في الثامنة والثلاثين من عمره، شخصية بارعة الجمال، عديمة الجدوى إلى درجة تبعث على الرثاء. لقد كان له جسم هرقل ورأس أبولو ولكن عينيه، كانتا أشبه بعيني طفل مفزع، أو غريب ذي جنة آتى من أرض غريبة. فكان يجفل من صحبة الناس. وكان أكثر ألفة بأشخاص قصصه منه بسكان (سالم). فاتخذ لنفسه مقعداً متوحداً على المرتفعات، وشرع يحول الحياة إلى قصص. ولكنها قصص أكثر حيوية من الحياة ذاتها.

لقد كان مشغولاً بفنه بحيث أحب أن يعيش دون أن يزعجه العالم أي إزعاج أو يتطفل عليه أي تطفل. وكان إذا اقتحم عليه أحد عزلته التأملية امتعض "في مقت باطني، وفرار لا يلوي على شيء من مقدم هذا الشخص. كأن ذاتاً أخرى قد أفرعنتني، فهرعت أجري على الصخور، واعتصمت بمنحنى جدول ينتمي إلى بحق الساعات التي خلوت فيها إليه".

ومع ذلك فإن عزله لم تكن كاملة. فقد تزوج صيف عام ١٨٤٢ من (صوفيا بيودي) وهي المرأة الوحيدة التي قدر لها أن تمنحه سعادة حقة. وانتقلا إلى (كونكوردي) مدينة الذكريات الثورية والأرواح الثورية من أمثال برنسون الكوت وهنري ثورو ووالف والد وإيمرسون و إيلرى شاننج. وهنا شعر بشيء من الألفة فقد كانت الحياة هنا تشبه حياته من وجوه كثيرة، ولكنه حتى في هذا المكان لا يخرج عن تباعده واستحيائه إلا في أندر الأوقات، وقد استأجر منزلاً متهدماً في أحد الأركان المنزوية في المدينة. وكان يلتف في رداء النوم الممزق ويقول "قد لا أصير مالكاً في يوم من الأيام ولكني أكبر مالك للثياب المهلهلة في البلاد" وأقام على رسم شخصيات وثنية في إطار متطهر.

وظل أربعة أعوام لا يكاد يستطيع المضي في عمله معتمداً على ما تدره عليه القصص من ربح. ثم وأتاه الحظ. فلقد استعاد الديمقراطيون رئاسة الجمهورية، فعين هوثورن مشرفاً على جمرك (سالم) وكان راتبه ١٢٠٠ دولار في السنة. وكان هذا مبلغاً

خرافياً في ضخامته بالقياس إلى (سالم) عام ١٨٤٦.

على أن حظه السعيد قد تخلى عنه عام ١٨٤٩. فقد انتخب (زخارى تايلور) رئيساً للجمهورية، وكان معنى هذا فصل هوثورن من الجمرك.

وكانت كارثته تبعث على الرثاء، فإنه ليشعر بأنه شيخ مسن مع أنه لم يتجاوز الخامسة والأربعين وكان عليه أن يعول زوجة وطفلين، دون أن يكون لديه مدخرات يركن إليها، أو أمل في الحصول على منصب جديد.

ولكنه نجا بفضل ثلاثة أمور، شجاعة زوجته، وكرم أصدقائه، وإيمان الناشر بقدرته على كتابة قصة من عيون الأدب.

لقد تلقت زوجته نبأ فصله من الوظيفة كما تتلقى أسعد الأنباء.

فابتسمت له في شجاعة وقالت "سيتحقق لك آخر الأمر الفراغ الذي تستلزمه كتابة تلك القصة العظيمة" وأقامت مدفأة في غرفة مكتبه وعينت بأناقة المكتب، وأعانتها على ارتداء ملبسه المريح وهيات له أن يجلس ويكتب، ثم ذهبت إلى الطابق الأعلى وعادت في يدها مائة وخمسون دولاراً من الذهب البراق، وهو مبلغ كانت قد أدخرته سراً لمثل هذه المفاجآت.

وما هي إلا أيام قليلة حتى علم هوثورن على حين بغتة أنه غني بحب أصدقائه، كما هو غني بحب زوجته وإخلاصها، فقد تلقى صكاً بمبلغ ضخّم مصحوباً بخطاب مؤثر، مهور بتوقيع جورج هيلرد، وهو أحد الأعضاء في جماعة كمبردج، التي كان يرأسها لونج فيلو. وقد جاء بخطاب هيلرد ما يلي "لقد خطر لي كما خطر لبعض أصدقائك أنك قد تكون الآن بحاجة إلى معونة مالية صغيرة. لذلك فقد جمعت المبلغ المرفق من أولئك المعجبين بعبقريتك القادرين لشخصيتك... وإني لأعلم فيك حساسية المزاج، لكن لا تتحدث عن التزاماتك، ولا تفكر فيها. وإنما نحن قد أدبنا جزءاً صغيراً جداً مما نحن مدينون به إليك، لما لك على الأدب الأمريكي من أياد... فلا تدع أي ظل من الألم أو اليأس يتسرب إليك أيها الصديق العزيز. إن أصدقاءك يذكرونك ولن ينسوك أبداً..". ورد

هوثورن على هيلرد بخطاب قال فيه "لقد أثار خطابك دموعي على نحو لم تفلح متاعبي في إثارته.. لقد كان ثمة كثير من الحلاوة وشيء غاية في المرارة يمتزجان في هذا الدمع نفسه.. إن المال يا عزيزي هيلرد سيمهد سبيلي وقتًا طويلاً. وليس من سبيل يستطيع به المرء الاحتفاظ بكرامته بينما هو يعتمد على كرم أصدقائه إلا بأن يتخذ من هذا حافزاً له على بذل أقصى الجهود حتى لا يحتاج إلى معونتهم مرة أخرى".

ومضى في كتابة قصته بدلاً في كتابتها أقصى جهده، لكنه لم يكن مؤمناً بنفسه. زاره في (سالم) ذات يوم ناشره جيمز. ت. فيلدس.

فوجد هوثورن في مكتبه يحوم في حيرة حول مدفأته، فسأله الناشر "هل أعددت شيئاً للمطبعة؟"

فأجابه هوثورن "كلا! كيف يجازف ناشر بطبع كتاب لي وأنا أوفر كتاب أميركا حظاً من كراهية الناس!".
"إني أنا هذا الناشر".

فقال هوثورن مؤكداً "ولكني في الواقع ليس لدي ما يستحق النشر".

ففتح فيلدس الباب وكاد أن يخرج فأخذ هوثورن من أحد إدراجه حفنة من الأوراق المخطوطة وقال في تردد "لعلك تنزل بتصفح تلك الحزمة من القمامة".

وأخذ الناشر الحزمة معه. وفي تلك الليلة كتب خطاباً حماسياً إلى هوثورن.

لقد كان المخطوط الذي فرغ لتوه من قراءته هو مشروع ملخص قصة "الحرف الأحمر".

- ٥ -

ولا تبدأ حوادث (الحرف الأحمر) من البداية. فإن هوثورن يستخدم فيها طريقة رواية القصة من آخرها. يبدأ المشهد الأول بإطلاق (هستر برن) من السجن. وهذه هي هستر المرأة الشديدة الحنين إلى الحب، والشديدة القدرة على معاناة الألم، تخرج من ذلك الحصن المظلم، وعلى ذراعيها طفل عمره ثلاثة أشهر. وعلى صدر جلابها يظهر حرف

(ز) بالقماش الأحمر.

وكانت رزينة المظهر، كليمة الفؤاد، سارت إلى مكان التشهير. وكان في أحد أطراف الحشد المتطلع رجل ضئيل. وكان له جين ذكي وعينان قاسيتان. وكان هذا الرجل (دكتور روجر شلنجهويرث) هو (زوج هستر برن) لقد غاب عن موطنه عدة سنين وهو الآن غريب في بلده.

وكان قسيس المدينة المحبوب (أدثرد ديمسدا) شاباً يربو إخلاصه على شجاعته. وهو يشق لنفسه طريقاً في خلال الحشد، ويقف إلى جانب (هستر) ويلح عليها أن تذكر من زنى بها. ولكن (هستر) ترفض في إباء أن تستسلم لإلحاحه.

ثم لا يلبث الكاتب أن يبدأ في نسج العقد والأحبال التي تعقد حياة الأشخاص الأربعة الرئيسيين وهم (هستر) ودكتور (شلنجهويرث) و (آرثر ديمسدا) و (بيرل) الصغيرة، وفي الليلة التالية لإطلاق سراح (هستر برن) من السجن تمرض طفلتها ويستدعى الدكتور (شلنجهويرث).

فتقول (هستر) هامسة: "لقد أخطأت في ححك خطأ بالغا".

فأجاب زوجها: "لقد أخطأت أنا كما أخطأت، فأنا رجل من رجال الفكر، وأنت امرأة من أهل الجمال، فبأي حق صرنا زوجين؟".

إن (روجر شلنجهويرث) يفهم، ولكنه لا يصفح.. فإن عقله وقلبه مختلفان في سبيليهما.. فهو مصر على معرفة من فسق بامرأته ومعاقبته.

وتتعيش (هستر) من أشغال الإبرة. وكان أهل الفضل في المدينة مصرين أول الأمر على أن ينزعوا منها طفلتها، ابنة السفاح ولكن يتغلب (مستر ديمسدا) عليهم أخيراً فيدعون الطفلة لأمها. فيقول (روجر شلنجهويرث) باسمًا: "إنك يا صديقي تهتم بهذه المرأة الفقيرة اهتمامًا عجيبيًا".

وتتدهور صحة (مستر ديمسدا). فيندب دكتور (شلنجهويرث) نفسه لمعاجته. ويساكن القسيس، لأنه مصر على أن يتبين أسرار قلب (ديمسدا). ولتلاحظ كيف أن

الكاتب قد جمع بين الرجلين جمعًا جثمانياً لكي ينسج خيوط انفعالاتهما العقلية والروحية. ويغدو (شيلنجويرث) صورة مادية لضمير القسيس المذنب.

وأن (ديمسدال) لينظر إلى (شيلنجويرث) في فرع متزايد، ولطالما حاول أن يعترف بخطيئته من فوق المنبر، ولكن شجاعته كانت تخونه دائماً.

وفي سكون الليل ذات مرة، صعد إلى مكان التشهير حيث وقفت (هستر) يجللها العار. وكان يعتقد أن كل الناس نيام، ولكن يراه ثلاثة أشخاص (هستر وبيزل) وكانت عائدتين من منزل امرأة تختصر، ودكتور (شيلنجويرث).

وفي رثاء ساخر: يصحبه الطبيب إلى المنزل "لا ينبغي لك أن ترهق نفسك في الدرس إلى هذا الحد أيها السيد الطيب ديمسدال".

وهكذا أحكم نسج القصة بحيث صارت إلى نموذج محدد يبعث على الأسى. ثم تتحرك القصة مسرعة إلى ذروتها التي لا مفر منها، فترسم (هستر) خطة للفرار مما يحدثه (روجر شيلنجويرث) في نفسها من أثر قاتل. فترجع السفر إلى إنجلترا ومعها (ديمسدال وبيزل).

ولكنهم يجدون أن (شيلنجويرث) لا يهزم بهذه السهولة. فقد علمت (هستر) أنه أيضاً قد حجز تذكرة على نفس السفينة الداهية إلى إنجلترا. وتلاحظ مهارة الكاتب في أن هذه المعلومات تأتي في يوم من أيام الإجازات البالغة الأهمية، اليوم الذي اختير فيه (ديمسدال) ليلقي موعظة الاختيار تكريماً للحاكم المعين حديثاً.

وهكذا تلتقي في يوم واحد أعلى ذرى مجد (ديمسدال) وأبعد أغوار مأساته. فلم يعد في وسع (ديمسدال) أن يخفي خطيئته مع (هستر) إنه ليفضل الاعتراف الآن بما يستتبعه من عار، على عذاب المستقبل الذي يصبه عليه (شيلنجويرث). وهو يتعمق أبعد أغوار روحه.

وهكذا يلقي (ديمسدال) موعظة الاختيار للجمع الذي يعبده، ثم في حركة مسرحية يرقى مكان التشهير ومعه (هستر وبيزل الصغيرة). ويصيح قائلاً: "يا شعب نيو انجلاند،

أخيراً وأخيراً جداً، أقف حيث كان علي أن أقف منذ سبع سنين..".

ثم تقبل لحظة الإلهام في المأساة:

فهو يستمر في صوت رنان "انظروا إلى الحرف الأحمر الذي تلبسه هستر.. إن لي أيضاً حرفي الأحمر".

ثم يمزق الرداء الكنسي عن صدره. فيبدو لحمه وقد نقش عليه حرف (ز) باللون الأحمر.

فلما نظر الدهماء إليه نظرة العجب والدهشة والرتاء، مال برأسه على صدر هستر. لقد أدى حياته ثمناً لخطيئته.

-٦-

إن (الحرف الأحمر)، كمعظم روايات هورثون وقصصه القصيرة، تمثل التاريخ الروحي لنيو إنجلاند.. الصراع بين الحب المتطهر للدين، والدين الوثني للحب. ولكن الكتاب ليس مجرد صورة لنيو إنجلاند. فإنه كذلك صورة هورثون نفسه، ذلك الرجل المتطهر الجسم، الوثني الروح. فإن في أشخاص الرواية جميعاً شيئاً من هورثون.

قسوة القضاة الذين عاقبوا (هستر برن) على خطيئتها مع (آرثر ديمسدا) وعدم صفح (شيلنجويرث) الذي نصب نفسه للانتقام كأنه تجسيد لضمير القسيس الشاب. وتردد (ديمسدا) الذي كان يخفي قلباً يثور باللهب تحت رماد العرف الاجتماعي، وتحدي (هستر برن) التي كانت تحمل رمز آلامها وكأنه رمز على التكريس يبارك ثوب حبها.

إن هورثون في كتابه يمثل نوعين من الخطيئة: الخطيئة التي يرتكبها الحب ضد العرف الاجتماعي. والخطيئة التي يرتكبها العرف الاجتماعي ضد الحب. ويرى هورثون أن الخطيئة الثانية هي أشد الخطيئتين نكراً. إن هورثون الشاعر يحاول أن ينفصل عن هورثون الواعظ. فلقد انتهى أوان التطهر في أمريكا، ولا بد من أن يحل محله شيء جديد. ولا يدعي هورثون أنه يعلم هذا الشيء الجديد على التحديد.

ولعله يتمثل في شخصية بيرل الصغيرة، تلك الثمرة البرينة الأثرية غير المتميزة للتطهر والوثنية، جميلة ولكنها سريعة الزوال، كأنها وميض شعاع الشمس يتراءى في حلم، ولكنها تبشر بشيء أكمل وأكثر تجاوبًا مع قلب العالم من كلا أباؤها. لقد عاش هورثورن في بواكير التاريخ الأمريكي بحيث لم يكتب قصة نضج بيرل الصغيرة. فنهض بهذا الواجب قصاص آخر فيما بعد.

يمثل هورثورن عصر انتقال في تاريخ أمريكا العقلي. وهو ينتمي إلى أولئك المجددين العقلين الذين يحاولون الفكك من أخطاء الماضي. فأخذ في الارتباب في الصورة الكلوينية القديمة للجنس البشري، التي تمثل جمهورًا من المخلوقات الخاطئة وقع بين نارين، الأمر بالكدر والعناء في السماء، والجلاد القاسي في جهنم. وكان هورثورن ابن المنتهين، وكان أجداده قد شفقوا الكويكرين وأحرقوا الساحرات، ولكنه كان كذلك أبا الثائرين. فالتحليل النهائي يكشف عن انعطافه إلى الضحايا لا إلى القضاة أو السجنان. فهستر بيرن هي أنبل أشخاص (الحرف الأحمر) وأوفرهم حظًا من العطف.

ولكن هورثورن لم يزل يتحسس طريقه. وهو لم يطمئن بعد إلى الأرض التي يقف عليها. فهو كأشخاصه يحيا في عالم غامض بين النور والظلام. فالأشياء غير متميزة والمسافات غير محددة، والأفق محفوف بالغمام. وليس من حد فاصل تنتهي عنده الأرض، وتبدأ عنده السماء. غير أنه يعرف شيئًا واحدًا: هو أن أخطاء الماضي ستتحول فتصير آمال المستقبل "في عصر أزهى، في زمن السماء نفسها، ستتكشف حقيقة جديدة لإقامة (الجنس البشري) على أساس من السعادة العامة أكثر صلابة".

-٧-

ويمكن إيجاز باقي حياة هورثورن في كلمات قليلة، حين انتخب (بيرس) لرئاسة الجمهورية، عين القصاص الذي كان رفيقه في الدرس قنصلًا بليفربول وكان هورثورن يحيا خارج البلاد حياة العزلة عن المجتمع التي كان يحياها في وطنه. فألف بين نفسه وبين تاريخ إنجلترا، بدلًا من أن يؤلف بين نفسه وبين شعبها. فلما انتهت فترة اشتغاله في القنصلية سافر إلى إيطاليا، وهناك أيضًا عاش في الماضي أكثر مما عاش في الحاضر. ثم عاد إلى

أمريكا وإلى المكان الذي كان يألفه أشد الألفة، وهو الحدود بين الماضي والحاضر كما تتمثل في حياة شعب الأقاليم.

وقد بلغ من انغماسه في مشكلات مسرحياته الإقليمية أنه لم يكذب بحس بالمأساة القومية التي كانت تمثل أمام عينيه. فلما نشبت الحرب الأهلية، هز كتفيه استنكارًا وقال "إني أوافق على الحرب، لكنني لا أدري ماذا نحارب من أجله".

على أنه أيضًا كان يخوض غمار حرب- حرب الروح البشرية لتخلص من أسر البيئة. وقد صور هذه الحرب في قصة (The House of the Seven Gables) وفيها تنسج خطايا الآباء شبكة تحول بين أبنائهم وبين السعادة. وعاد إلى هذه الحرب في (The Marble Faun) وفيها يبعث إلى الحياة أحد مخلوقات الماضي نصف الآدمية، وسط المشكلات الإنسانية الخطيرة في الزمن الحاضر. وهو موضوع هوثورن الأثير، موضوع الخطيئة والعذاب. وفي نهاية حياته تمامًا كان في شغل بحرب أخرى لم تنته بعد، هي حرب الروح ضد أحكام القدر في (قصة دوليفر).

وقد حاول في هذا الكتاب أن يهتدى إلى سر الحياة، وهزيمة الموت، والركب الإنساني العالمي الذي يمضي إلى الخلود.

وكان من سخریات القدر أن هذا القصص الفيلسوف قد مات في نفس الوقت الذي كان يبحث فيه عن الحياة الخالدة (مايو سنة ١٨٦٤).

وانقضى بموته عصر عقلي من التاريخ الأمريكي.

أهم مؤلفات هوثورن

Twice Told Stories

Mosses From an Old Manse

The House of the Seven Gables

The Dolliver Romance

The Snow Image

The Blithedale Romance

The Scarlet Letter

The Marble Faun

Tanglewood Tales

The Great Stone Face

وليم ماكبس ثاكري

١٨٦٣ - ١٨١١

ولد في كلكتا، وفقد أباه وهو في الخامسة، فأرسل بحرًا إلى إنجلترا، ليحيا مع عمته بشزويك، وكان طفلًا غريب المنظر، أشبه بثمره اليقطين يحملها عود من اللوبياء، فقد وضعت عمته قبعة زوجها على رأس الصبي الصغير - وهي قبعة ضخمة شيئًا - ولشد ما أفرعها أن رأسه مלאها تمامًا. وأخذته إلى طبيب أسرتها ليفحصه، فطمأنها الطبيب بقوله: "لا تراعي فللصبي رأس كبير، ولكنه رأس عامر".

ومع ذلك فإن رأس وليم الصغير، ذلك الرأس الكبير قد استغرق زمنًا طويلًا حتى ينضج، فكان في مدرسة شارتر هوس (وهي المدرسة التي التحق بها تلميذًا في القسم الخارجي) في مستوى يقل شيئًا عن مستوى رفاقه. وكتب عنه زميل له في فرقة الدراسة يدعى جورج فينابلس يقول: "مع أنه لبث هناك بضع سنين، فإنه لم يبرز في الفصل ولم ينبغ في الملعب".

ومع ذلك فإن هذا الفتى الصغير الوديع، قد أظهر حتى في هذه الفترة جرأة على الفكاهة الجافة التي سوف يمتاز بها في قابل أيامه.

كتب إلى أمه في كلكتا يقول "إني أحب مدرستي، فما أكثر الصبية الطيبين الذين أعب معهم، ثم أضاف استدراكًا خبيثًا هو: بالمدرسة ٣٧٠ تلميذًا ليتهم كانوا ٣٦٩".

وكان يكتب بانتظام إلى أمه وزوجها الماجور سميث، وكان دائمًا يعترف لهما بمدى كسله اليوم، ومدى جده غدًا، و لكن هذا الغد المجد لم يأت أبدًا. وبعد إذ تخرج في مدرسة شارتر هوس كان لا يزال بحاجة إلى تعليم إضافي يعده لكمبردج فقام بذلك زوج أمه- وكان ماجور سميث وزوجته قد انتقلا الآن إلى إنجلترا- والتحق بكمبردج في فبراير سنة ١٨٢٩ و هنا أيضًا عاش عيشة الرجل المهرف الحس المنعزل عن الناس. وقد قال

في ذلك أحد مدرسيه: "لو استطاع أحد أن يخرج هذا الفتى عن كسله لكان قادراً على أي عمل إذا أراد، لكنه لا يريد أبداً".

كانت بلية ثاكري أنه لا يستطيع مطلقاً أن يركز جهده في شيء واحد. فهو يوماً يحب أن يترجم هوراس، ويجب في اليوم التالي أن يرسم صوراً هزلية، وفي اليوم التالي يكتب شعراً هجائياً. وكان قليل الإجابة في كل ما كتب. فهو لم يركز جهده في شيء واحد بحيث يبرع في هذا الشيء الواحد. ولا مرء في أنه لم يتوفر على الدرس. فهو بعد عامين يقضيهما في الجامعة تتقاذفه فيهما التيارات. يطلب إليه أن يغادر الجامعة دون الحصول على إحدى درجاتها.

وهكذا غادر الجامعة، وجعل يخبط في الحياة، فجاب أوروبا وزار المتاحف والمسارح والمكتبات. ورسم صوراً وكتب قصائد. ولاحظ غرور الحياة ورحمتها وجمالها، وهو شاب نحيل صموت من علية القوم، فقد ورث مائة ألف دولار، شديد النهم إلى المجد بالغ الكراهة للعمل، وكان مزاجه يبلغ في تناقضه ما بلغ جسمه، فله جسم عملاق ووجه طفل لطيف و أنف مهرج. وقد كسر أنفه في شجار نشب بمدرسة شارتر هوس وظل مدى حياته مشوهاً، وقال ذات مرة مازحاً "لولا أنفي المكسور لحصلت على وظيفة عملاق في (سرك) فأنا حينما تقدمت للوظيفة اختبرني صاحب العرض اختباراً دقيقاً، ثم هز رأسه وهو يقول: أنت شاب طولك مناسب، ولكنك بالغ الدمامة".

ومرت به أيام فارغة وليال عابثة.. ثم تجربة مريرة هي تلك الآلام التي يقاسيها العقل الموهوب. فهو في لجة تلك التيارات التي تتقاذفه إذ وجد نفسه في دار ميسر ذات مساء. فرأى أن المغامرة شيء مثير وإن يكن مكلفاً. وما هي إلا بضعة أشهر، حتى كان قد فقد ماله جميعاً. ثم استقر في حياة العمل الجدي.

- ٢ -

جرب الفن فترة من الزمن، لكنه أدرك أن كفايته تقصر به عن بلوغ ما أراد ثم قرر احتراف الأدب، وكان قد رأى في أسفاره كثيراً من (المدن والناس) ورأى في كل مكان

جسومًا تضطرب إلى غير غاية. "انظر أن كل شيء باطل الأباطيل وقبض الريح" لسوف يتوفر على ملاحظة العرض الساري ولسوف يعلق متواضعًا على بعض مشاهدته إذا أمكنه ذلك.

والتماسا لهذه الغاية، شرع يكتب القصائد والمقالات والقصص. وقد رفض معظمها لمبرر حسن، ذلك أن ثاكري كان يكتب لغرضين متعارضين، فهو يزدري بني الإنسان بعقله وبهواهم بقلبه. ففشل الناشرون في فهمه، لأنهم لم يستطيعوا أن يجددوا لونه. فقد جمع أعظم المتناقضات الأدبية.. إنه مزدور ساخر قاس عطوف، يرى سخف الحياة ولكنه يراه خلال ضباب من الأسى.

وكان ثاكري نفسه قد واجه أسى عظيمًا في مقتبل حياته العملية، فقد تزوج "ايزابيلا شو" وهي فتاة أيرلندية حسنة ولدت له بنتين، وقدمت له أشهى مذاق للنعيم حظي به إنسان. ثم أصيبت بالحمى، وشفيت منها جسمًا وماتت بها عقلاً، وقضت سعادة ثاكري بقضاء عقلها. فعهد بها إلى عناية أسرة صديقه، وألقى بنفسه في خضم حياة الأندية ولم يكد يسغيه "أن نشاطي الاجتماعي لجهود طويل أبدله في سبيل النسيان".

ولم يعد نشاطه الأدبي أن يكون جهدًا بذله طول حياته يلتمس الفكاهة. فهو يضحك من بني جنسه من أثر رثائه لهم. وأن تهكم ثاكري ليخلو من الضغن فإن تكن يده خشنه كيد عيسو فإن صوته رحيم كصوت يعقوب.

وهذا سر العناء الذي لقيه في بناء مجد أدبي. فقد عجز الجمهور أبدًا عن فهم كاتب يستخدم السوط ليرت به على الأكتاف عطفًا ورثاء، وكان أبناؤه أنفسهم حين كبروا يعنفونه على دقة فكاهته واستخفائها ويسألونه "لماذا لا تكتب فكاهة بسيطة - كفكاهة ديكنز - حتى يفهمك كل الناس؟".

وكان ثاكري يتألم أبلغ الألم لعجزه عن بيع بضاعته الأدبية، فإذا انسدت بينه وبين المجلات المسالك أنشأ مجلة له دعاها **The National Standard**.

وكان جانب النجاح الوحيد في هذه المغامرة أنها مكنته من السخر بغفلته "لكنك لو

لم تخبر الغفلة قط، فاستيقن أنك لن تكون حكيمًا" كما قال في (الأرمل لفل).

لقد فشلت المجلة، وظل تاكري يتعلم الحكمة عن طريق حماقته. وبدأت كتاباته تدريجًا تجد لها مكانًا في أركان مجهولة من المجلات. وقد وصفه أحد الخريين بأنه مجرد كاتب مقالات ضئيلة، ولمع من شعر جميل. فرد تاكري على ذلك بقوله لأرينك أي خير مما تظن..

ولم يفعل إلا بعد زمان طويل. وحينما كان ديكنز - الذي يصغره بعام - تشرب نخبه لندن كلها، كان تاكري شابًا ساخرًا مغمورًا لا يقرؤه أحد "كتب قصة نفسية عنوانها The Great Hoggarty Diamond فتساءل جون سترلنج "ماذا يفوقها في قصص فيلدنج وجولد سميت" وغضت مجلات عدة من قدرها. وتقدم بطلب ليعين محررًا بمجلة Foewign Quarterly Review.

"- أرجوك أن تفكر في خادمك المطيع الذي يستطيع حقًا، فيما يعتقد، أن يؤدي الواجب على أكمل وجه" فألقى طلبه في سلة المهملات، وعرض أن يكتب سلسلة لمجلة Blackwood's Magazine، وجاء في طلبه "إني انتمى إلى ناديين في هذه القرية، وأستطيع أن أجمع كثيرًا من الأحاديث، ولكن ملتتمسه أصاب أذنا صماء. يا له من عمل ميثب للهمة، ذلك الجهد العايب لكسب العيش بالقلم.

ولكنه لم يتحول عن غايته "ماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك؟". وأخيرًا وبعد اثني عشر عامًا من الفشل المتصل، أصاب قدرًا يسيرًا من النجاح.

وكان أول تواليفه الناجحة نوعاً هو The Irish Sketch Book وبلغ عدد النسخ المباعة من الكتاب ألفاً، ولم يكد تاكري يصدق عينيه حين قرأ الرقم، فقال في تهيم خبيث "أخيراً بلغت من الشهرة ما بلغ ديكنز الذي تباع مائة ألف نسخة من كل كتاب له".

وفي سخاء الرجل الذي حقق غايته نصح لصديق أديب في إيرلندا هو القصاص شارلس ليفر بأن يحضر إلى إنجلترا ليجرب حظّه فيها ومضي إلى عرض معونة مالية عليه،

وكان هذا العرض - كما وصفه ليفر متفكها - أشبه شيء بأن تعلم صديقك العوم وأنت لا تزال تجاهد لتبقى رأسك خارج الماء. وسرعان ما أفاق ثاكري من سكرة النجاح الأولى، وعاد إلى غمرته وحزنه، حدثه أحد أصدقائه مشيراً إلى (ذي إيريش سكتش بوك، قال "لا بد أنها متعة فائقة أن تؤلف كتاباً يحوي كل هذه الفكاهة المشرقة، فقص عليه ثاكري في جوابه قصة صغيرة. حدث أن أتى مريض ذات يوم إلى عيادة طبيب ليفحصه فقال له الطبيب: "إنك شديد الهم والكآبة ولست بحاجة إلا لشيء ينعش روحك، فلماذا لا تذهب إلى ملعب التمثيل وتشهد مجانة المهرج بلسينلو؟" فقال المريض "إني أنا بلسينلو" إن ثاكري يضحك - فيما يقول - لأنه شديد الميل إلى البكاء "ألا ما أفكه ما كتبت وأنا أكاد أشنق نفسي" كذلك ذكر في أحد خطابه.

- ٣ -

وظل يكتب قصصه وقصائده ومقالاته التي تتسم كلها بالفكاهة. وظل الجمهور يجزيه عليها بحفنة من البنسات - وبتصفيق مبعثر مشتت.

والحق أن الجمهور لم يكدر يعرف اسمه، فهو في رغبته الزائدة في التكرار قد اتخذ لنفسه عدداً من الأسماء المستعارة.

وكان استخفاؤه في هذه الأسماء المستعارة الكثيرة مظهرًا جديدًا من مظاهر التناقض في شخصيته. فهو على ظمنه إلى ذبوع اسمه، وقد بذل غاية جهده لإخفاء اسمه.

ولكن ثاكري لا يعدم مبرراً كافياً لاستخفائه في أسماء مستعارة.

فهو يقول "إن مطعمي الثاني هو ذبوع الاسم. أما مطعمي الأول فهو إصابة رزق أولادي" وما كان له أن يكسب عيشه لولا هاطل من المقالات يغدقه على المجلات بثمان ضئيل للكلمة "قد يحدث للأديب أن الريح الذي يصيبه من جهة واحدة لا يقيم أود أسرته، فعليه أن يكتب في جهة أخرى.

فلو كتب (برون) مثلاً مقالات للصحف اليومية وأخرى في المجلات الأسبوعية والشهرية أيضاً، وذيلها جميعاً بإمضائه لأضعف قوته بإطالة خطوطه. وتفادياً للإلحاح باسمه

دائماً حجب اسمه دائماً. وأن قارئاً ليتساءل في إحدى هذه المرات النادرة التي وقع فيها
ثاكري مقالاً بامضائه الصحيح "من ذلك الكاتب الجديد؟

إن كتابته لأشبه بكتابة الهواة إذا قورنت بما يكتب تيتي مارش ٤".

إن ثاكري قد قارب الأربعين ولما يزل مجهولاً مغموراً. وكانت هذه الغمرة تحز في
نفسه "يا صديقي أمسح الأحذية أو نظف السكاكين أو أفعل أي شيء غير الاشتغال
بالأدب" كذلك كتب في إحدى مقالاته لأن الأدب كما ذكر في موضع آخر "ليس تجارة
ولا مهنة بل هو الحظ الأنكد".

ومع ذلك فلم يتزحج عن حظه الأنكد. لأنه صمم على أن يرى العالم أنه "خير مما
تظن" وأثمر التصميم في عام ١٨٤٧ تلك الثمرة الأدبية الشائقة "سوق الغرور" وهي
قصة لا بطل لها.

ولم يكن ثاكري مطمئناً أي اطمئنان لقيمة "سوق الغرور" (ليت شعري أتصلح هذه
الرواية؟ وهل يقبلها الناشرون؟ وهل يقرؤها العالم؟) لم تنجح القصة في أول الأمر. فقد
عرض ثاكري الأبواب الأولى على مجلة "كليرن" فرد الخرج إليه المخطوط وقال "إن هذا
الرجل لا يستطيع كتابة القصص" ورد القصة محرر مجلة أخرى وعلق عليها يقول "إن
الألفاظ خفيفة كأنها ريش من رصاص" ويقول محرر آخر بمجلة أدنبرة يدعى "ما كفى
ماير" (على المرء أن يكون في غاية الحذر من قبول عمل الغرباء على القراءة. ففي مجلة
كمجلة إدنبرة من المهم دائماً الاحتفاظ بمستوى عال من الأسماء الكبيرة).

ورفض "سوق الغرور" كثير من المحررين وناشري الكتب قبل أن يقبلها محرر (بنش)
آخر الأمر. كان الجمهور بطيئاً في التعرف على مزايا الكتاب، لكن النقد سرعان ما رأوا
فيه حدثاً جديداً في تاريخ الأدب الإنجليزي. وكتبت همن كارليل إلى زوجها: "لقد
استحضرت الأعداد الأربعة الأخيرة من سوق الغرور وقرأتها أثناء الليل إنها تسحق ديكنز
وتمحوه محواً".

٤ واحد من عشرات الأسماء التي كان شكري يوقع بها كتاباته. (المترجم)

وكتب (ابراهيم هايورد) في تعليق له نشر بعد ظهور أجزاء قليلة من القصة يتنبأ بأن "سوق الغرور" قد كفل لها الخلود، كما كتب الفناء لتسع وتسعين في المائة من القصص الحديثة. وهلل للكتاب كثير آخرون من المعجبين وسلكوه في الروائع، لكن التقرير الكامل عن هذا الكتاب قد كتبه القصاص (شارلوت بروني) لزميلها في المهنة، وكانت روايتها المنشورة حديثاً (جين اير) قد أثارت الاهتمام والإعجاب، ومع ذلك ففي وسط نشوة انتصاراتها وجدت الوقت والأريحية للاحتفاء بقصة تنافس قصتها، قصة تستحق في نظرها نصراً أعظم من انتصاراتها. فكتبت في مقدمة الطبعة الثانية (لجين اير) "إن رجلاً يعيش في عصرنا يفضل عندي عظماء المجتمع، حتى لكأنه ابن (املاه) إذ يسبق الملوك المتوجين في يهوذا واسرائيل • إنه يتكلم الحق كما كان يتكلمه.. عميقاً.. يشبه في قوته وحيويته كلام الأنبياء، وعلى محياه طابع الجسارة والشجاعة.

لماذا أشير إلى هذا الرجل؟ إني أشير إليه أيها القارئ لأني أرى فيه عقلاً بلغ من العمق والامتياز ما لم يدر كه معاصروه اليوم، ذلك لأني أعده المجدد الأول لهذا العصر، واعتقد أن كتاباته لم تجد بعد من المعجبين من يحلها مكانها الحق، أو يهتدي إلى التعبير الذي يصور نبوغه بحق. إنهم يشبهونه بفيلدنج ويتحدثون عن ذكائه وفكاهته وقدرته على الدعابة، وإن تشبيهه بفيلدنج لمن قبيل تشبيه النسر بالعقاب، ذلك بأن فيلدنج قد يقع على الجيفة. أما ثاكري فلا يقع عليها أبداً. فعقله ناصع، وفكاهته جذابة، ولكن كليهما يتصل بعقريته الجادة اتصال مستصغر البرق العابث تحت سحابة صيف بشرارة الموت التي تكنها السحابة في أحشائها وبعد فإني أشير إلى مستر ثاكري وإليه أهدي الطبعة الثانية هذه من (جين اير) أن هو قبل التحية من شخص لا تربطه به علاقة شخصية.

كان لابد من قصاص نابغ لفهم قصة "كسوق الغرور" فهذه القصة لا تخلو من بطل وكفى. بل إنهما من الناحية الفنية تخلو كذلك من خطة مرسومة. فهي صورة صادقة من صور وجودنا الإنساني الذي يخلو من البطل والخطة.

ويمكن تلخيص الكتاب كله في مقطوعة واحدة، كتبها ثاكري بعد نشر "سوق الغرور" ببضع سنوات.

أيه باطل الأباطيل.

ما أعبت شريعة القدر

وما أضعف أساطين الحكمة

وما أصغر عمالقة العظمة.

- ٤ -

ظفر ثاكري الآن بقسط واف من المجد وأصاب عيشاً رضيعاً، لكنه لما يزل غير سعيد، فإنه كذلك أشبه بأشخاص قصته في أنه دمية في سوق الغرور.. يمتطي أبدأ سهوة الطموح البشري في تلك الدوامة المرحية، هادفاً أبدأ إلى شيء يقصر عن بلوغه. فهو لا يحصل على بيت حتى يتوق إلى عربة تجربها جياد أربعة. ولا يحظى بالعربة ذات الأربعة، حتى يتوق إلى مركز اجتماعي. فإذا أصابه تاق إلى مقعد في البرلمان، ويجسر رغم خلوه من كل كفاية سياسية على ترشيح نفسه لعضوية مجلس العموم.

وكان من حسن حظه- ولعله من حسن حظ إنجلترا كذلك- أن منعت روحه المرحية من أن يبالغ في جهاده ليحظى بأصوات الناخبين.

كان "الورد منك" يرأس أحد اجتماعاته الانتخابية فقال "فلينصر الله المرشح الأصالح". فرد عليه ثاكري باسماء "لا قدر الله" فهو يعرف في منافسه (ادوارد كادويل) سياسياً ببرعه بكثير، وقد انتخب كادويل وأثبت في السياسة كفاية حقه.

بقي ثاكري للأدب، وهو الجانب الوحيد الذي يفضل فيه منافسه، لكن طموحه ظل يدفع به قدماً، فتعاقد على إلقاء سلسلة محاضرات ليصيب للأطفال رزقاً، وقبل كل دعوة وجهت إليه مهما يكن نوعياً ليستمتع إلى متملقه "فإن هذه المأدبة من المديح المعرق ليزيد في التذاذي إيها أنها جاءت بعد مجاعة طال أمدها".

وزار أمريكا مرتين فعاد مثقلاً بالتشريف وعسر الهضم "أما وقد أصبت مالا لأطفالي الأعزاء، فقد زال القلق من حياتي وأستطيع أن اتنفس حراً فترة من الزمن".

لكنه لا يتنفس في هدوء وحرية، فهو مقيم على قلقه وعلى شغفه بأن يبلغ ما لا سبيل إلى بلوغه. فإن عليه أن يستبدل بعربته مركبة أفخر وأن يستبدل بتابعه موكباً من الخدم، وأن يستبدل ببيته الصغير قصراً ريفياً. يجب أن ينافس نبلاء (سوق الغرور) في ذلك السباق المجنون، فهو يكتب إلى أمه "إن توم كارليل يعيش معيشة تامة الجلال في بيت صغير (بشلسي) استأجره بأربعين جنيهاً. به خادم استكلندية عبوس تفتح الباب الذي يطره خيرة رجال المجتمع الإنجليزي". فإن مجده المنزوي ليس مما يروق ذوقه، فهو يريد ليكون من رجال المجتمع "أنظر إلى شهرة ديكنز" أن عليه هو أيضاً أن يكون نجماً يتألق في ندوات العالم وحنانته، إنه يتوق إلى أن يرثه لورد (فلامدودل) بيده في ود، وأن تبسم له ليدي (فلامدودل) ابتسامتها تلك الأليفة الكريمة الحبيبة، وأن يتهامس به الخدم معجبين إذ يقدمون إليه الطعام في حفلات العشاء التي تقام لتكريمه. وكان يحلو له ترديد قصة الخادمين الإيرلنديين اللذين استرق إليهما السمع إذ كان يتعشى في سانت لويس، فقال أحدهما "أدري من يكون هذا الرجل؟" "كلا. أخبرني من يكون؟" "إنه تاكر الشهير" "وماذا فعل؟" "لست أدري ألا أنه رجل عظيم".

وكلما كتب قصة جديدة جعلت عظمته تزداد، وجعلت ألسنة الناس تلهج بتمجيده، وإن كانوا لا يدرون السبب. ذلك بأن كل الناس كانوا يعجبون به، وإن لم يقرأه منهم أحد، كما قال ناقد من معاصريه، حتى أن أروع قصص تاكري.. قصة (هنري اسمند) التي كتب عنها ناشره الأمريكي (جيمس فيلدس) يقول "إني أظاهر ذلك الكتاب وأقف إلى جانبه، وإني على استعداد لأن أتركه حيثما اتنقل كأنه بطاقتي الشخصية" حتى هذه القصة قد وسمت بأنها أجمل قصص الأدب الإنجليزي وأقلها حظاً من إقبال الناس على قراءتها. كان الجمهور يلتهم التعليقات، ويتحدث عن أشخاص الرواية، ويمجد المؤلف، ويشترى الكتاب. ثم يتركه على نضد المكتبة دون أن يقطع ما بين أوراقه.

فلنقطع نحن ما بين أوراقه، ولنلق نظرة خاطفة على قصة (هنري اسمند) في أواخر أيام أسرة (ستوارت) كان يقطن منزل ليدي (كسلوود) صبي ضئيل، كثير التفكير، اسمه هنري اسمند.. وهو كما يعتقد كل الناس ابن طبيعي للكونت توماس كسلوود. فإذا شب

الفتى الصغير، عهد بتربيته إلى الأب الجزويقي (هولت) وكان المشير الروحي لأسرة كسلوود.

ووافى الأجل عميد الأسرة وهو يعمل في خدمة الملك المخلوع جيمس. وصارت عمادة الأسرة إلى فرانسيس كسلوود. وارتضى هنري اسمند تغير الوضع بطريقته الهادئة المفكرة. فهؤلاء سادة جدد وتلك أعباء جديدة. وهذه فرصة عظيمة جديدة. فإن ليدي كسلوود، تلك الشابة الجميلة التي تبدو أشبه بابنة لفرانسيس منها بزوجته، كان بها ميل يعطفها إلى هنري، وكان هنري يكن لها شعوراً أقرب ما يكون إلى العبادة. وأصبح يجب ابنتها (بيتريكس) وابنها (فرانك) حب الأخ الواقف.

وفي أول الأمر كان السلام يرفرف على أسرة كسلوود. ثم حل بها أسف وأسى فإن إصابة بالجدري قد شوهمت وجه ليدي كسلوود، فوجد زوجها عزاءه في أحضان امرأة أخرى لكن فتور الكونت نحو زوجته لا يمنعه من أن يغار حين يحاول التودد إليها رجل آخر يقال له لورد موهون، فتحدى لورد موهون إلى المباراة، وإذا كان هنري قد بلغ مبلغ الرجال فقد حاول أن يحارب مكان سيده. لكن الكونت عقد العزم على الثأر لنفسه بنفسه. وفي المباراة قتل واعترف الكونت قبل موته مباشرة أن هنري اسمند هو الابن الحقيقي لتومس كسلوود. لذا فهو المالك الشرعي لأملاك كسلوود، لكن إخلاص هنري لليدي كسلوود وولديها كان أعظم من حبه للمجد الشخصي. فأحرق الاعتراف وظل خادماً في المنزل، بل ظل خادماً بغيضاً أيضاً، فإنه لمستلق أنثنته الجراح التي أصابته في المباراة إذ تتهمه ليدي كسلوود بأنه هو الذي جلب الموت على زوجها. ولا يقوى هنري على احتمال الحياة في تلك الظروف، فيتطوع في الجيش ويحارب ويصاب بجراح تحت امره مارلبرو، ثم يرقى تدريجاً حتى يصل إلى رتبة القائم مقام، ويصبح ياورا للجنرال (وب).

وأخيراً يقابله معلمه الأب هولت وهو يحارب في الأراضي الواطئة، فيخبره القسيس بحقيقة أصله. فإن أبا هنري، الكونت توماس كسلوود

قد تزوج من أمه - وكانت ابنة نساخ - ثم هجرها. وقد توفيت في دير، وأخذه أبوه

إلى منزله كما يؤخذ اللقيط ليربي صدقة وإحساناً.

ولكن هنري ما برح يحتفل بسر أصله لا يبوح به لأحد. فواجهه ألا يؤدي من يجب. وإن كانوا لم يعودوا يبادلونه الحب. وكان يصلي ذات يوم بكنيسة ونشستر ففرح بأن دعاه قد أجيب. فإن ليدي كسلوود لتقف هناك قبالتة. ولا تلتقي عيناها حتى يعاود قلبيهما ذلك الود القديم.

وتعود الآن إلى قلب هنري اسمند عاطفة جديدة. فقد أحب بيتريكس حباً قاهراً غالباً. وهي الآن في السادسة عشرة من عمرها تعمل وصيفة شرف بالبلاط الملكي. وهي عادة غنجه مدللة كأفتن العيد اللاتي صدعن قلوب الرجال، وظل هنري عشر سنين لا تريم عنها آماله.. ولا جدوى.

فليس بها أقل ميل إلى هذا الجندي الذي لا مال لديه ولا لقب. بينما كثير من رجال الحاشية اللامعين قد خفضوا الجناح لنار سحرها فاستشاط منهم الجناح. فيجد حب هنري القديم لآل كسلوود مخرجاً جديداً وقتئذ. هو الولاء لأخي بيتر يكس ويدعى فرانك. وهو صبي يشابه أخته في الإغضاء عن العواقب والسحر والجاذبية. حارب معه هنري وحماه في معارك كثيرة. وتوفر على تربيته. واهتم اهتماماً ألبياً لا يخلو من توجس بزواجه من نبيلة هولندية تكبره كثيراً في السن.

في تلك الأثناء كانت بيتر يكس ماضية في مسلاتها التي لا تخلو من أمال.. مسلاة تحطيم القلوب. ووصلت الآن إلى تحطيم قلبها هي. فهي تجاوز ربيع جمالها مسرعة وتظل على ذلك غير متزوجة. كان الرجال يهيمون بها عشقاً ثم يخطبونها ثم يتركونها في طلب صيد أصلح. ولكنها أقامت على رفضها هنري اسمند رجاء أن تصيب خيراً منه.. وأخيراً وجدت ضالتها المنشودة.. في دوق هملتون وهو أرمل له من المكانة والعمر ضعف ما لها من المكانة والعمر، واستسلم هنري اسمند لمصيره، وقدم لها هدية زواج عقداً من ألماس جميلةاً كان قد أخذه من ليدي توماس كسلوود، زوجة أبيه (الثانية).

لكن دوق هملتون يرفض الهدية. ويصر على ألا تقبل عروسه هدية من رجل ليس له

لقب ولا جاه. فأجابت أم بيتر يكس وقد تولاهما الغضب: إنه صاحب لقب فهو الابن القانوني للكونت كسلوود، وهو الوارث الشرعي لأملاكه وما نحن إلا صنيعة إحسانه، وشرحت السيدة النبيلة كيف سمعت قصة أصل هنري من الكونتيسة العجوز- وأن هنري لم ينس بنت شفة عنها لأي إنسان. وكانت ليلة زفاف بيتر يكس إلى دوق هاملتون. فقامت مبارزة بين الدوق واللعنة التي صبت على آل كسلوود من قديم، متمثلة في لورد موهون ويقتل هملتون في المبارزة وتترك بيتر يكس وحيدة مرة أخرى.

ولكنها لا تزال ترفض هنري. فإن رجلاً آخر يهفو لها ويميل... وهو خير ما تمياً لها من صيد.. هو أمير ستوارت الشاب الذي يطالب بعرش إنجلترا. ولكن الأمير كان يجب أن يتخذها خليله لا حليله، وكان هنري اسمند وفرانك كسلوود، أخو بتر يكس من أنصار الأمير ستوارت، فإذا عرفا نوايا الأمير حطما سيفيهما ولعنا الأمير وتركاه لنهايته السيئة.

فإذا هرب الأمير وبيتر يكس إلى فرنسا كان جولندن يتجاوب بالصيحة المكهربة "ماتت الملكة آن. يحيا الملك الجديد جورج هانوفر" أما هنري اسمند والسيدة كسلوود فقد تاب كل منهما إلى صاحبه يلتمس العزاء والسلوى وأثمر العزاء والسلوى حباً وزواجاً. فإن حب السنين الخوالي قد بعث جديداً "ذلك بأن الحب القديم هو الحب الجديد وهو خير حب".

- ٥ -

كانت خبرة تاكري بالحب القديم أشبه بخبرة هنري اسمند بالحب القديم ذلك أن ديكنز كان من أقدم صحاب تاكري وخيرهم. ولكن نشب بينهما خلاف. وأن المتنافسين في الأدب لتكفي شرارة لأن تلهب بينهما نار الشقاق.. وظل الصديقان سنين طويلة لا يتبادلان الحديث. ثم حدث ذات مساء، وكان تاكري قد بلغ الثالثة والخمسين، أن تقابل الرجلان على درج الأثنيوم فمد تاكري يده مندفعاً ليسلم على ديكنز. ورد ديكنز عليه التحية... واختفى بينهما الخصام القديم.

وكان تاكري قد علم أن من واجبه الإسراع بتوديع صديقة القديم. فما هي غير بضع

ليال حتى أقبل يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٦٣، فذهب ثاكري لينام نومته الأخيرة.
لقد نادى المدرس اسمه من الثبت فأجاب ثاكري في دعة، كما أجاب الكولونيل
الحبيب نيو كوم في إحدى رواياته "لبيك".

أهم مؤلفات تاكيري

The Great Hoggarty Diamond

The Yellowplush Papers

Barry Lyndon

The Book of Snobs

Vanity Fair

Henry Esmond

The Newcomes

The Virginian

Lovel the Widower

Pendennis

وكثير من المقالات والقصائد

شارلز ديكنز

١٨١٢ - ١٨٧٠

كانت دنيا شارلز ديكنز هي دنيا الأطفال أولى الظرف والطيش والتعثر والخبث والدعابة والتفاؤل. وكان هو واحداً من هؤلاء الأطفال.

ولكن طفولته الشخصية كانت خلوا من الدعابة والتفاؤل. كان ضئيلاً عليلاً قد ساءت تغذيته،

تصيبه بين الحين والحين نوبات من التقلص، فقال أبوه: "لن يعيش هذا الطفل حتى يقاسي المرارة التي يقاسيها الكبار".

وكان أبوه يقاسي المرارة دائماً، وكان يتقاسمها مع أسرته في سخاء وجود.

كان كاتباً في ميناء (برتسي)، يكسب رزقه في بطء فائق، وينفقه في سرعة فائقة فكان عليه دائماً أن يسبح في بحر من الدين يرتفع مده أبداً.

فإذا بلغ شارلز عامه الثاني نقل أبوه إلى لندن. ومعنى هذا ارتفاع يسير في مرتبه وزيادة كبرى في وجوه إنفاق هذا الراتب. ومما زاد الطين بلة أن جون ديكنز لم يكن خليعاً مستهتراً وحسب. بل كان كذلك مخصباً كثيراً. فما مضت بضعة أعوام حتى أخرج إلى الوجود ثمانية أطفال.

وأحال مسئولية إعالتهم إلى رب رحيم. أما هو فقد لاذ بالأمن والسلام في سجن المدينين في (مارشل سي).

في مثل هذه البيئة لم يكن أمام شارلز فرصة للتعلم المنظم. فتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب على ركبتي أمه. وتعلم قليلاً من اللاتينية في مدرسة يملكها القسيس (جيلز). وكان يزور المسرح من حين لحين في حراسة ابن خاله (جيمس لاميرت) وحين

بلغ الحادية عشرة كان قد انتقل من التعلم إلى التكسب.

وكان في أول أمره يريح بضعة بنسات من غناء هنلي للمصطافين في (ليم هاوس) قال أحد المبتهجين من عامة الناس في لندن "ألا ما أشد غرابة هذا الصبي". غير أن شارلز كان يضيع مواهبه في جوب الآفاق.

فالغناء لا يدر ما يكفي أولئك الذين عبس لهم وجه العالم. لذا وجد له أبوه - بمعونة جيمس ميرت - عملاً أكثر مادية. عمل لاصق للأشرطة بمصنع لدهان الأحذية في (هنجر فورد ستيرز).

وكان عملاً كئيباً مملاً يتطلب الوقوف بواجهة المصنع للصلق الأشرطة، من مشرق الشمس إلى مغربها، بينما تقف حشود المارة تعلق على الصبي الصغير ذي الأصابع الرشيقة. لكنه كان يشعر في آخر الأسبوع أنه رجل غني بذلك المرتب الخيالي (ستة شلنات) أي نحو دولار ونصف. وكان ينفق منها بنسين. وما أبهظه من ثمن.. في شراء قطعة من الحلوى البائتة، ويحمل باقي المبلغ إلى أبويه. فإذا كان يوم الأحد خرج للتنزه مع أبيه، وكان قد أطلق سراحه من سجن المدينين حينذاك. فيدعان حياة الجزء الحشن من لندن إلى عالم الخيال. وكان يروقه في أرض الخيال بجي الأغنياء قصر فخم. فقال له أبوه "إنك أن تثابر وتجد فقد تقطن هذا القصر يوماً ما".

فقال شارلز في نفسه "يا له من حلم مستحيل التحقيق".

- ٢ -

وكلما علت السن بديكنز زاد جداً ومثابرة وطموحاً، وهو أن أعجزه أن يعيش في أرض الخيال فعلاً، فلعله مستطيع خلق أرض خيالية، فقرر الاشتغال بالأدب.

وبدأ حياته الأدبية بأن أسس وحرر جريدة في (أكاديمية ولنتجن هوس) وهي مدرسة كان يختلف إليها في فترات قصيرة تتخلل عمله.

وكان هو أيضاً متعهد البيع لجريدته. فعد نفسه رجلاً من أنجح رجال الأعمال، إذ

كان يبيع مجلته (بالبلى) وقطع من أقلام الأردواز. لكن أبويه كانا بحاجة إلى أن يتعيشا بشيء أكثر من البلى وأقلام الأردواز.

فأخرجاه من المدرسة في عامه الخامس عشر وألحقاه بمكتب محام.

ولكن ديكنز لا يجب أن يشتغل بالمحاماة، فقد قرر أن يكون أديباً. فعلم نفسه الاختزال "وأخذ يسجل مشهد الكون، مشهد الإنسانية التي تلهث طرباً وصخباً" وصار يشتغل في عامه العشرين في النهار مراسلاً برلمانياً، ويكتب بالليل صوراً خيالية من حياة لندن. وكان يمهر هذه الصور بتوقيع (بوز).

وقد نشر بعض هذه الصور بلا أجر في صحيفة يقال لها المجلة الشهرية.

ويحدثنا عن نفسه حين رأى أولى قصصه بتوقيع (بوز) مطبوعة منشورة. أنه ولى وجهه شطر قاعة وستمنستر "ولبت فيها نصف الساعة، فإن عيني قد أغشاهما السرور والزهو بحيث لا يحتملان ضوء الشارع".

وكان (بوز) الشاب يحيا في هذه الأيام حياة ممتعة مليئة بالحوادث زاخرة بالجهد الذي لا يكل. فهو في ساعات العمل أعنف المزاممين وأشدهم مراساً. وهو في ساعات اللعب أكثرهم بشاشة وأوفرهم مرحاً. ويقول عنه لي هنت (وقد أخذه العجب) "أي وجه ذاك الذي يلقاك به في حجرة الاستقبال. إن به من الحيوية والروح مثل ما في خمسين إنساناً مجتمعين".

ومع ذلك فإن ما في وجهه من الحيوية والروح، أو قل إن ما في جيبه من المال لم يكن يكفيه كسب الشخص الوحيد الذي يحبه ويؤثره على كافة الناس. وهو ابنة أحد مديري المصارف، ماريا بيدنل "إن ديكنز شاب لطيف لكنه أديب، فهل يستطيع أن يعولني بقلمه؟".

وهكذا فقد ديكنز ماريا، فتزوجت رجلاً أغنى منه لم يلبث أن أفلس بعد أعوام قليلة. وثابر ديكنز على كتابة القصص فأصبح من أغنى رجال إنجلترا.

وقد نزل أول الغيث على ديكنز في أوائل الحلقة الثالثة من عمره. ذلك بأن (صور بوز) قد لفتت إليه أنظار الناشرين "شابمان وهول" فتعاقدا معه على كتابة تعليقات شهرية حول صور هزلية يرسمها الفنان الشعبي روبرت سيمور. وقد طلبت هذه التعليقات كما يطلب ركن تقليدي محرر بالأجر. لكن هذه التعليقات التي جرى بها قلمه، قد استحوطت إلى أوراق بكوك الخالدة. ولم تجد الأعداد الأولى من (أوراق بكوك) كثير رواج. لكنها بعثت فيه الشجاعة على أن يتزوج مختارته الثانية من النساء، كاثرين هوجارث.

ثم أصابته صدمة مفاجئة، هي انتحار روبرت سيمور، ثم ومضة مفاجئة من ومضات السعد، إذ صار الرسام الجديد هابلوت نيت إرون الذي يوقع باسم: (فز).

وكتب النجاح لأوراق (بكوك) منذ ذلك الحين، فقد تعاون (بوز) و (فز) تعاوناً تاماً، وصار كل منهما يستفز صاحبه إلى قمم من اللغو السامي، فألفت مقطوعات تبكي إذ تضحك وتضحك إذ تبكي.

ولقد اضطر كذلك أن يبكي إذ يضحك حين كتابة أوراق بكوك. ذلك بأنه فقد ماري هوجارث شقيقة زوجة التي كانت تقيم معهما منذ الزواج. فظل شهرين لا يستطيع مواصلة كتابة سلسلته. وقال الناشر يفسرون تخلفه "منذ ظهور العدد الأخير من هذا المؤلف منى الكاتب بفقد شابة من أقربائه عزيزة جداً عليه، تربطه بها صداقة وثيقة ومودة وطيدة، وكانت صحبتها عزاء له في كده زماناً طويلاً".

ولم يبرأ براءً تاماً من حزنه، حتى أن كل ما كتبه من مشاهد الموت فيما بعد لا يعدو أن يكون بعثاً للجرح القديم. فإذا عاد إلى أوراق بكوك كان شيخاً حزيناً حكيماً في الرابعة والعشرين من عمره.

وكان هوى لندن. فقد أزينت المدينة بقبعات بوز، وأربطة بكوك، وقماش سام ولر. كتب أحد المعاصرين "ليس في إنجلترا مكان الأوجه (بوز) فدكتور بنيامين برودى يصطحبه في عربته من مريض إلى مريض، ولورد دثمان يطالع بكوك على المنصة بينما

المخلفون يتفكرون. ويقول رجل لقسيس وقد أوشك على الموت: "أحمد الله.. إني أستطيع الموت في سلام، فقد فرغت لتوي من قراءة الحلقة الأخيرة من بكوك".

وكان من أثر ذبوع شهرته أن أغرقة الناشرون في بحر من العقود.

فتعاقدوا معه على كتابة المقالات والأقاصيص والقصص. وكان يقبل كل شيء "فما أقصر الحياة، وما أزر مخيلتي بشخصيات تضرع إلى أن أخرجها إلى الحياة، وكان الإجهاد يقتله. فإنه يكتب في عام واحد، وآن واحد، ثلاث قصص طويلة ويمرر مجلة، ويخط في ساعات فراغه مسرحية غنائية قصيرة ورواية فكاهية.

ويقفز في المساء فقزته الحبيبة إلى المجتمع.. لا مجتمع النبلاء، بل مجتمع المثقفين الذين هم في الأرض بمثابة الملح في العام. ومن أمتع ما رسم ديكنز من الأشخاص شخصه الباسم كأنه زهرة متفتحة في حجرة الأضياف، وقد تألق في صدريته الزرقاء الفاتنة وسرواله الأزرق الفاتح.

ورباط عنقه القرمزي، وعينيه اللتين تشعان على كل فرد وعلى الجمع نوراً ينطق (ألا فليبارك الله).

لقد أحرق شمعة حياته من طرفيها جميعاً، وأبججه شهود الوهج، وأسرف على ماله وصحته، وأكثر من كتبه، وزاد من شهرته وضاعف من عدد أسرته، لكنه ضاعفها من امرأة لا يحبها. ولم تكن كاثرين دميمة الجسم، بل كانت خرقاء العقل غافلة. فهي تحك ذقنها في كل كرسي تمر به. وتثور لدواع تافهة. وترتاب في صاحبها. وتتناها ثورات مفاجئة ليس لها مبرر. ويقتضينا الإنصاف أن نذكر أن هذه الصورة هي ما نراه بعيني ديكنز.

ولا ريب أن لديها ما تقوله لكنها- وا أسفاه- لم تؤت براعة زوجها في عرض وجهة نظره. ومع ذلك فلا بد في زوجة رجل نابه عبدته نساء إنجلترا أجمعين من أن تكون على حظ من اللباقة غير عادي. ولم يقسم هذا الحظ لكاثرين ديكنز.

ومهما يكن من سبب لهذا الشقاق بين الزوجين، فقد كان على ديكنز أن يمزج بحساء النجاح الدسم مرارة الشقاق الزوجي. ورضي عن طعم هذا الحساء وواصل عمله.

وقام في عامه الثلاثين برحلته الأولى إلى أمريكا.. وقد بدأت هذه الرحلة بشوق وتلهف من الطرفين، وانتهت بالجفاء وخيبة الأمل من الطرفين.

فبعد أن جال جولة مظفرة بين المحاضرات وحفلات العشاء وتهليل الناس له في بوستن ونيويورك وفيلادلفيا وبلتيمور ووشنطن وغيرها من المدن الأمريكية الكثيرة، أخذ يتبدى له العالم الجديد، وأخذ هو يتبدى للعالم الجديد، مهرجاً عاطفياً محتالاً. فالألقة بينهما أثمرت الازدراء المتبادل. وكان كلاهما يميل إلى التهويل في أخطاء الآخر. فهو يقول لقد تعود الأمريكيون الإسراف في البصق ثم يقول في وصف ما شهد مرة في أثناء رحلة بالقطار (لقد طارت قذائف من البصاق في استمرار متصل من النوافذ على طول الطريق حتى بدا كأن حشايا من الزغب قد فتحت من وراء النوافذ، فعصفت بها الريح) وتشكو أمريكا ديكنز هي الأخرى

فتقول: (إنه يعض اليد التي تصب المال في جيبه صباً، فيا له من طفيلي كفور).

وإذا كان كلاهما يهول في عيوب الآخر، فإن لكليهما كثيراً من الحق في شكاته. فلقد قاسى ديكنز من قرصنة الناشرين الأمريكيين، لأن قانون الملكية الأدبية الأمريكي قد سمح بنشر كتبه في هذه البلاد دون أن يدفع له مقابل. وهو يشير إلى هذا الإجحاف في كثير من محاضراته فيعترض سامعوه على إثارة مشكلة شخصية في اجتماع عام. لذلك كان فراقه أمريكا داعياً إلى أن يتنفس الجميع الصعداء. وقال أحد المعجبين به مازحاً: (أود أن يكون مستر ديكنز والأمريكيين فرحين بهذه الصفقة).

عاد ديكنز إلى إنجلترا يخوض سلسلة طويلة من المعارك من أجل المستضعفين والمعديين في الأرض، وكانت معارك بهيجة، خاضها بسلاح القصص، بقلم ساخر، وقلب شاعر. جعل يعنف ويلوم ويمنع ويهدد وينذر ويعري الحكومة الإنجليزية بالإصلاح أثر الإصلاح.

ويقول تاكري في شيء من التعلل الحاقد أن قصص ديكنز قد كتبت لقوم كبار، لهم

عقول الصغار. فيشكره ديكنز على ملاحظته تلك ويقول (هذه هي الحقيقة بالضبط،
فإني أكتب لبني الإنسان) وهو جنس أميل إلى الغباء منه إلى الشر.

وإذ كان الرجال أطفالاً ملتحين فحسب، فإنك تستطيع أن تثير ضحكهم من
حمقتهم، بأن تريهم معرضاً هزلياً لصورهم في مواقف خرقاء. وأن الجولة في قصص ديكنز
لأشبه بجولة في معرض للمرايا المحدبة والمقعرة، رأيت إلى كل هؤلاء الناس ومهازهم
المضحكة: ميكوبر، بكوك، ولر، سارجنت بوزفوز، شارلس شربيل، سميك، سميرز،
كويلب، سكروج، ديك سويفلر، بوب كراتشيت، توم بنش؟

وهل هؤلاء إلا أنفسنا كما نترأى في مرايا المعرض؟ إن أسماءنا نفسها تنقلب
وتنعكس فتأخذ أشكالاً مضحكة. لكن يا له من وصف صادق، ويا لها من صور خالدة
لن تمحي من ذاكرتنا، أنظر إليه كيف يستطيع في كلمات قليلة أن يخلد صورة لرجل "لقد
ظل (جون شزلوت) يحشد كل نفيس في خزانة منيعة، حتى حشد جثمانه غير النفيس في
خزانة منيعة، هي التابوت".

لقد قيل إن إنجلترا قد أنجبت اثنين من أكبر فناني العالم، هما "رينولدس" راسم الجسم
البشري، و "دكنز" الراسم الهزلي للروح البشري.

- ٥ -

لكن ديكنز كان أجل من رسام. فهو قصاص بارع، ينسج خطة القصة في سهولة
أثارت حقد تاكيري الذي كان يفوقه من حيث الفلسفة ويقصر عنه من حيث الخيال
"عبثاً أحاول سبق هذا الرجل أو محاذاته" كذلك قال يوماً مؤلف سوق الغرور "إني لا
أستطيع أن ألمسه أو ألحق بعباره".

على أن شتى قصص ديكنز يوجد بها شيء من حياته. قال أحد معاصريه: "لكن
هذا الرجل قد شهد كل مكان وعرف كل إنسان وشاركه تجاربه". فكل قصة تشير إلى
رحلته في العالم جسماً وروحاً. ويصدق هذا الوصف على قصص شارلز ديكنز عامة،
وعلى دافيد كوبر فيلد خاصة.

قال ديكنز: إن شئت أن تعرف سيرتي فاقراً دافيد كوبر فيلد.

لكن يجب أن نؤكد أن هذا الكتاب هو رواية خيالية لحياته "أما التفاصيل الحقة لحياتي فاحتفظ بها لنفسي"، كذلك قال لمن نقل دافيد كوبر فيلد إلى الفرنسية فدافيد كوبر فيلد: صورة هزلية لديكنز كما يرى من خلال عبقريته المازحة. إن الأحرف الأولى نفسها لدافيد كوبر فيلد D.C

هي مقلوب الأحرف الأولى لشارلز ديكنز (C.D) وكان دافيد من أبناء الفقر كما كان شارلز، لكنه يخالف شارلز في أنه اضطر إلى العيش مع زوج أم قاس يدعى (ادوارد ميردستون) فإذا بلغ دافيد وشارلز سن الحادية عشرة، أخذ كل منهما يعمل في مصنع لدهان الأحذية.

وهنا أيضاً يختلط الخيال بالحقيقة. فإن دافيد آبان اشتغاله بالمصنع يسكن مستر (ولكنز مكوبر وزوجته) وسلالتهما من صغار الأطفال. وكان منزل مكوبر هو في الحقيقة منزل أسرة دكنز وولكنز مكوبر هو أبو شارلز.. وهو رجل محبوب قليل الحول عنيف، يؤمن إيماناً أعمى برحمة السماء. رجل يتوقع أن يأتي الخير بغتة، ولكنه لا يحرك قط أصبعاً ليعين على إتيانه. وقد ضيق عليه دائنوه الخناق، حتى ألقى به في غيابه سجن المدينين. ويتكرر وقوعه في قبضة مستغلين لا يتورعون. وتمكن أخيراً بمعونة خالة دافيد من أن يبدأ حياة جديدة في أستراليا، وكان هذا أغلب الظن هو ما يتمنى شارلز ديكنز أن يقع لأبيه... أن يكون سالمًا معافي محبوبًا، لكنه بعيد عن بصره ما أمكن. لأن جون ديكنز، كان لا يني عن تبديد مال ابنه وبعث القلق والارتباك في عقل هذا الابن.

وباقى القصة أيضاً نسيج بارع يضم الحقيقة والخيال. فدافيد-كشارلز- يشغل كاتباً لدى أحد المحامين، ويتعلم الاختزال ويصبح كاتباً ناجحاً. ويتزوج من امرأة ضئيلة لطيفة فآتوة العواطف.

وهنا يقف التشابه بينهما مرة أخرى. فدافيد يفقد زوجته ويبنى بامرأة أكثر ملاءمة له. وهذا ما قد يفسره المحدثون في تحليل النفس بأنه تحقيق رغبة لشارلز ديكنز.

أما باقي القصة. وهو زواج الخادمة (بيجوتي) للحوذي (باركيس) المطواع أبدأ، ونفاق وافتضح (أور ياهيب) وخيانة اميلي الصغير وموت حببها (هام) حين يحاول إنقاذ خانها (ستيرفورث) الذي خانها لما تحطمت السفينة.. فكل هذه الفصول والشخصيات مبعثها الجانب الخيالي من حياة شارلز ديكنز.. ومع أنها خيالية، فإن هذا لا يعض من صدقها عند المؤلف. فإنه من الصعب أن ترسم الفواصل بين الخيال وعقل الفنان المبدع. وأن ديكنز ليقول "إني أحياء مع كل شخصية من شخصيات قصصي".

-٦-

وكلما علت به السن، زاد حبه لصحبة الناس. فلقد صارت حياته دوارة من تلك الدورات المثيرة للمرح. فهو أبدأ يؤلف كتباً جديدة ويعقد صداقات جديدة ويتعلم في الرقص خطوات جديدة.

وتحدثنا ابنته أنه تعلم مرة خطوة معقدة صعبة. فإذا كان منتصف ليلة باردة ففز من مخدعه وأخذ يدرّب نفسه عليها في مصاحبة نغمات صفيره، مما أثار عليه أفراد أسرته الذين أيقظهم من سباتهم.

أنه طفل غير مسئول، فيه قلق وفيه تقلب وفيه إسراف. ما أسرع ما كان يرد إليه المال وما أسرع ما كان يصدر عنه. كان يدري أن حياته دوار سكرى. وكان يتهج لذلك فهو يقول في تباه واعتزاز. إن ثلاثة أرباعي جنون والربع الباقي هذيان. وإن عقله الذي جاب من الآفاق ما لم تستشرفه معظم العقول الأخرى قد دخل الآن في طريق جديدة مثيرة. وسار في أثره جسمه العاني غير عابئ بالعواقب. فجعل من نفسه مخرجاً مسرحياً ومديراً للإنتاج وممثلاً، وجاب الريف ذهباً وجيئة مع نفر بلغوا من الجنون ما بلغ، يحيى التمثيليات القديمة، ويكتب أخرى جديدة. ويغازل في مرح، مخلفاً وراءه في كل مكان آثاراً من الحب والضحك.

وكان أحب شيء إليه إخراج تمثيليات للأطفال. ذلك بأنه خير من يفهمهم وهم خير من يفهمونه.

ومهما تبلغ شواغله من الكثرة والإلحاح، فإنها لا تعوقه عن تسليتهم. فكان بيته مليئاً بالأطفال دائماً. فقد بلغ عدد أولاده الآن عشرة، دحك من رفاقهم الصغار الكثيرين الذين يأتون لزيارتهم "وكثيراً ما كان العم بوز يقطع الجملة من وسطها لينصرف إلى مداعبة الصغار دعابة عنيفة" كما تقول ابنته.

إن ديكنز في موقفه من الأطفال ليتبدى في أشد حالاته مرحاً وأشدّها رقة. كذلك حدثنا أحد أصحابه إنه كان يجوس وإياه خلال الأحياء الفقيرة ذات ليلة باردة من ليالي الشتاء، وكان الفجر يقترب والزهمير القارسي- يكاد يقتحم جسمي وينفذ مني إلى صميم عظامي "وكنا نمر بنزل فقير، فما هي إلا أن رأته يختطف طفلاً صغيراً من بين ذراعي أمة السكري المسكينة ويحمله إلى داخل النزل بما كان عليه من قذارة، ليمنحه الدفء والعناية".

وهذا صديق آخر من أصدقائه يصوره في صورة تشبه هذه جمالاً "كان يسير مع ديكنز خلال سوق هرجرفورد، وكان يسير أمامهما أحد عمال الفحم وقد حمل طفلاً يطل وجهه المتورد القدر من وراء كتف أبيه. فغمز ديكنز للطفل وغمز الطفل لديكنز يرد عليه تحيته.. وبعد إذ استقر التفاهم بينهما على هذا النحو اشترى ديكنز كيساً من الكرز من بائع الفاكهة وأطعمها الطفل جميعاً واحدة واحدة دون أن يلاحظ الأب من الملهاة الصغيرة شيئاً".

فالحياة -كلها- كما يعلم ديكنز والأطفال- يمكن أن تحال إلى ملهاة لو أنك نظرت إليها النظرة الصادقة. فإن القدر أيضاً كان يطعم ديكنز الكرز، ويمنحه السرور العظيم، والمذاق الممتع.

ثم أصابه التلبك في آخر الأمر. فقد اشترى ديكنز قصر (جاذهيل) وهو القصر الذي أخبره أبوه مرة أنه قد يمتلكه يوماً ما إذا هو جد وثابر. وامتلاك هذا المنزل والسهل عليه يتطلبان مزيداً من المثابرة والجد، ومزيداً من الأصدقاء والتسليّة، ومزيداً من التنغيص على زوجته والانفصال الحاسم منها آخر الأمر.

وتبع ذلك انخيار في صحته، لكن عمله متواصل لا ينقطع. فنفقان تزايد، والجمهور الضامى يتصايح يطلب المزيد من قصصه ورؤية شخصه. وتعاقد على سلسلة من الجلسات يقرأ فيها رواياته على الجمهور.. في إنجلترا وأمريكا وكان يصيب في كل مكان غدقاً من الذهب وضجيج الاستحسان.

كتب من أكستر إلى صديق له في لندن "لم أشهد شيئاً قط كالحب الشخصي الذي يغدقوته علي" وهذه امرأة توقفه في شارع بنيويورك وهي تقول "مستر ديكنز هلا أذنت لي في لمس اليد التي ملأت بيتي بعدد كبير جداً من الأصدقاء) ويبدو أن كل من قرأ قصصي متلهف على أن يسمعي أقرأها من جديد.

ولا عجب. فهذا الرجل، كما قالت سيدة من بوستن، هو ساحر لا ريب في ذلك، قد اجتمع فيه رهط كامل من البشر. فهو يكاد أن يبدل بجسمه جسماً آخر كلما انتقل من شخص في القصة إلى شخص آخر. وأن له من الأصوات مثلما حوت كتبه من الأشخاص. وأحياناً كانت عاصفة جائحة من الاستحسان تعصف بالجمع كله، فما كان شيء يوقف الضحك وانجاس الدموع، واصطفاق الأكف، والقرع بالأقدام، والهناتفات الداوية المحمومة "أعدّها ثانية أعدّها" ثم "أعدّها أيضاً".

وكان ديكنز يرد المعجبين إلى الهدوء بإعاداته، ويجمع ما كسب، وينزف قوته نرفاً، ويعود من رحلة في أمريكا استغرقت خمسة أشهر وقد حمل جيبه مائة ألف دولار - وحمل وجهه طابع الموت.

وإذا كان قلبه ما برح قلب طفل، فإن جسمه غدا جسم شيخ طاعن في السن. كتب أحد أصدقائه في مذكرته (إن أقل استشارة لشعوره تدفع بالدم إلى يديه حتى لتضربان أحياناً إلى السواد. وتلبك هضمه بحيث لم يستطع أكل الطعام اليابس، فكانت قائمة طعامه اليومي تشتمل على قدر يسير من القديد المبلل في القشدة، وقدر من حساء البقر، وكوب من نبيذ شري، ومشروب (اجنوج) مضافاً إليه قليل من الروم ليضفي عليه طعماً لا يعافه. وكان أبدأً مصاباً بالأرق، ويستشعر في قدمه اليسرى خدرًا خاصاً

"كأن جزءاً مني قد مات فعلاً".

لكنه لا يني عن مطالعته خلال الربيع من عام ١٨٦٩. ثم يقضي راحة قصيرة في منتصف الصيف، ويستأنف المطالعة خلال الخريف والشتاء من ١٨٦٩ والربيع من عام ١٨٧٠.

ثم تقصر قوته عن بذل الجهد. فهو يقول في آخر مرة ظهر فيها على الناس "إني لأتوارى عن هذه الأضواء الزاهية إلى الأبد.. فوداع محزون شاعر بالفضل قادر للجميل يحمل لكم الحب والأكبار".

وما هي إلا بضعة أسابيع ثم ظهر لأول مرة أمام جمهوره الجديد، جمهور خالد من الأطفال المرحين (وهل تحوي مملكة السماء غير هؤلاء).

أهم مؤلفات ديكنز

Pickwick Papers

Oliver Twist

Nicholas Nickleby

Barnaby Rudge

The Old Curiosity Shop

Martin Chuzzlewit

Our Mutual Friend

Dombey and Son

David Copperfield

Bleak House

Hard Times

Little Dorritt

A Tale of Two Cities

Great Expectations

فيودور ميخائيلوفتش دوستوفسكي

١٨٢١ - ١٨٨١

كان آل دوستوفسكي في أول أمرهم أسرة كاثولوليكية من لتوانيا- يجري في عروقتها دم أهل الشمال- وإذ كانت قد تحدرت من أصلايه قسيس أرذوكسي يوناني، فقد تميزت بالكبرياء والتزمت والورع، والفقر المدقع. لقد كانوا مشوقين إلى كلمة الله والى الخنطة، وقد رحلوا إلى أوكرانيا، وغيروا ديانتهم إلى ديانة أكثر انسجاماً مع دمهم الإسكندناوي والتمسوا الطعام والجواب الأبدي على سؤال الروح الأبدي. لقد كانوا رهطاً أولى عقول، قد يذهبون إلى أي مكان عفو الخاطر- إلى الجنة أو إلى اللعنة، ولكنهم لا يذهبون أبداً في غمرة الحمل.

ولد فيودور عام ١٨٢١ من هذه السلالة العجيبة من الكاثوليكية الإسكندناوية التي يكسوها الجلال. وكان أبوه من هيئة الأطباء بمستشفى للفقراء. وقد أوحى هذا الموقف إلى الصبي بأن وجود أولى العقول ليس مرده إلى عقولهم بل إلى أنهم أطباء للفقراء. وأن موسكو في الشتاء لتدخلها ريح لا تكتفي بأحداث صغير موسيقى في الأذن بل إنها لتصمى القلب كأنها السيف.

وكان مستشفى دوستوفسكي زاخراً بألوان قسوة الطبيعة بالإنسان وفي الصيف حيث تدفأ الريح، كنت ترى أطفالاً ذوي رجل واحدة، ورجالاً طاعنين في السن يموتون موتاً بطيئاً من أثر القذارة والمرض. يطلعون في حديقة المستشفى المجاور لمنزل فيودور، كأنهم علامات الاستفهام قد جن جنوبها على صفحة الطبيعة الباسمة.

كانت حديقة المرضى هذه أولى ذكريات فيودور، ولقد فطن في سن باكراً للتناقض العجيب في أمر الحياة، شقاء الإنسان وسط بهاء الطبيعة. وهذا الصدام بين متناقضات الحياة هز منه أعماق الفؤاد.

وكان جدار مرتفع يفصل بيت فيودور عن الحديقة، ولكنه لا يستطيع المشي حتى يختفي الحاجز بينه وبين هذا الجمال، وهذه الشقوة. إذ كان بالجدار باب ففتحه.

ثم كان مساء. فإذا أبوه تآثر مستشاط اللب، يقفل الباب في وجهه بعنف، ويخبره ألا يعود إلى فتحه أبداً. ولكن فيودور كان يعلم أن الباب في انتظار أن يفتح بيد أحد الناس، ممن يتحدون الضرب بل ويرحبون به، وقرر أنه ما بقي أبوه على احتفاظه بالمفتاح كأنه السجن، فسيقوم بضرب نفسه ثلاث مرات يومياً التماساً للسرور الذي يحظى به في المعاناة، مع هؤلاء العانين على الجانب الآخر من الجدار، العانين وسط مجالي الجمال.

إن على الإنسان أن يألم لكي يتنزه في حديقة، وكان الدكتور دوستويفسكي شديد الحزم في معاملة فيودور وأخيه ميخائيل. فحيثما كان باب في الجدار سارع بإغلاقه، وإذا لم يكن جدار سارع ببناء جدار، ولم يسمح للصبيين بمصاحبة أي إنسان من خارج الأسرة. ونجم عن هذا الحزم أن صار فيودور صيباً متوحداً.

فلما التحق بمدرسة الهندسة في بتسبرج في السادسة عشرة من عمره ظن المدرسون والطلاب أنه متعطر. فلم يكن له من رفيق غير أحلامه (إني أحلم بالعظمة والجمال. إني أحيأ في دنيا الأحلام وسأكتب مسرحية عاطفية).

إنه يعيش في عالم المعاني المجردة. بعد إذ حال أبوه بينه وبين العيش في الواقع الملموس.. فما عساه يعلم عن المسرحية العاطفية؟

لقد كان أبوه ينهي ابنه المتورع عن ذكر النساء إلا في الشعر المسرحي وفي سن السادسة عشرة كان الطلبة الروس الشياطين بمدرسة الهندسة يعرفون كل شيء عن النساء. فجعلوا يعيرون ذلك الشاعر الراهب الصغير ذا البشرة البيضاء الذي يعيش بينهم.

ولكنه لم يلبث أن تسللت إليه الصداقة عن طريق ممنوع. فلقد قابل بعض الأدباء ممن هم على شاكلته وكانوا مثله حالين، يقرءون بوشكين ويكتبون الشعر، وكانوا أحياناً يلتسمون صحبة النساء، ولكن هذه الصلة لم يشعر بها أبوه. "أقم حولك سياجاً واحذر

أن يعديك زملاؤك".

وكان فيودور قد كتب إلى أبيه يرجوه أن يبعث إليه بقليل من المال، يتناع به بزة جديدة، ليتعشى في راحة مع أصحابه.. نعم.. وليأثم قليلاً. فلم يتلق فيودور على كتابه غير رد شديد غاضب. وكان أبوه قد انتقل من المستشفى إلى ضيعة ريفية وشكا من أن نفقات هذه الضيعة تستنفد كل موارده. وقال أن ولديه سيكونان متسولين بعد موته. ما لم يكفا عن طلب المال.

ولاحظ فيودور أن الخط مضطرب، فظن ذلك راجعاً إلى إسراف أبيه في شرب الفودكا، وكان مصاباً بإدمانها. وتلقى ذات يوم خطاباً من منزل أبيه، لا بهذا الخط المضطرب الباعث على الشفقة، بل بخط شخص آخر، وقد جاء بالخطاب أن أباه قد سافر للإشراف على بعض أملاكه فلم يعد..

وقد وجد مخنوقاً تحت وسائد عربته.. أما الخوذي فقد اختفى مع الخيل. وسرى همس بأن ما حدث إنما كان انتقاماً من جانب رقيق الأرض الذين لم يعودوا يصبرون على قسوة مالك الأرض دوستوفيسكي. وجرت الشائعات بأن كثيراً من القرويين قد اشتركوا في المؤامرة.

لم يجر فيودور اسم أبيه على لسانه مرة أخرى. ولكن مصرع دوستوفيسكي الأكبر والسبب المرجح لاغتياله قد أحدث اضطراباً عنيفاً في روحه، وكأن لعنة قابيل قد صبت عليه، فأرسل بصره في الظلام.

- ٢ -

وكان الليل زاخراً بالرؤى التي ائتمرت به، وأزعجته، وأشارت إلى مغزى عظيم. فسطر هذه الرؤى على الورق. قصص نفسية عن المغامرات، وهي مسرحيات لم تمثل خارج شخوصه بل في داخلها. وهذه صورة مجردة قد اتخذت صورة وحش عقد به ناظره. إنه الشعب الروسي. لسوف يفهمه ويعمل له ولا يألو في خدمته جهداً. لسوف يحمل النار والماء لعقربيته.. ويتعهد حتى يبرز ملامحه من سمت الرأس إلى أخمص القدم. إنه لم ير

وهو بين المثقفين في بيتر سبرج غير الرأس. والآن فليز القدم.

فقد لاحظ أن هذه الملايين التعسة التي منها تتكون القدم إنما تعبر عن نفسها في حرية مطلقة في الحانة حول كوب من الفودكا. فذهب على حياته ودقة ذوقه إلى حانات بيتر سبرج ليستمتع إلى أبناء ضرة أمنا الأرض. ولم يكن بالرجل الذي يتشجع الغرباء على التحدث إليه. فقد كان وجهه مكتئباً، وكانت عيناه زائغتين. لذلك كان يدعو الناس، لا إلى حديث حول المائدة، بل إلى ملاعبته (البليارد) حيث الوجه متجه إلى أسفل والآذان مرهفة إلى أعلى.

فما أضعفه من لاعب وما أقواه من منصب. لقد خسر المال وكسب الحكمة وذات يوم وقع مخطوط له في يد ناقد روسي حصيف، فأرسل إلى دوستوفسكي وقال له (أيها الشاب: أتدري ماذا كتبت لتوك؟ كلا إنك لا تدري فإنك لا يسعك الفهم بعد).

لقد جعل دوستوفسكي عنوان مخطوطه (الشعب الفقير) إنها قصة الناس الذين لم يخلقوا غير خلق نصفي - قطع بائسة من الصلصال شوهتها أصابع الملائكة الخرقاء، جسموم كسيحة، وأرواح كسيحة، مفارقات إنسانية، معتهون أولو أعين جميلة، عمالقة أولو أطراف ملتوية.

ونظر دوستوفسكي إلى حياة أولئك التعساء فلم يجد فيها عقلاً ولا تناغماً. ثم رجع إلى المثقفين من جديد. فلعلهم على الأقل يعينونه على تبين نظام للخلق، ومعنى للحياة، لعل هؤلاء المثقفين يغيرون وجه المجتمع ويخلعون القيصر في روسيا ويقيمون جمهورية من الأحرار. وإنما الإنسان هو من ينقذ مصيره. وأن على عقل الإنسان أن يعمل لكي يثير قلب الإنسان من الشقوة إلى النشوة.

ويشارك دوستوفسكي في مشاورات الندوات التي كان يجريها هؤلاء المثقفون الأحرار الذين سوف يغيرون جوهر العالم. فيضم صوته إلى صوتهم ضد ظلم رجال الحكومة ويقبض عليه في أحد الاجتماعات. وبعد محاكمة صورية سيق إلى حصن (بيتر بول) في انتظار نهايته مع غيره من المجرمين السياسيين، لقد أسروا بدنه، ولكن أنى لهم بأسر روحه؟

أنى لهم أن يجسوا اللانهاية بين جدران الزنزانة الأربعة؟

وهم الآن يضعونه في عربة، ويسوقونه إلى أرض سيمينوف للتدريب قرابة عيد الميلاد. الهواء حاد وهذه عربات أخرى تصل إلى المكان محملة بسجناء سياسيين آخرين. وهذه فصائل من الجند واقفة في انتباه على أهبة تنفيذ حكم المحكمة العسكرية.. بالموت. وهذا قسيس يحمل صليباً في يديه، يقود السجناء إلى منصة جللت بالسواد. وهؤلاء السجناء يؤتى بهم شرذمة بعد شرذمة أمام فرق إطلاق النار. وهذا فيودور في الشرذمة الثالثة يقدر أن قد بقي له من العمر خمس دقائق. يا عجباً ليقظة عقله في مثل تلك اللحظة.

وما يكاد الجند يرفعون بنادقهم حتى يهرع فارس إلى المنصة، يحمل رسالة من القيصر بالعفو عن المسجونين. لقد خفف حكم الإعدام إلى النفي بسبيريا. وكان هذه دعابة عابسة للقسيس الصغير. وأن أحد المسجونين لا يسمع بالعفو حتى يشرد لبه ويصاب بمس. وآخر يصيح في مرارة (كان القتل أهون) ذلك أنهم كانوا يعلمون أن الموت في الحياة أبلغ إيلاماً من الموت بمعناه المعروف.

- ٣ -

وسيق دوستوفسكي ليلة عيد الميلاد من حصن (بيتر بول) إلى القطار الذاهب إلى سبيريا. وفي المحطة الأولى دفعت امرأة بنسخة من الكتاب المقدس إلى يديه وكان هذا هو الهداية الوحيدة لمسافر صوب هذه الأرض الخراب. ووجد بين أوراق الكتاب المقدس ورقة من ذات الروبيلات الخمسة والعشرين - تكفي لشراء تبغ وثوب كتاني وصابون وخبز أبيض.

ولكنها لا تكفيه أن يتناع السلام العقلي إذ لم يكن يسهل على شاب حضري أحب نعومة العيش، أن يقضي وقته في سترة السجن، وذراعه وساقاه مصفدة بالأغلال. وأن يديه اللتين لم يسبق لها العمل بأي شيء أثقل من القلم، قد قضى عليهما الآن بالأشغال الشاقة.

إن هذا الشاب المسرف في استحيائه، قد ألقى به الآن بين أبشع اللصوص والقتلة في روسيا. وصار رفاقه دائماً هم المفسدون الذين لا صلاح لهم وقد اقتحموا عليه أفكاره، وكادوا يقترفون جرماً أبشع بكثير من كل ما اقترفوه من قبل. ذلك هو جرم ذبح العقل بلا سكين.

ولكن عقل دوستويفسكي رفض أن يذبح فإن مشكلة مصير الإنسانية قد عادت إلى استنارته حين بلغت حيرته المدى. ووجد أن معسكر الاعتقال في سيربيا إن هو إلا قاعة أخرى من قاعات البلياردو في بيتر سبرج.

ثم لاح له أثناء تأمله نور جديد. فقد أدرك أن إصلاح من لا صلاح لهم لا يأتي عن طريق الإنسان بل عن طريق قوة خارج الإنسان. فعاد بهما إلى الكتاب المقدس الذي كان قد وجد بين صحائف الورقة ذات الروبيلات الخمسة والعشرين، التي وفت بشراء الخبز الأبيض، وقد كشف في رسالته عن نوع من الخبز خير وأبقى.. خبز الأرواح الأبيض.. إنه الله منقذ الإنسان مذنباً كان أم قديساً. لكن إذا كان الله ينقذ المذنب فأى خطر في اقرار الذنب؟ الواقع أن الخطيئة إغراء إيجابي، افتراض من رحمة الله، اختبار لكرمه اللانهائي، كما أن طلب القرض من صديق فيه امتحان لكرم الصديق. وهؤلاء المثقفون في بيتر سبورج، الباحثون عن عالم يفوق عالمنا خلقياً، ألم يعلموا أن صلب المسيح لا يكون له معنى ما لم يصلب القاتل بجواره: "فالله يخلق الخاطئ والخطيء يخلق الله، وأن عالماً من الكمال الذكي كالذي يحلم به المثقفون في بيتر سبرج، يوشك أن يقضي بالعدم على الغرض الخلاق لله...".

وكلما زاد دوستويفسكي إيغالاً في التفكير في مشكلة الشر، زاد إدراكه أن جريمة الإنسان ليس معناها شر الإنسان، وأن عقاب المحاكم ليس معناه إرادة الله. "أن من يحيق بهم عقاب البشر ينجيهم الله".

وهذا دوستويفسكي الذي اشترك في نشاط ثوري وهو يأمل مخلصاً إنقاذ الناس تصدر محكمة مخلصاً عليه حكماً بالعقاب جنياً إلى جنب مع القتلة الذين أزهقوا أرواح

الناس. وهنا أومض في خاطره شعور بأن عليه البحث وراء ظواهر الأشياء، لكي يهتدي إلى المنطق الصحيح للأشياء.

- ٤ -

وبعد أن قضى أربعة أعوام في سيبيريا، أطلق سراحه من الأشغال الشاقة، ولكن القانون الروسي كان ينص على أن العقاب لم ينته بعد. فطلب إليه أن يخدم بوصفه جندياً في سيبيريا، وأن يشق طريقه صعوداً إلى رتبة الضابط، قبل أن ترد إليه حريته. فانضم إلى فصيلة من الجند في قرية سمببلا تنسك الصغيرة. وأحب ماريا دمتريفنا، زوجة ضابط الفصيلة، وكانت شقراء شيئاً، متوسطة الطول نحيلة جداً سريعة التأثير متعالية، وكان زوجها في نزع الموت، ولكن فيودور كانت قد اجتاحتها فكرة (لن أتزوج قط. يجب أن أحيا عزياً) ذلك بأن مرضاً خطيراً كان يعاوده في السجن في فترات منتظمة، هو (الصرع) وقد أخبره الأطباء أن هذا المرض يستفحل مع تقدم العمر. وهو الآن قد اجتاز معظم الحلقة الرابعة. وهذه أول مرة يقع في غرام عنيف، إنه حب قد تأجل عن مواعده كثيراً، فأعاد الرجل فجأة إلى جموح الصبية المراهقين.

وسرعان ما مات زوج ماريا، فعمد فيودور، الرجل الذي برئ من مرضه كما كان يدعو نفسه إلى إهمال نصيحة طبيبه، وبني بالأرملة وسرت شائعات السوء بأنها قضت الليلة التي تسبق ليلة الزفاف في أحضان عاشق يصغر فيودور في السن.

وحين سمح لفيودور أخيراً بالعودة إلى روسيا، لفظ الناس بأن عاشق زوجته تبعهما في مركبة تسير في أثر مركبتهما إلى الوطن.

ولكن الشتاء الرطب سرعان ما أصابها بالحمى القرمزية، وصار من الواضح أنها أيضاً موشكة على اللحاق بزوجها في عالم الموتى. وحالت حالها مع الوقت بحيث صار ينكرها من رآها. فلا حاجة الآن إلى الخوف من خيانتها.

وكان فيودور لم يزل يجاهد في حل مشكلة الشر، فرجعت به الذكرى إلى بعيد الماضي، إلى أيام طفولته، وإلى حديقة المرضى، حيث المرضى على جانب من الجدار،

والأصحاء على الجانب الآخر.. إن على المرضى أن يموتوا، وعلى الأحياء أن يحيوا. فإن عواطفه التي طال بها الكبت منعطشة إلى الانطلاق. ووجد ربا لظمنه في أبوليناريا بانكراتيفنا وكانت طالبة شابة تسير في المظاهرات الاشتراكية تحمل علماً أحمر وتنشد المارسييز. وكانت قد استمعت إليه وهو يحاضر. فكتبت إليه أنها تحبه.

وكانت باردة وكانت شبة، وكانت مزعجة، حتى في الحب.

حتى ليكاد مركيز دي ساد أن يكون من تلاميذها في ذلك. إنها قمينة بأن ترتكب الجرائم دون اكتراث أو احتفال. وهي في برود جليد الشتاء، تنظر إلى كل الناس دون أن يمس نفسها منهم شيء، كأنها رئيسة دير في القرون الوسطى. ومع ذلك فلم تشبهها امرأة أخرى في الشهوة والشبق.

أما محبها فكان ينطوي على رجلين، أحدهما يعمل جاهداً للكشف عن مشكلة الجريمة والعقاب.. يرسم خطوطها وشخصها، ويكتب المذكرات ويصف النوافذ القوطية.. إنه يحاول أن يخضع للغة الكلام قصة الطالب (راسكليينكوف) ألم يهب نفسه للبحث عن دخيلة العالم، وأن يحيا ويموت في دير فنه؟

هذه صورة الرجل في وعيه.

أما الرجل الآخر، فطائر على جناح حلمه الخموم، جائل مع (أبو ليناريا) أقطار أوربا جميعاً. وإنما لتصدده وتعذبه وتحمله على الاستمتاع بها وكراحتها على التعاقب. وإنه ليركع أمامها وقد غشت عينيه الدموع ضارعاً إليها الليلة بعد الليلة ألا تطرده من غرفتها. ثم تناهت إليه الأنباء بأن زوجته قد شارفت الموت. فأسرع إليها، وسهر على العناية بها سهرأ متصلاً، وشهداها حين أسلمت الروح.

- ٥ -

وذات صباح أقبلت شابة على دستوفيسكي تلبية لحاجته إلى سكرتيره يملى عليها كتابه الأخير، فنظرت في إجلال إلى وجه الرجل الذي يكتب (الجريمة والعقاب) إلى جانب فراش زوجته المختصرة. فلما تم الكتاب أحس دستوفيسكي بقلق عجيب، ولكن

سكرتيرته (آنا جريجوريفنا) قالت له (فيودور ميخائيلوفتش إن الجبلين لا يمكن جمع شملهما، ولكن الإنسانين يمكن جمع شملهما) وتزوجته.

والجريمة والعقاب: هي قصة (راسكلنيكوف) التي يقرأها العالم أجمع. قصة الشاب اللامع الذي يستيقظ في حلمه، فيقدم نظريات عقلية ويكشف أغوار الخير والشر بعقل نافذ لا يعوقه عائق.

وأخيراً يتمخض عن ذوبان إرادته في صورته العقلية المجردة للإنسان الأسمى، ويقع جسمه في أسر عقله.. فكل ما كتب عنه من الأفكار، وكل ما خطه من مقالات ونظريات قد استحال إرادة آلية تجرفه أمامها. فتدب الحياة في المعنى المجرد حتى ليبتلع ما كان حياً ملموساً، ويحدث تبادل بين الشخصيتين، وما دامت آراؤه ونظرياته قد اشتملت على وجود الجريمة، أبتشع جريمة يسع العقل البشري تصورها، فإنه مضطر إلى أن يقترب جريمة.. يجرفه إلى ذلك قوة عقل عقد العزم على اختبار أفكاره...

وهناك عجوز من عمليات الرهن، كان قد رهن لديها بعض ما يملك فقرر قتلها وساءل نفسه ولم ذلك؟ وأجاب (إنه من أجل ما لها الذي لا غناء فيه للبخيلة، ولكنه أداء لما تحتاجه حياة الطالب مثلي من نفقة).

ووجدت آنا في شهر العسل دستوفسكي مستلقياً في إحدى نوباته، وقد تدلى رأسه من أحد جوانب مخدعه، ولو مضت ثانية بعد ذلك لوقع. وسبق تقلصاته شعور صرعي، وتحول وجهه كله إلى نعمة نشوى، فمسحت العرق عن جبينه والزبد عن شفثيه (واستفاق تدريجاً فقبل يدي وعانقني).

ومضى دستوفسكي في كتابة قصته.. وفي اليوم المضروب للجريمة ينام راسكلنيكوف معظم الوقت حتى يفوت الموعد المحدد. ثم يصحو ويشخص إلى دار العجوز، فيصطنع عذراً لتعطيلها ثم يمسك بفأس. وكان حتى اللحظة الأخيرة يشعر شعوراً قوياً أن الأمر كله غير صحيح وأنه لن تقترب جريمة.. حلم عجيب.. أيهما العالم اليقظ، وأيهما العالم النائم؟ وعلى نحو آلي يشج رأسها بجد الفأس. وكأن الدم الذي ينزف شراب

في سوق.

فتصعد أخت القاتل الدرج، وكان يقدر غيابها فقتلها هي الأخرى وأخذ بعض مجوهرات المرأة العجوز، وحافظة نقودها، لأن صوتاً في باطنه يغمغم له غمغمة متصلة (إنك قتلتها من أجل هذا المال. من أجل هذا المال... لأنك فقير محتاج وهي غنية عجوز لا جدوى لها.. وهذا المال سيدفع بك قدماً في حياتك.. وفي دراساتك).

ثم يلقي بحافظة النقود جانباً دون فتحها، ذلك بأن فكرة جديدة تسري الآن في جهاز عقله (أيها الإنسان الضعيف لا تنتحل الأعذار لتوجد مبرراً مادياً. إنك قتلت هذه المرأة لمجرد أن القتل نفسه قد استهواك. وليس من دافع آخر. إنك قتلت لأنك أردت اقتراف جريمة).

وكان دستويفسكي يذهب إلى المقصف دائماً، يراهن بالمال على الأحمر والأسود. فإن الجموح واللون والخطر كانت تجرفه ولا عاصم، كأنها الحياة نفسها. "وعاد ذات يوم إلى منزله في يأس وقال إنه قد خسر كل شيء، وشرع يرجوئي السماح له برهن بعض الأشياء، فخلعت له قرطي وحلية صدري.. فركع أمامي وقال: إن عليه أن يلعب دون انقطاع.. وعندئذ أدركت أنه ليس بالمقامر العادي، فهو لا يقامر ليكسب، بل لأن به حاجة إلى أن يخسر".

ولكن جريمة راسكلنيكوف لا تختتم القصة إنما هي البداية. إن الإنسان بحاجة إلى اقتراف الجريمة، لا من أجل الجريمة، بل من أجل ما يليها من عقاب.

هذه هي القصة. فهل تريد المضي قدماً في التيه المعقد وراء الخير والشر؟ إن القتل قد اعتبر جنائية غامضة، واعتبر القاتل مجهولاً، ولا مراء أن أحداً في بيتر سبرج لا يتهم الطالب راسكلنيكوف بكل نظرياته الغريبة..

وفي غير وعي وعلى نحو آلي، في هذه الحدود المجهولة بين عالم الواقع وعالم غير الواقع. يعود راسكلنيكوف إلى زيارة مكان الجريمة، ويذهب إلى مقر الشرطة للسم، فتند عنه تلميحات مريبة ويلفت إلى نفسه الأنظار، ويبدل جهد المستميت في اجتذاب

الأُنظار إلى جريمته.

حقاً لقد اقترف جريمته من أجل ما تشتمل عليه من ذنب (ألم أولد محملاً بخطيئة كل من مات وكل من سيولد؟ ما أغى الناس وما أقل بصر القوانين التي سنها الإنسان! فهي لا تعترف قط بالجرائم غير الملموسة التي تخوم في أنثر الروح. فليس قيام الناس بالاعتراف للقسيس لتخليص أرواحهم قاصراً على حالة المشهد المادي للقتل والدم).

لذلك كان على المرء أن يقتل لكي يطالب بالعقوبة التي تورطت فيها الروح ساعة الميلاد، فليرحم الله الرجل الذي يشعر بأثمه وجرمه ولم تلتخ يده بأي جريمة قتل. إنه قد يصاب بمس. ويجز روسكلكينكوف على ركبتيه ويجز الناس أنه قد قتل امرأتين بفأس وهو في حالة هادئة ومع سبق الإصرار (أرجوكم أيها القوم الطيبون ألا تتصوروا جريمة أبشع من هذه في تاريخ القلب) ويصدر عليه الحكم ويذهب إلى سيبيريا وعلى شفثيه أغنية. ما أعجبه من انحراف إنه الآن وقد تلتطخت يده بجريمتي قتل يشعر لأول مرة في حياته أنه بريء كل البراءة، كأنه ملاك يستشهد في نشوة النعيم).

فيهمس دستوفسكي (قل لي هل هناك ألة؟) فيجيب صوت كأنه يخترق الحجب البعيدة، ويقوده كدانتى عبر مهاوي أولى اللعنة (إنما أنقذ الإنسان وجود الشيطان. فعن طريق الشيطان وحده قد كسب الإنسان الضمير).

-٦-

وكان فيودور دستوفسكي يشرب الشاي مع الشبان والشابات اللاتي حضرن لمحدثته في أمر المصير الاجتماعي للإنسان. فلما أعربوا عن حلمهم في عزل القيصر وإقامة جمهورية في روسيا على غرار الجمهوريتين الفرنسية والأمريكية عاد عقله القهقري إلى أيام كان منفيًا سياسياً. في زمرة القتلة الذين استخدموا الفأس والبندقية. وهز رأسه في حزن قائلاً (ريثاً أيها الأطفال. إن ما نحتاج إليه لإعادة بناء العالم ليس هو العنف - بل العمل العظيم، الثورة العظمى المنبثقة من الضمير) فأجابوه وأعينهم تقدح بالشر (ولكن كيف لك أن تلهم الناس جميعاً هذا العمل العظيم، تلك الثورة النابعة من الضمير كما

تدعوها؟)

فرد عليهم دستوفيسكي بقوله (وما حاجتكم إلى دعوة الناس؟ ألا تدركون ما يمكن أن تبلغه قوة رجل صحيح واحد؟ إنه لا يكاد يظهر رجل صحيح حتى يمضي الجميع في أثره).

ثم قدأ عيناه وكأهما النجم المتألمى، وتنتقل حياة صوته إلى حياة قلمه، فيجرى قلمه بتصوير رجل نبيل كامل، شخصية من الجمال الخالص - الأمير (مشكن) وهو مصروع معتوه أطلق من مصحة العقول. وما أبسط عقله وما أقوى ثقته بالطبيعة البشرية. إنه يمشي في عالم المحتالين فيضربونه ويسرقونه ويكادون يقتلونه فلا يمد أصبعاً ليردهم عنه، إنه يرفض أن يكون عليماً بدناءة الناس، وهذا ما يحفظهم عليه - إنهم يستطيعون اختلاس أي شيء منه عدا إيمانه بطبيعتهم، فهم إذا اعتدوا عليه ربت عليهم في حنان، كأنما هم يعانون الأذى وليس هو. وسرعان ما أخذ أفرغهم رأساً يدرك أنه إنما يعيش في مستوى من الشعور أسمى من مستواهم.

ولكنه ارتفاع تدور منه الرءوس ولا بد لكل الناس من السقوط آخر الأمر، فيقع صاحبنا في حب امرأة ساقطة، فيقتلها عاشق آخر من سكان الأرض في ثورة مخافة أن يحظى بما غيره. فإذا هرع الناس إلى الغرفة وجدوا أن القتال قد غطى الجنة بالقماش المشمع، وأحاطها بقارورات العقاقير لمنع العدوى، ووجدوا القتال فاقد الوعي تماماً حانقاً مغبطاً، وكان الأمير يجلس إلى جواره على الأرض دون حراك، وكلما انطلق المريض يصيح ويرغي ويزيد، سارع بإمرار يده المرتعشة على شعر رفيقه وخديه، كأنما يريد أن يرده إلى الهدوء والطمأنينة. لكن القتال وأسفاه لم يعرف أحداً ممن أحاطوا به.

ولم يزل دستوفيسكي يتعمق غوراً بعد غور حتى وصل إلى أبعد أغوار قلبه. ويصير منظره عجبياً أثناء الأعوام الأخيرة من حياته. ويذهب إلى حديقته، وقد انحنى رأسه من ثقل أفكاره.

ما هذا المخلوق الذي ركب من طل وهلب، ذلك الملاك الشيطان، الحكيم في

حمافته الأحمق في حكمته؟ أن دستوفسكي يخلق أشخاصه معنويين ومجرمين وحكماء وقديسين، ويطلب إلى كل منهم بلا استثناء جواباً عن أحجية الحياة. وإنه ليضرب في الطرقات وينصت إلى من يمر بهم من الناس، لعله يجد الجواب في كلمة أو إيماءة أو بسملة أو إيماءة وجه بنشوة الأمل.

وكثيراً ما كانت أفكاره تسمو به إلى مستوى يعلو إدراك إخوانه من البشر. إنه ليحلق بأجنحته عبر الفضاء ويرى شمساً جديدة (كان البحر الزمردى الباسم يداعب الشيطان في حنان، مقبلاً في حب، حب ظاهر تراه العين ويكاد ينبض بالشعور.. كانت الأشجار الباسقة الرائعة تقف في روعة الأزهار الكاملة، وأوراقها التي لا تحصى تحيي في صوت حلو مهدد، كأنها هي تتحدث بالحب. وكان العشب قد اشتعل بألوان براقية حلوة العبير. وأسراب الطير تدور في الهواء، ثم تستقر في اطمئنان على كتفي ويدي. وتقرعني جذلي قرعاً خفيفاً بأجنحتها الصغيرة المرتعشة.

كانت هذه الأرض قبل أن يدنسها الظلم، وحين كان يقطنها قوم لم يعرفوا الخطيئة بعد.. لقد أروني أشجارهم. ولكن لم يسعني فهم أغوار حبهيم وهم ينظرون إليها. وإني لمقتنع بأن هؤلاء الناس كانوا على نحو ما متصلين بالنجوم في علياء السماء. لم يكن لديهم دين. بيد أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أنه حين يسمو سرورهم الأرضي بحيث يبلغ حدود طبيعتهم الأرضية فسيفتح.. منفسح أكبر للاتصال بالكون كله. كان كلهم مستهماً بصاحبه إلى أقصى حد، وعلى أوسع مدى..

ونظروا إلي بأعينهم التي تضيء بالحب.. فأفسدتم جميعاً؟ فكيف أمكن أن يتم ذلك؟ لست أدري.. وكل ما أدري أنني كنت سبب النكبة. فتعلموا الكذب وأحبوه وأدركوا جمال الأكاذيب.

وما أسرع ما أريقت أول قطرة من الدم وشرعوا يتحدثون بلغات مختلفة وشرعوا يعرفون الحزن ويجبونه. ويتوقون إلى العذاب، ويقولون إن الحقيقة لا تنبت إلا من الألم. فإذا أغضبوا تكلموا عن الأخوة والإنسانية.. وإذا اقترفوا الجرائم اخترعوا العدالة،

ووضعوا لأنفسهم قوانين كاملة لدعمها، ودعماً للقوانين أقاموا المفصلة. إنهم لا يكادون يذكرون ما خسروا.. وأخذ يظهر رجال يفكرون في طريق يهئ لهم الإتحاد، على نحو لا يكف فيه أحدهم عن إثارة نفسه على الناس جميعاً، ولكن يمكن بفضله ألا يقف في طريق غيره.. وقامت من أجل الفكرة حروب كاملة.. فبكيت من أجلهم رثاء لهم، ومددت إليهم يدي متهماً لاعناً ومزدرباً نفسي. وفي ياسي ذكرت لهم أن عملي قد انتهى.. وضرعت إليهم أن يصلبوني، وعلمتهم كيف يصنعون الصليب.. ولكنهم اكتفوا بأن سخروا مني، وانتهى الأمر بأن ظنوا بي الجنون... ثم أفقت من نومي فرفعت يدي ودعوت الحق الأبدي)

ثم جاء الجواب أخيراً عن الطريق الملتوي لانحراف البشر وحمقتهم وألمهم (لسوف يأتي.. الرجل الآله الذي سخر منه الناس وعدوه في المعتوهين. وسوف يتعلمون أن يتبعوه حتى يعلمهم حقيقة معنى الخير والشر- أن من ينزل الألم ومن يعانيه ليسا شخصين مختلفين، بل هما ذات الشخص، وذات الروح، وأن كل إنسان مسئول عن عمل الجنس البشري بأسره، وأن الجنس البشري بأسره مسئول عن عمل كل إنسان، وسوف يأتي ذلك المنقذ المعتوه.. إلى هذه الأرض حيث الإنسان يبدو حقيقة، وما هو إلا طيف، ويبدو الآله طيفاً وهو الحقيقة. سوف يأتي آخر الأمر ويلقنا الحقيقة الحيوية الوحيدة، إن كل الناس من أسمى القديسين إلى أدنى القتلة يتلمسون نفس المصدر بطرق شتى، مصدر النور، نور الوحدة العالمية والحب العالمي).

ويجلس دستوفيسكي، ويمسك برأسه. وسرعان ما يشعر بعرق عجيب على يديه. لقد تخبّضت يداه بدم من رثتيه.

(وليست الحياة أهلاً للزراية ولا الموت أهلاً للخوف).

وتتضع زوجته الباكية وأطفاله الباكون شموعاً حول جثمانه، ويبعث حكماء روسيا جميعاً برسائل العزاء، وينشد التلاميذ، خاصة من تعلموا على الرهبان، صلواتهم طوال الليل.

(أبنائي: لنقصر عن التشوف إلى حياة أبدية في المستقبل، أبنائي: إذا نحن لم نبلغ الأبدية في هذه الحياة فلن نبلغها أبداً. فالأبدية هنا.. الآن. فثمة لحظات لا بد أن ندركها، لحظات من الوجود الأسمى، يقف عندها الوقت لا يريم، وتستغرق حياتك كل حيوات الجنس البشري كله. تلك لحظات أبدية..).

أناشيد لا تنتهي. ثم يذفونوه (إن هذه اللحظات الكاملة الخارجة عن مجرى الزمان، هي التي يتحرك نحوها الجنس البشري بأجمعه) فليس معنى الحياة انتقال الإنسان من جيل إلى جيل، بل تحول الإنسان من وحش إلى ملاك. من الخاطيء إلى القديس. والحياة صعود متصل من المستويات الدنيا للإدراك إلى المستويات العليا.. حتى تغدو أسمى لحظات القديس، الإيمان الخالد للخاطيء. "والخلق كله ماضٍ من الظلام إلى النور".

أهم مؤلفات داستوفسكي

Poor Folk

The Double

The Landlady

The Family Friend

The House of Death

Letters from the Under-world

The Dream of a Queer

Crime and Punishment

The Gambler

The Idiot

The Demons

The Brothers Karamazou

The Eternal Husband

Fellow

ليوتولستوى

١٨٢٨ - ١٩١٠

كان تولستوى من هؤلاء القلائل، الذين لم يرفعهم عن طبقات الشعب طموح فذ، بل نزل بهم إلى هذه الطبقات قلب فذ، فكان شأنه شأن بوذا، ذلك العظيم الآخر الذي تواضع فارتفع. فتولستوى قد تحدر من سلالة طويلة من الأمراء، وكان أحد أجداده صديقاً حميماً لبطرس الأكبر. ولد في يسنايا بولنايا عام ١٨٢٨ وفقد أمه وعمه سنتان، وأباه وعمه تسع سنوات فكفلته وأخوية وأختيه سيدة تمت إليهم بسبب من القرابة هي "العمة" تاتيانا، وكانت امرأة تمتاز بميزتين بارزتين هما الصفاء والود. وتشوبها رذيلة واحدة كبرى، هي صحبة أهل البلاهة من الحجاج فهي تعدهم من المتصوفة والقديسين.

وكان تولستوى يستمع إلى قصص هؤلاء الحجاج. فكلف منذ حدثته بما وراء الطبيعة. وهو كلف لم يستطع قط أن يخلص منه تماماً. فظل حتى آخر أيامه نكباً لأحلام اليقظة، والشطحات الصوفية، التي طالما غامت على عقل من أسمى عقول القرن التاسع عشر.

وكان في المدرسة من أشد التلاميذ تخلفاً. وكان من عادة مدرسية أن يصفوا ليوتولستوى وأخويه قائلين: أما سرجى فمقبل كفاء. وأما ديمتري فمقبل لكنه غير كفاء. وأما ليو فلا هو بالمقبل ولا بالكفاء.

لكنه ينظر إلى الحياة نظرة الجد الصارم. فقد علم وهو صبي لم يجاوز الخامسة أن الحياة ليست متعة وتسلية، بل هي كد بالغ العناء. وفي عامه السادس عشر كفر بالكنيسة الأرثوذكسية (اليونانية) وأعقب ذلك عصر من التجول الفلسفي في (صحراء المراهقة) على حد تعبيره. فانتقل من الدين إلى اللاأدرية ومن اللاأدرية إلى الكفران بكل شيء. وأخيراً شارف اليأس حين بلغ عامه التاسع عشر.

كان الباعث الأكبر على تعاسته أنه ذو جسم غير شائق. فهو شديد النهم إلى إعجاب الناس به. وإنه ليكتب في يومياته "أريد ليعرفني الجميع ويحبي الجميع" لكنه يؤمن ألا سعادة في العالم لمن حرم الفتنة كما حرمها هو. فقد كان وجهه دميماً كوجه القرد. فعيناه صغيرتان عاثرتان، وجبينه منخفض، وشفثاه غليظتان، وأنفه ضخم بصلي الشكل، وأذناه غاية في الضخامة، كان له عقل بارع الجمال في جسم بالغ الدمامة، وبلغ من إحساسه بأنه منفر أن قرر الانتحار.

لكن عدل عن رأيه لحسن الحظ وأسرف على نفسه في الملدات يلتمس بها النسيان الوقتي لتعاسته، بدل التماس النسيان الدائم في الموت.

ثم استكشف روسو ذات يوم. وكان هذا الكشف هو الدعامة الروحية التي يحتاجها وقتئذ على التحديد. فأزال برمه بدمامته. وفتح عينيه لجمال الطبيعة. لقد كفر بدین الكنيسة. فهو الآن يعتقد دين روسو ويعبده كأنه آله، ويتخذ حول عنقه قلادة تمثالاً صغيراً لروسو وكأنها من الصور المقدسة.

وجاءت قصته الأولى (مالك روسي) من إلهام فلسفة روسو. وتعالج هذه القصة المشكلة التي سوف تشتغل تولستوى طول حياته مشكلة الصراع الخالد بين المثل الأعلى الذي يحيا له النبي، وإزورار الجمهور وعدم اكتراثه. فبطل القصة ويدعى الأمير نيخلودوف. قد هجر الجامعة ليساعد فلاحيه، ولكن فلاحيه يؤثرون البقاء في حمأة الهوان شأخهم في ذلك كشأن أكثر من أصيبوا بالإهمال وقلة الاحتفال. فهم يستطيعون فهم السيد الظالم الذي يلهبهم بالسياط. لكنهم لا يكادون يعرفون ذلك السيد الرفيق بهم. ماذا يكون؟ أنهم يجفلون منه ويهزءون به، وينظرون إلى عونه المبدول نظرة المرتاب. وهو عندهم إما جاسوس أو محتال، أو أبله، أو أي شيء، إلا أن يكون رجلاً لا يبغى غير صداقتهم..

فينهزم نيخلودوف ويجلس إلى (البيانة) يعبث بمفاتيحها وليس هو بالموسيقي الموهوب. ولكن خياله يصوغ الأغنية التي عجزت عن عزفها أصابعه غير الرشيقه فيسمع

زمرة ترم، وفرقة تعزف، ويمتزج الماضي والمستقبل فيتحقق حلمه ظافراً.

إنه ليرى الفلاحين الروس لا في كل دمامتهم وحسب، بل وفي كل ظرفهم كذلك. فيغفر لهم جهلهم وكسلهم وعنادهم ونفاقهم وارتياحهم، ذلك بأنه لا يقتصر الآن على النظر إلى ظواهرهم. بل إنه ينظر أيضاً إلى بواطنهم. فيرى آلامهم وصبرهم وبشاشتهم ورضاهم الهادئ بالحياة، واستسلامهم الشجاع إذا واجههم الموت. ويغمغم قائلاً (جميل)...

فهم إن يرفضوا ما عرض عليهم، فهو الآن يفهمهم ويحس إحساسهم لأنهم جميعاً أخوة. هو والفلاحون من لحم واحد ودم واحد.. كلهم رهط من الفلاحين لا حول لهم ولا قوة، يعيشون ويكدون ويموتون تحت سياط مالك الأرض الذي لا يرحم، أعنى به القدر.

- ٢ -

وما أقبل عام ١٨٥١ حتى كان تولستوى قد فقد ماله في المقامرة، وفر إلى القوزاق لينجو من دائنيه. وانضم إلى جيش كان أخوه من ضباطه.

لقد كان تولستوى في عامه التاسع عشر يتمنى لو يموت. أما الآن وقد بلغ عامه الثالث والعشرين فهو وطيد الإيمان بالحياة. فقد تخلى عن شكوكه الفلسفية، وإحساسه الحارف بالخطيئة وعاد إلى شغفه بالتصوف والنسوة الجميلات. فهو كفاوست في شبابه، يقبل الحياة ويجد فيها لعبة يخلو له العبث بها. فالتجارب جميعاً طيبة ما أضافت إلى حظنا من السرور. ويقول في القوزاق "ليس من شيء يقال له خطأ. ولكن تستمتع بفتاة جميلة لما قارفت إثمًا وإنما قدمت أية على حسن الصحة".

لقد غمس نفسه في جمال الجبال وحارب وقامر وأحب وأبدع الروائع الواقعية الشعرية: حكايات الطفولة، وأقاصيص الحرب، وقصص القوزاق، والمقالات والخطابات التي فاض بها قلمه في تتابع سريع كأنه تدفق السيل.

وكان من أثر استغراقه في عمله الأدبي أنه لم يكد يلتفت إلى واجباته الحربية. فهو

مستهام بالخلق، قليل العناية بالهدم والتدمير، وهو على اعتزازه بسترتة الحربية بما تحمل من أوسمة جميلة وأزرار نحاسية، قد أخذ يرى الحرب في ألوانها الحقة فهو في (الغزوة) التي كتبها في عامه الرابع والعشرين يبعث بأولى صححاته محتجاً على الروح العسكرية:

(هل استحال على الناس إذن أن يعيشوا في سلام في هذا العالم المليء بالجمال تحت هذه السماء المرصعة بالنجوم والتي تنفسح إلى غير نهاية. كيف استطاعوا في مكان كهذا أن يبقوا على شعورهم بالكراهة والانتقام وحب القضاء على بني جنسهم؟. إن كل ما انطوى عليه القلب البشري من الشر ينبغي له أن يتبخر إذا مسته الطبيعة، وهي أصح وأصدق من تكلم عن الجمال والخير).

وكان حتى ذلك الوقت لم يشهد في مناوراته العسكرية غير تمثيل الحرب. لكنه في عام ١٨٥٣ يواجه الحرب نفسها مواجهة واقعية. لقد أعلنت روسيا الحرب على تركيا ودعي تولستوى ليؤدي واجبه ليزيد من مجد القيصر.

وكان في أول الأمر تجرّفه حماسة وطنية وما أسرع ما استحال وحشاً مفترساً كبيره من شباب أمته. فقد طغت عليه موجة من الحماسة الغامضة فذبح الأتراك وحمد الله على نصيبه في المذبحة.

ولكن لم يمض زمن طويل حتى أفاق من نشوة التقتيل. فقد ألف في خلال حرب القرم ثلاثة كتب أولها يتوهج وطنية متطرفة مسرفة. ويتحدث في ثانيها حزياً عن تبادل التقتيل بين بني الإنسان. وينعى على حكام العالم في مقدمة الثالث أنهم جعلوا من رعاياهم وقوداً للمدافع.

وكلما أطل النظر إلى الحرب استبان له في كل بشاعتها ونكرها. فهو منذ اليوم مكرس نفسه لحرب عالمية ضد الحرب. كتب في مفكرته في الخامس من مارس سنة ١٨٥٥ (لقد اهتديت إلى فكرة عظيمة، أحس بقدرتي على أن أقف عليها كل حياتي. تلك الفكرة هي إنشاء دين جديد.) دين اللا مقاومة. دين الأخوة الدولية دين السلم العالمية.

وفي عام ١٨٥٦ اعتزل تولستوى خدمة الجيش وعاد إلى سنت بطرسبرج (ليننجراد) وكانت شهرته في الجندية والكتابة قد سبقته إلى هناك، فغدا في الحال علماً من أعلام الأدب، فرحب به أعلام التأليف والفن في المدينة في مجالسهم الخاصة. لكنه وجدهم جميعاً من المدعين الذين لا يلائمونهم فهم يرون أنهم الصفوة المختارة وأنهم أصحاب عقول سمت على عقول البشر.. وأنهم فخر الخليقة وتاجها. وهم يكتبون لأهل الثقافة والفكر، أما باقي البشر فغير جديرين بأن يسهموا في أفكارهم السامية. أما تولستوى فموقفه على النقيض من ذلك تماماً. فالأديب عنده هو انجيل الجمال والحكمة الذي يجب أن يملكه الجميع. فكتب ليعلم الكثرة بدلاً من أن يكتب لتسليّة القلة.

وإنه ليكتب للعامة وهو يعلم حظهم من الذكاء حق العلم. يدرك تماماً جانبهم الزري الوقح، لكنه يشعر كما يشعر الأمير (نيخلودوف) أنهم يتحسسون النور بغريزتهم، وإنما هم ينتظرون زعيماً معلماً يهديهم السبيل "اذهب إلى الناس لتعلم ما يريدون وحاول أن تفهم ما يحتاجون، وأعنيهم على تحقيق حاجتهم".

وأنشأ مدرسة لفلاحي (ياسنايا بوليانا) وحاول في هذه المدرسة ألا يجعل من نفسه أستاذاً، بل تلميذاً من التلاميذ. ذلك بأنه يعتقد أنهم جميعاً ليسوا غير أطفال يحاولون تمجى المقطع الأول من كتاب الحياة الغامض.

وقد أغلقت الشرطة المدرسة، وقدمت النصيحة إلى تولستوى بأن يدع الفلاحين وجهلهم، ثم أقبلت أشهر من المرض واليأس. فمات إخوان له من السل، وخشي تولستوى أن يكون هو الآخر قد أصيب بنفس المرض. ففقد إيمانه بالخير وبكل شيء، وفكر في الانتحار مرة أخرى.

في هذه المرة أنقذه الفن، وحبه لفتاة في السابعة عشرة هي (صوفيا أندرياتينا بروس). وتزوج من هذه الصبية وكان عمره ضعف عمرها تماماً.. ثم بدأ فترة من السعادة الصافية امتدت نحو خمسين سنة. وكانت الكونتيسة تولستوى موهوبة في باجها. فقد

صارت "الزوجة الصحيحة لمؤلف".

إذا استعرنا عبارته. فهي تكتب ما يمليه عليها، وتستثير خياله، وتشجعه، وتبذل جهداً مضميناً في نسخ مخطوطاته، وتكون نموذجاً لبعض من أفن شخصياته.

وكتب تحت تأثير سعادته آيتين من أعظم آياته.. مأساة العاطفة الفردية (آنا كارنينا) وملحمة العذاب (الحرب والسلام) في قصة (آنا) زوجة (كارنينا) يكمل تولستوى موضوع قصيدة جيته التي يقول فيها (إن القوى السماوية تأتي بنا إلى الحياة وتضطرنا إلى الخطيئة، ثم تدعنا لخطيئتنا وألمنا) فتظل (آنا) أعوامها الثمانية الأولى من حياتها الزوجية مخلصاً لزوجها سعيدة بحب ابنها الصغير (سيروز) ويعبد الطفل أمه كأنها آلهة. وكانت الأمور ستجرى رخاء لولا أن (آنا كارنينا) قد زارت أخاها (ستيبان) زيارة مشثومة في موسكو.

فهنا في صحبة النبلاء الروس المرحين الذين لا قلب لهم، تقابل السيدة الكونت (فرونسكي) وهو شاب دمث وسيم ثري، يحب الجواد الطيب والحرية الطيبة والمرأة الجميلة. فما أسهل ما وقع كل من (آنا كارنينا) والكونت فرونسكي من نفس صاحبه. ولم تكن (آنا) أولى ضحايا فرونسكي فهو حين لقي (آنا) كان متورطاً في غرام أخت زوج ستيبان وكانت ممثلة ناشئة ساحرة محبوبة، من فتيات موسكو، وكان (لكيتي) كثير من المعجبين. لكنها تؤثر عليهم جميعاً اثنين فرونسكي الذي تحبه، وكوستانتين الذي تعجب به وكان (كوستانتين لفين) هذا نبياً من موسكو شاباً ميسوراً جاداً ذا عقل كثير الريب. فهو يعجز عن التصديق كعجزه عن التكذيب وهو يتفرج كما يتفرج العاجز الساخر بينما تتكشف المأساة لعينيه. فهو يلاحظ آنا وفرونسكي كيف ينجذب كل منهما إلى صاحبه دون أن يكون لهما في ذلك اختيار. وأن الفريستين لتدركان ذلك، وإن لم تستطعا شيئاً لوقف هذا الانجذاب.

(وآنا) شديدة النهم في حب فرونسكي وشديدة الخوف من هذا الحب، فهي تحن إلى حب ابنها لها وحماية زوجها إياها، فتقرر أن تختصر زيارتها لموسكو وتهرب من افتتاحها وتبتاع تذكرة إلى سنت بطرسبرج.

وفي القطار تجد فرونسكي. لقد قرر أن يتبعها.

ويتقابلان كثيراً في مجتمعات سنت بطرسبرج. وينظر المجتمع إلى علاقتهما نظرة الرضى الذي يجس الضحك. إنهما مسلاة ممتعة.

أما زوج (آنا) فيظهرها على حماقتها في هدوء. ثم يغمض عينيه في حكمة. فهو راغب عن التورط في فضيحة طلاق، زاهد في تعريض حياته لأخطار المبارزة.

لكن الأمور تسير إلى غاية إذ يحدث حادث في سباق الخيل ويصاب فرونسكي إصابة بليغة وتبدي (آنا) قلقها أمام الملاء. فإذا عنفها كارينا اعترفت له بحبها لفرونسكي وتضرع (آنا) إلى زوجها أن يسرحها. لكنه يصمم على الانتقام ويضطرها أن تبقى تحت سقفه.

ورغم ما يصيب (آنا) من عذاب وهوان وقهر، فإنها تقيم على علاقتها السرية بفرونسكي، تمرقها ثلاث عواطف: حبها لولدها الصغير سيروزها وولائها لكيكي التي غصبت منها فرونسكي وحبها لفرونسكي. وتستطيع كيكي آخر الأمر أن تنسى فرونسكي وتتزوج من كوستانتين لفين. وهكذا تزول إحدى الصعوبات من موقف (آنا) لكن الصعوبتين الأخريين: حبها لابنها وحبها لفرونسكي لا يزالان على عهدهما في منتهي المرارة والشدة.

وينشأ الآن تعقيد جديد إذ تضع آنا مولودة، ويبدو كارينا سمحاً شهماً نحو ابنة فرونسكي، ولكن فرونسكي في هوانه وذلتة يحاول الانتحار.

وساء موقف آنا فصار لا يحتفل فإن عليها أن تختار بين (سيروزها) وفرونسكي فتختار فرونسكي.

لكن القصة لم تنته بعد. فلا يزال لدى الكاتب خيط قائم آخر يسهم به في خطة القصة. فتسافر آنا وفرونسكي خارج البلاد ويمضي وقت يصيبان فيه شيئاً من السعادة من حبهما المحرم.

ثم يعودان إلى روسيا ليستأنفا رجاء كارنينا أن يطلق آنا. ولكن كارنينا يرفض الطلاق. فيشتمل على آنا المهم وتوعك المزاج. ثم يأخذ هب الغيرة في القضاء عليها فهي تتهم فرونسكي بالخيانة. وليس لها من منقذ غير النسيان.. ذلك الموت إبان الحياة الذي يجلبه المؤلفين. ثم تكون النهاية انتحارها تحت عجلات القطار.

في (آنا كارنينا) يصور تولستوى الصراع الروحي في الفرد وفي (الحرب والسلام) وهي قصة تعالج غزو نابليون لروسيا، يصور الصراع الروحي في الجنس البشري، وجهاده في الانتقال من الهمجية إلى المدنية ومن سفك الدماء إلى الوثام، ومن الكراهة إلى المحبة. إذ لا يكفي حل المشكلة الفردية ولا بد من حل مشكلة البشر كافة. فحين استلقى الأمير اندريه بطل (الحرب والسلام) جريحاً في استرلتز تراءى له فجأة معنى السلام الذي يبطنه العالم (رأيت السماء التي تترامى إلى غير أمد تتأمل مطرقة هياج الأرض وتفاهتها) وقد ملأته هذه اللمحة بسرور لا يوصف. فهذا السلام الباطن، هذا النور الذي يومض بين الحين والحين في ظلام الحياة، هو شيء يتلهف تولستوى على أن يظهر عليه بني جنسه. ومع ذلك فهو يشعر أنه لا يستطيع ذلك عن سبيل فنه.

فأخذ يفكر في نوع جديد من الفن. فن إيجاد سبب من الرحمة يصل بين الإنسان وأخيه الإنسان، ليهدي الناس إلى النور، لقد فقد إيمانه بالكنيسة الأرثوذكسية، ولم يهتد إلى عقيدة أخرى بدلاً منها، ما خلا إعجابه المؤقت بروسو.

وعاد تولستوى إلى الكنيسة أثناء بحثه عن العقيدة الحقة فبحث مبادئها وعبادتها، وظل ثلاث سنوات لا يتخلف عن شيء من طقوسها، ولكن لا جدوى "أخشى أن يكون تشددي في إتباع سنة المسيح حائلاً بيني وبين المسيحية التقليدية، فالكنيسة الروسية قد صارت مؤسسة تجارية فيما أعلن. فما أبلغ تشدد القساوسة في فرض أوامر القيصر، وما أشد تماؤهم في فرض أوامر المسيح.

"وهكذا قطع ما بينه وبين الكنيسة ووصل ما بينه وبين الله" فأصبح نبي دين جديد أو بعبارة أدق صار مفسراً جديداً للدين الذي كاد أن ينسى، دين بوذا واشعيا

وكونفوشيوس والمسيح، هذا الدين الذي أمل أن يكون زعيمه المنكر لذاته ولسوف يستغنى عن كل الطقوس والكنائس والقسس: ويعتمد على بعض التعاليم البسيطة (لا تكن لأحد عدواً. أملك زمام نفسك ولا تركز إلى العنف) هذا هو الجانب السليبي من عقيدته. أما ناحيتها الموجبة فهي الاحتجاج والإنكار فهو ينكر على النبلاء إسرافهم، وعلى القسس تعصبهم، وعلى القيصر طغيانه، "فأصبح شيعياً ومنشقاً على الكنيسة وثائراً.. أي صار بإيجاز حوارياً صحيحاً للمسيح"، فهو مستعد لأن يبذل شهرته ومركزه وثروته وحياته نفسها أن تطلب الأمر خدمة لبني الإنسان. إنه ليلبس عباءة الفلاحين ويخالط أحط الناس على أساس المساواة. لقد تواضع فارتفع. فهو قد نزل من عزلته الأرسقراطية إلى المستوى العادي للبشر وتمكن بفعله ذلك من السمو بالإنسانية إلى ذرى جديدة من السمو الخلفي.

وهتف العالم بتولستوى نبياً. ولكن أسرته تعده أحمق. وأخذت زوجته تخشى عليه الجنون. كان أبنائه يتشاءبون ويشيحون عنه بوجههم كلما تحدث بالأخوة بين البشر. فحياة الإيثار التام قد بدت لهم آية على الجنون لا مراء فيها. إنه لا بأس عليه مطلقاً أن يضحى بنفسه، كما قالوا. لكن ما حقه في أن يضحى بأسرته على مذهب مثله العجيبة، وهكذا أصبح غريباً في بيته.

كتب رسالة إلى صديق "لعلك غير مصدق. ولكن أنى لك أن تتصور مدى عزلتي أو مدى زراية الناس بشخصي أو هوان أمري عليهم. لكنه على ما يلقاه من عذاب عقلي يمضي قدماً في سبيله فيفسر مبادئ المسيح بلغة القرن التاسع عشر. لقد حاول المسيح أن ينشئ مملكة الله أما تولستوى فيؤمن بإنشاء ديمقراطية الإنسان فكتب عدداً من المقالات والقصص توضح أصول العواطف الإنسانية والتسامح مع المسيء. وكان جزاؤه على ذلك أن حرمته الكنيسة الأرثوذكسية من رحمتها عام ١٩٠١.

فإذا علت السن بتولستوى بدت في تعاليمه نغمة جديدة غريبة. ذلك بأنه قد صار غريباً بين بني جنسه وأولاده وزوجته، فأخذ ينظر إلى الاختلاط الجنسي كله في ضوء عجيب صوفي، فقد أصبح ناسكاً. وكان في سابق أيامه قد نعى على الفسق، أما الآن

وقد بلغ السبعين فهو يدعو إلى الانتهاء التام عن كل اختلاط جنسي. "أن من نظر في اشتهاة إلى امرأة، ولو كانت زوجته فقد ارتكب معها جريمة الفسق".

إن هنالك معنى يدعو إلى الرثاء في نظرة ذلك الرجل العجوز يحاول أن يعيد صوغ العالم بحيث يلائم ما أصابه من خور وعجز، حتى لقد ذهب إلى إفناء الجنس البشري عن سبيل تقرير العزوبة المطلقة لكن عقله كان ينسل منه حينذاك. وكان التصوف قد ملك عليه زمام أمره تماماً. فهو في قصته الأخيرة (البعث) يودع روح قديس خاطئ في جسم شاب.

فشخصية نيكلودوف دراسة في التناقض. ومما هو جدير بالملاحظة أن تولستوى قد سمى كل قصته الأخيرة باسم بطل قصته الأولى. ذلك البطل في القصة الأخيرة يبدأ محتالاً وينتهي حياته شهيداً. ويعتري هذا الرجل في ظرف أعوام قليلة من التحول الخلقى ما كلف تولستوى عمره بطوله. إن البعث لمن أجمل قصائد الرحمة، ولكنها من نتاج رجل عجوز.

- ٤ -

كانت مأساة تولستوى أن الحياة قد امتدت به بعد أن فقد عظمته. وجعل في الأعوام العشرة الأخيرة من حياته يدعو إلى مثل اجتماعية وسياسية وخلقية، لبس إليها من سبيل إلا في عالم المثل العليا.. أو عالم العجائز.

وكلما مر الزمن زاد إيغاله في الفلسفة الساذجة. وجاء آخر فصل من حياته كما جاء جل ما فعل طوال حياته مزاجاً عجيباً من الغباء والسمو.

فإذا حل يوم ٢٨ من أكتوبر عام ١٩١٠ وكانت الساعة الخامسة صباحاً. هرب تولستوى من مأواه في بيته. ومضى يبحث عن السلام في العراء، وكان في عامه الثاني بعد الثمانين. وكان يلبس قميص الفلاحين، وقت أن أضفت السن على وجهه جمالاً، ورسم الألم فيه غضوناً، وجعل يهيم كما فعل بوذا، ويخبط في شعاب الأرض. لقد هجر بوذا بيته يلتمس الحياة. أما تولستوى فقد مضى عنه يلتمس الموت.

أراد أن يموت وحيداً، لقد وهب حياته الشخصية للرحمة والرثاء، ولكنه يفر الآن من

رحمة ذويه وورثاتهم، وظل أياماً عدة يتنقل من قرية إلى قرية، وسقط آخر الأمر على قارعة الطريق، ليرقد رقدته التي لا ينهض منها أبداً. ويقول للطبيب الذي عاده (إن في العالم ملايين من البشر يتوجعون فلماذا لا تفكر إلا في؟).

فإذا كان يوم الأحد ١٠ نوفمبر عام ١٩١٠ وجد السلام الذي ظل ينشده طول حياته، وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة صباحاً بقليل حين استرخي جسمه الحطيم من الألم لهذا الخلاص العظيم الأخير. "يا لك من أخ مبارك أيها الموت".

جى دى موباسان

١٨٩٣-١٨٥٠

ولد بقصر ميرومسنل بنورمانديا، وكان ينحدر من جهة الأب من سلالة أرسقراطية تدهورت إلى مباءة الإفلاس، وكان ينحدر من جهة أمه من سلالة من العامة سمت إلى الخلق الفني- فكان دمه مزاجاً عجيباً من العناصر- نار الإباحية، وحساسية الخيال، ومرارة خيبة الرجاء، والإيقاع الشعري البارد للبحر النرمندي.

كان أبوه إباحياً يخالط النساء، ساميهن ودانيهن، وكانت أمه حاملة تجلس تلتمس الدفء في لب الذكري، ذكرى أخيها الشاعر الذي اخترم عبقريته الموت العجلان. لقد عرفت الرجل الكامل في أخيها، فعرفت كيف ترثي للحطام الملتوي في زوجها. وكانت تعيش على الأمل الدائم.. أنها في ابنها ستعيد صوغ الحطام إلى رجل سوي.

ونشأ الطفل الذي انعقدت به آمالها يفهم الرجل الداعر ويعبد الآلهة النقية. وكان كلما تشوش فكره لهذا الاتحاد التعس للأمزجة التي منها تخلق، ذهب إلى البحر فوجد في وجه البحر كل سرور الخلق ووحشيته، وكان (جى) يعتس حول الكهوف على طول الشاطئ، وفي أثره كلبان، وينفح الصيادين الهبات ليصطحبوه في بحثهم عن السمك في ضوء القمر.

وكان يشارك في كل مباحج الفلاحين النرمنديين في هذا الضباب الأغيش، والهواء البارد، الذي يهفو من البحر كأنه نسيم يبعث الحياة، وكان يراقص الفتيات الفلاحات في المواسم الريفية، بينما القيثارات تعزف لحناً ضاحكاً تحت أشجار التفاح، ويسير مع مواكب الرجال التي تحمل المشاعل كأنها ثعابين حمراء في الليل.

وكان يتناول قطعة من الجبن، ويعب كأساً دهاقاً من خمر التفاح مع أي صديق أو شخص غريب في المنزل، وكان يرسم الخطط الواسعة مع قدامى البحارة على التلال،

ويشرف معهم من خلال مناظيرهم المقربة على حافة الجهول (أن عروقي يجري فيها دم الجائلين في البحر، وأبحج ما ييهجني هو أن أبحر بقاري ذات صباح ربيعي إلى موانٍ مجهولة).

كانت حياته دفعة عاطفية من الشمال البارد، ولكن أمه، وأحجب بها من أم، قد صممت على أن تتحكم في الريح وتحدد اتجاهها. فبعثت به وهو بين العاشرة والعشرين إلى المدرسة الكنسية في (أيفيتوت) ولكن (جي) لم يكن يبغي أن يصير قسيساً. فأحدث ثقباً في برمبل النبيذ بمخزن كبير الآباء، ودعا رفاقه في المدرسة أن يشربوا على حساب مائة قداس. وقارف بعض المخالفات الأخرى فطرد.. إلى الحرية.

وكان يجب دعاباته العملية. تنكر يوماً في ثوب شابة وقدم نفسه إلى عانس إنجليزية. فقالت العانس في خلال الحديث (تقولين إنك قد أتيت من سفر طويل، فمن أين أتيت؟) (لقد أتيت لتوى من نوميا) وهو موطن فرنسي للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة.

فاستمرت المرأة المذهولة تقول في قلق (فتاة صغيرة تسافر وحدها؟)

"ولكن- كما ترين- لي خادمتان" وضيقت فستانها في خفر وفي عينها معنى بعيد (ولي أيضاً فارس وجندي مدرع لحراستي). فلما سمعت العانس هذا الكلام كاد يغمى عليها.

وقد اتخذ عشيقته الأولى وهو في عامه السادس عشر، وكان يدعو نفسه (بالنهم إلى الحياة) وسرعان ما قدم له عالم نرمنديا الصغير كل ما لديه من رقة ومتعة.

- ٢ -

والتحق باللوقيون ليعد نفسه لدراسة القانون، ووفق إلى الحصول على درجة مقبول. ولكن حدث بعد ذلك الغزو البروسي عام ١٨٧٠ عن طريق سيدان. فالتحق موباسان بقسم الإمدادات بجيش فرنسا، ولم تكن حياته مبهجة.

وبينما الجيش الفرنسي يتقهقر، كان يقرأ شوبنهاور ويكتب قصائد الغزل ويحلم بالثأر

من الألمان. فتشكلت عبقرية الشباب تدريجاً من ثلج الكراهة ونار الحب.

فلما انتهى الصراع، ذهب إلى باريس يبحث عن عمل فإن دراسة القانون لا تقوى على نفقتها الآن أسرته العريقة التي أصابها الفقر. فالتحق بوظيفة كاتب في البحرية، ولم يدر أحد من رؤسائه أو زملائه الكتبة، أن أحد الأسود البشرية الضخمة قد وقع في الأسر. ولم يدر باقي باريس عنه شيئاً أو يحفل بأمره فإن خيراً كثيراً في عالم هذه المدينة، يحنج في عليات المنازل، حيث الفنانون والشعراء يترجمون أحلامهم لعالم لا يكثرث. وكان موباسان يسير في الشوارع ليلاً، يتفوس الوجوه تحت مصابيح الغاز بحثاً عن علامة يتعرف بها على أحد، عن آية على روح زميل، فلم يجد.

ثم ناداه داعي الصداقة أنه صوت السين، فهو في الفجر والمساء وفي أيام الأحد في الساعات التي لا تحظر بالبال يهدئ فورته الكبيرة بالتجديف في النهر ذهاباً وجيئة.

أن نهر السين قطعة من البحر، وأن شذاه ليجذبه من المكتب المغبر، ومن المقاهي العابقة برائحة النبيذ، ومن أحضان النساء المربيات، إنه جنونه وعشيقته وشريكته الحانية القاهرة، التي تنطوي على المتناقضات العنيفة. نعم إنه النهر الجميل الهادئ المتقلب الشذى النتن، المليء بالأحلام والأفذار! وكانت روحه تنضح تدريجاً يغلفها الضباب، وتنزلق بين أخيلة هياكل السفن ومداخنها التي تتحدث في صفير خشن كثيب، عند ملتقى العوالم الثلاثة، السماء والأرض والبحر.

"إني أجدف واستحم، واستحم وأجدف. ولقد تعودت الفيران والضفادع على رؤية الفانوس فوق قاربي في ساعات الليل، حتى أنها تخرج لتحييني تحية المساء. وإني أسير قاربي الكبير كما يسير غيري زورقاً صغيراً، وأن أصدقائي من أصحاب الزوارق في (بورجيفال) ليدهبون أعظم الدهش حين أبرز لهم في منتصف الليل، أطلب زجاجة من خمر (روم)".

الليل والنهر وروح رجل عظيم واحد.

وقابل (جوستاف فلوير) عن طريق صلات أسرته، وكان مؤلف مدام بوفاري عبقرياً بوهيمياً يصطنع في الأدب من التجارب مثلما يصطنعه في الحياة من هم أكثر جسارة.

وكان قد قدم للمحاكمة على قصته الصلبة الجبين، وعاش مهملاً كأنه مخلوق محجور عليه، لا يجب أحد أن يلمسه. بيد أنه كان غير آبه، إنه لم يمنح العالم غير حطام نحيل لذاته، ويجلس كأنه آله في معبد فنه الرائع الذي احتفظ بمفتاحه لنفسه فحسب.

لقد كان يبحث عن حوارى كامل، وكان موباسان يبحث عن أستاذ كامل.

والآن يلتقي الروحان الهائمان النصفيان اللذان استويا في الوحشة فيندججان في روح واحد، يهيم مظفراً. وعلى انفراد.

وظل (جي) طيلة سبع سنين يأتي أيام الأحد حاملاً قصائده ومسرحياته وقصصه إلى ذلك العملاق العريض المنكبين ذي الشارب الضخم والعينين القاتمتين ويشهده يجري قلمه الأزرق في كتاباته، فإذا كان المساء افترق الصاحبان بعد نكتة بذئنة من كليهما، يخفي بها قلباً موجعاً.

واستطاع التلميذ تدريجاً أن يفقه سر عبقرية أستاذه، إنها عبقرية مجيد للرماية، استطاع أن يهتك نفاق الحياة بأسهم فتاكة.

- ٣ -

ومضى وقت طويل قبل أن يحظى موباسان بالثقات الناس، وكان يعاني ألواناً رهيبية من الصداق، لكنه كان ينعش نفسه بالغوص من (قنطرة مغرية في منتصف الشتاء) ويبرز في المياه المتجمدة ليوجه دعابة بذئنة إلى من تجمع من الناس.

وكان يروي قصصاً ماجنة لإخوانه الكتبة في البحرية، ويهمس لمن يقابله من السيدات في الحفلات بألفاظ يجنح فيها إلى التورية.

وكان الجميع يقولون عنه (إنه أفجر شاب في باريس). إنه أفجر الشبان وألمهم. وهو على ألمعيته-أو قل لألمعيته-كان يزوج بنفسه دائماً في المتاعب، فكان الباريسيون ذوو السمعة الطيبة يعرضون عنه، إذا كتب مسلاة ماجنة وأخرجها عند رسام منبوذ من طائفته.

ودعته الشرطة إلى المحاكمة حين نظم قصيدة غير خلقية، ونشرها على صفحات إحدى المجالات المنبوذة.

وظل الصداق يعاوده دائماً، وكلما اشتدت عليه وطأته قضى الساعات يتأمل وجهه في المرآة. لعله يقاسي من إرهاق شاق في غرامه، بفتاة الشارع مثلاً التي قابلها مساء الأمس، تلك الغريبة عليه التي دخلت حياته وخرجت منها ثانية في خلال ثلاثين دقيقة. وزاد صداقه وقلقه، وخصوصاً عند مقدم شتاء باريس. كتب إلى أمه وكان يعد حبه إياها نقطة الثبات في حياته "ديسمبر يرهبي. إنه الشهر الأسود، الشهر الكريه العميق، الذي يمثل منتصف ليل العام. لقد أعطونا مصابيح في المكتب، وفي خلال الشهر سنوقد النار...

وحين أكون وحيداً أمام مكتبي ومصباحي الحزين متقد أمامي، كثيراً ما تعتريني لحظات يبلغ مني القنوط فيها أي لا أدري إلى أين اتجه".

ولكنه كان دائماً يتجه في النهاية إلى قصصه، فيلتقط حكايات شتية من شفاه صائدي السمك والفلاحين والممثلات والعاشرات والكتبة. حدث مرة أنه كان على مائدة إميل زولا، وكان المدعوون ساجين في خيال الشراب، حين تكلم المضيف عن مبادئ الأدب الجديد الذي يكتبه. (لندكر أن علينا أن نقفز إلى النجوم من سلم الملاحظ الدقيقة).

"واقترح أحد المدعوين أن يكتب كل مناقصته عن حربنا ضد البروسيين - لا على النحو الذي سار عليه المؤرخون والساسة في كتاباتهم عن الحرب، بل على النحو الذي تخيلته زبانية الجحيم، وكما وقعت على الأرض. فلنحطم كل خداع ولنبين موطن البطولة الحقة".

وأسهم (جيم) في ذلك المجلد بقصة عن البطولة الحقة (كرة الشحم) كانت (كرة الشحم) امرأة محترفة من بنات الهوى، يجبها الناس حين العجلة ويزدرونها حين الدعة. وذات يوم في خلال الحرب الفرنسية البروسية وجدت نفسها على سفر من باريس إلى

هافر، تقلها عربية مع جمع من كرام القوم.

وما كاد هؤلاء القوم الدمثون يتعرفون على حقيقتها حتى نأوا بجانبهم عنها. وباعدوا بينهم وبينها. ولكنهم حين تبينوا أنها وحدها كانت بعيدة النظر فأحضرت معها غذاء شهيماً نسوا زرايتهم بها، وأقبلوا كراماً على ما عرضته عليهم من الطعام. وفي هذا المساء وقفوا عند فندق كان الجنود الألمان قد احتلوه. فأمر قائد الحامية بالقبض على السفر أجمعين وصرح بأنه لن يطلق سراحهم حتى تقضي السيدة السمينة ليلة معه. فرفضت الانصياع لأمره في غضب ناثر. ولكن رفاق السفر حرصاً على حريتهم ضرعوا إليها وأخفوا عليها بشتى الحجج حتى استسلمت آخر الأمر.

وفي الصباح التالي استأنف السفر رحلتهم وعادوا من جديد إلى النأي بجانبهم زراية بتلك المرأة التي أقدمت على التضحية الكبرى من أجلهم. فهم في هذه المرة قد أحضروا غذاءهم ولكنها نسيت أن تفعل بسبب ما كان من اضطراب ففتحوا حقائبهم وأقبلوا على الطعام ثمين.

ولم يعرضوا عليها كسرة من زادهم. فثارت عبراتها وتألأت في مآقيها. فغمغموا ورعاً وتقى (إنها دموع العار).

في (كرة الشحم) يبين الكاتب عن سخريته وزرايته بعباء البشر على أنه في كثير من قصصه الأخرى تتحول زرايته إلى العطف. ومن هذه القصص قصته (العقد) ومن النقاد من يعدها القصة التي تنهى إليها القصص الفرنسي.

وقصته القعد هي المسلاة المؤسفة لمدام لوازيل، وهي امرأة جميلة فقيرة كانت تحلم بالأمرأة فزوجت من أحد الكتبة، وكانت تحلم بالقصور فسكنت في دور سفلي حقير. وليس لديها من طيب ولا حلي فاخر. وقد كانت تتوق إلى هذين كما يتوق الأعرابي الذي يجوب البحر إلى مسقط رأسه من البيداء.

ولكن بقيت لها نعمة واحدة، صديقة غنية كانت زميلتها في الدير ولكنها لم تكن تزور هذه الصديقة لأنها كانت تشقى برؤية الأشياء التي لا قبل لها بشرائها وذات مساء أقبل

زوجها إلى المنزل جلدان فرحاً (إننا مدعوان إلى حفلة ساهرة يقيما وزير المعارف وزوجته). فقالت (ولكن ليس لدي ما ألبسه) فاشتري زوجها لها فستاناً. لكنها لم تزل غير سعيدة (ليس لدي حلي).

(لماذا لا تذهبين إلى صديقتك مدام فورستير وتطلبين أن تعيرك حليها)

فصاحت صيحة الفرح (نعم هذا صحيح. كيف لم يخطر ببالي؟) وذهبت إلى صديقتها فاستعارت عقداً ماسياً جميلاً. وكانت أفتن السيدات في الحفلة الساهرة. وعادت إلى بيتها نشوى. وأخذت تلحع ملابسها أمام المرآة ثم نددت منها صرخة مباغتة (لقد فقدت عقد مدام فورستير) وعبثاً ما جرى من بحث عنه في أنحاء باريس (يجب أن نستطيع على نحو ما رد العقد) وسارت مع زوجها من صائغ إلى صائغ، حتى عثرت على عقد يشبه العقد الذي فقدته.

(ما ثمن هذا؟) (أربعون ألف فرنك. ولكني أبيعك لك مع النضحية بسته وثلاثين ألفاً) وتلت ذلك زيارات لهثى إلى أصدقائها وإلى الصيرفيين والمرايين والمقرضين، حتى استطاعا أخيراً لم أشتات الستة وثلاثين ألف فرنك. وأعدت السيدة لوازيل العقد، ثم سخرت نفسها عبدة للوفاء بالدين. ومضت أيام كانت فيها تعمل وتغسل وتذلك الأرض وتلطخ يديها وتطمس جمالها، وتنزف صحتها وكان زوجها يكدح معها في موازنة حسابات التجار. وكثيراً ما كان يسهر الليل بطوله لينسخ وثيقة بخمسة سنت للصفحة. وظلا على هذه الحال عشر سنين واستطاعا آخر الأمر الوفاء بكافة التزاماتهما: أصل الدين وأرباحه جميعاً. وذات يوم من أيام الأحد كانت السيدة لوازيل، وهي الآن امرأة عجوز مرهقة، تسير في (الشانزلزية) وسرعان ما رأت سيدة جميلة شائقة تسير في الاتجاه المقابل. إنها السيدة فورستير، حينها السيدة لوازيل (عمت صباحاً يا جين) فنظرت إليها السيدة فورستير دون أن تعرف من تكون (ألا تعرفيني يا جين إنني ماتيلدا لوازيل).

(أي ماتيلدا المسكينة لكم تغيرت)

(لقد أصابني عنت شديد هذه السنين. وكله من أجلك)

(من أجلي؟ كيف ذلك؟)

(لقد فقدت العقد الذي استعرتة منك. لكني اشتريت عقداً آخر يشبهه تماماً. وظللت أفي بثمانه عشر سنوات) فمس ذلك شغاف قلب السيدة فورستير فأخذت اليدين المسكينتين الخشتين في يديها (أي ماتيلدا المسكينة لكن عقدي لم يكن يساوي إلا خمسمائة فرنك على الأكثر).

- ٤ -

وفي خلال أيام الصداقة الوثيقة بين جوستاف فلوير وموباسان، قدم فلوير لصاحبه نظرية النجاح الأدبي تتكون من ثلاثة أجزاء: لاحظ، ولاحظ ثم لاحظ أيضاً. فلما مات فلوير على حين بغتة دخل جي تلك الغرفة التي ظل يزورها أيام الأحد طيلة سبع سنين، وصعد الدرج إلى حيث أسجى الرجل الميت، ولم يكن هذا المراقب يقدر شيئاً من الأشياء.

فبينما هم يغسلون الجثة ويعدون لها للدفن، كانت عيناه وعقله في شغل بجمع التفاصيل ليستخدمها في فنه مستقبلاً. وبينما هو يسير وراء عربة الموتى إلى المدفن لاحظ أن بقرة تنظر من فوق سياج وتخور في ضوء الشمس لشيء لم تفهمه.

ولاحظ عند القبر كيف أرقق الدفانون غير المهرة وتصيب عرقهم من شد أحبال التابوت وكيف مال التابوت إلى ناحية وانك في الأرض، ورفض دخول القبر حتى تعاون في إدخاله رجال أكثر عدداً. فقفز قلبه من أثر تلك الرعدة اللهثى للفنان لعدم اتساق الأشياء. فحمد الله على حضوره في هذه اللحظة ليذكر وحشية الحياة وعدم جدواها. إنه حس القصاص، غريزة طبيعية كأنها حاسة الشم عند كلب الصيد ولكن هناك كلباً كذلك.

وكان أحياناً يلقي بقلمه جانباً، ينتظر، ويتلوى من الألم ساعات حتى ينجاب الظلام عن عينيه. وكثيراً ما كان يستنشق (الأثير) ويميل على أنجرته ويعلم بانتهاء آلامه. وكان يشتري قنينات صغيرة من العقاقير المشروبة التي كانت تلتهم كل ما ادخره من مال لعطلة صيفية.

ولكن كان يكمن دائماً وراء تأوهات الآم نعمة من الجمال الوثني (إني أحب السماء كأني الطير، والغابات كأني الذئب، والصخور كأني التبتل والعشب العميق كما يجب الحصان أن يتمرغ فيه، والماء الصافي لأسبح فيه كأني سمكة إني لأحس بأنه يتردد على خاطري شيء مشترك في كل حيوان، بعض من كل الغرائز والرغبات المبهمة للمخلوقات الدنيا فأنا أحب الحياة كما تحبها هذه الحيوانات لا كما تحبونها أنتم معشر البشر أحبها دون إعجاب بما. ودون تدله شعري في حبها، ودون تحليق إلى السموات العليا. أحبها حباً عميقاً حيوانياً، حباً زرياً ولكنه مقدس).

إنه يتظاهر أنه لا يرأف بالإنسان، وتكذبه في هذا قصصه (إني أستطيع أن أشج جمجمة شاعر لمجرد رؤية ماذا في داخلها) على أنه الآلام التي تعانيتها العجماوات، تلك الآلام التي تغمض على الفهم، هي ما يروعه ويوقظ في روحه كل مشاعر الرقة، كما قال. إن صيحة الذئب في الكمين هي صيحته. وإن عبقريته التي سمت كثيراً على عبقرية الرجل العادي لترتبط بالإحساسات الجسدية لحياة أدنى في سلم التطور من حياة الإنسان.

لقد كتب - ولعله كان في أبخرة أثيره- عن امرأة فلاحه عجوز بخيلة قررت أن تلقي بكلبها في حفرة. وكان كلباً لا يقارف حتى النباح، تخلصاً من أداء ثمانية فرنكات ضريبة للحكومة على الكلب. واتصلت أول الأمر بأحد العمال لينفذ لها ما أرادت لكنه طلب خمسة بنسات أجراً له على ذلك (فبدا لها هذا مبلغاً قد بولغ في تقديره كثيراً، وعرض خادم زراعي للجيران أن ينجز ذلك لقاء بنسين ونصف بنس ولكن هذا لم يزل أجراً باهظاً؛ ولذا ذهبت السيدة بنفسها إلى الحفرة وألقت بالكلب فيها من عنقه، فسمعت أول الأمر صوتاً لوقوعه في الأرض. وكان صوتاً كثيراً تلتته صيحة حادة، صيحة ولولة تمزق القلوب يبعثها حيوان جريح. وأعقبت ذلك صيحات ألم صغيرة كثيرة متتابعة، ثم ضراعات يائسة، ضراعات كلب رفع رأسه تجاه فوهة الحفرة. وفي هذه الليلة رأت الكلب فيما يرى النائم فقررت في الصباح إخراج الكلب من الحفرة. فذهبت إلى رجل يعمل في حفر الصلصال وطلبت مساعدته، لكنه طلب أربعة فرنكات أجراً على إخراج الكلب فذهلت المرأة وقالت في صيحة الغضب (أربعة فرنكات... يا له من أجر باهظ) إنها تستطيع إذن

أن تريح ضميرها بأن تلقي بكسرة من الخبز في الحفرة (ولكن في هذه الأثناء كان قد ألقى في الحفرة مع "بيرو" كلب أكبر منه. فإذا ألقيت السيدة بكسرة الخبز استطاعت أن تستبين في وضوح صوت العراك الرهيب، ثم صيحات "بيرو" الشاكية، فقد عضت الكلب الكبير، وتقع السيدة بالتخصيص قائلة: "إنها لك يا بيرو" وكان من الواضح أن "بيرو" لم يصب شيئاً. ثم قالت في نبرة من يبرر سلوكه الذاتي "إني لا أستطيع إطعام جميع الكلاب التي ألقيت في الحفرة".

وفي ضيقها بفكرة إطعام كل هاتيك الكلاب الحية على نفقتها انصرفت. بل لقد أخذت معها بقية الخبز لتأكله وهي قافلة.

وكانت العبرات تصعد إلى عينيه حين يتحدث عن العذاب الصامت الذي يلقاه أشقاء روحه. وقد نظم أنشودة رقيقة جميلة في رثاء جثمان حمار قد استلقى للانحلال وناشه الذباب على بعد خطوات ثلاث من الحقول الخضراء التي كان بها يهيم عبثاً، طوال حياة ملئت بالكدح من أجل صاحبه.

وماذا عن الإنسان ذلك الحيوان الأصغر؟ إن القدر يسيطر عليه بنفس الوحشية التي يسيطر بها الإنسان على الحمير والكلاب فيما يقول.

واستطاع بضربات قليلة من ضربات قلمه اللدن أن يعيد الحياة إلى كل جهاد الفلاحين النرمدين في غير عناء. على أن اتصاله بهذه الأرواح المسكينة لم يكن اتصال عقل بعقل، بل اتصال حس بحس، ولمس بلمس، وشم بشم، فقد كانت حاسة الشم عنده حادة كأنها حاسة حيوانات الحقول. كان يشم عواطفهم وطرائقهم في العيش وغرائزهم بل وأفكارهم (وكل الحياة في كتاباته تبدو كأنها مجموعة من الروائح) ومعظمها روائح كريهة.

فلقد كان يتصور الحياة قبيحة (فهو يركز التفاته في نقطة صغيرة من الحياة البشرية، وهي عادة نقطة كثيفة رثة غير شائقة، ويأخذ هذا الجزء الصغير فيضغظه إلى أن يعيس أو يدمى).

ولكن أتعس قصصه يومض في روايتها بريق الشهوة، إنه يجب ذلك الاتصال الكهربائي للحم البشري. فهو (ربنوار ٥) القلم. ولم يكن يرى فكاهة دقيقة مستخفية في قصص الحياة التي كان عليه أن يرويها، سواء قصص الفلاحين أو الأمراء، ولكنه بلغ أدق الحيل الفنية في وصفه لمسالة الألم والعباء والبذاءة، وكانت قصصه القصيرة إحياء لقصص لافونتين الخرافية وقصص بوكاشيو الفكهة، وقد كانت (القصة الإباحية) دائماً تستثير الشرارة السريعة للعقل اللاتيني.

وكان موباسان أستاذ الأقصوصة، لكن طريقته في سردها هي طريقة سرد الملاحم. ولقد كتب كثيراً من القصص كانت في الواقع أفاصيص وكانت كل أفاصيصه قصصاً طويلة. وأشخاصه جميعاً لا ينعمون براحة دينية أو روحية. ومع ذلك فهو شاعر متنكر في زي ساخر قاسي الفؤاد. فتشاؤمه ودقته العلمية وأسلوبه المشرق البسيط الذي ينحو فيه منحى الأدباء الأقدمين إنما هو مستعار من مظاهر جبل الشبان الذين يعيشون حوله، وكان موباسان يشعر كما يشعر بقية جيله أن الله قد خلقه لكنه يرفض ساخراً أن يؤمن بهذه الأبوة.

ولم يكن لديه مبدأ فلسفي يعيش عليه (أن هناك من الحقائق ما يساوي الناس عدداً. فكل منا يكون لنفسه صورة خادعة للعالم. وهو خداع شعري أو عاطفي أو بهيج أو مقبض أو قدر أو كتيب حسبما تكون طبيعته... كخداع الجمال وهو تقليد إنساني.. وخداع الدمامة وهو فكرة متغيرة.. وخداع النذالة الذي يستهوي الكثيرين. وكبار الفنانين هم أولئك الذين يسعهم حمل الإنسانية على قبول الخداعاتهم الخاصة).

وكان مجتمع فوبورج سانت أونوري الذي يستضيفه قد ضاق به، فإنه جلف ريفي شهواني رغم كل شهرته وأنقه. وعيناه لا تخصصان شيئاً بنظراتهما أهما لبسنا عيني رجل طبيعي. فإهما عينان لا تنبئان بروج.

وهذا جي دي موباسان الذي أصبح أستاذ الضحك بلا مسرة ينظر في المرآة إلى

عينيه فيتبلبل هو أيضاً. وكان وجهه يزداد نحولاً كأنما العينان تأكلان اللحم بمقتضى قانون مستمد من طبيعتهما. وكان يخلق ذقنه ذات صباح، فأتي ضباب بينه وبين المرأة، فوضع يده على رأسه المصدع، وأخذ يدرك السبب في عمق بصره بذرات الأشياء؟

لم يحس ذلك أحد؟ إن السبب هو أن عقله يتحلل تدريجاً إلى ذرات الأشياء. فكل فكرة من أفكاره كانت تذوب في قطرات من الإدراك، وكل ذرة من أفكاره ترى كل ذرة زميلة في صورة من اللمعان المعاني قبل الانحلال الأخير.

وكان يتسلق سلم الفن من عبقرية إلى عبقرية أعظم، إلى الطفولة، إلى الإنسان البدائي وما قبله. وكان يهبط سلم التطور نازلاً إلى إنسان ما قبل التاريخ ثم نصف الإنسان.. وما دون ذلك.

ولم يكن يفهم لماذا يموت بمرض تناسلي أصابه في لحظة غامضة مجهولة أثناء مغامرة مع خيال. لم يفهم ذلك وأفرغته فكرة الموت. إني أو من بأن كل إنسان يموت يطويه العدم قطعاً. إن الإنسان إذا مزح مع الحياة سلكه الناس في عداد المازحين الماجنين أبد الدهر. إن هؤلاء الملايين من قراء كتبه لم يدركوا أن ما يظهر في قصصه من أوهام وأشباح، إنما يرجع إلى ساعات سرية من حياته الخاصة.

لقد طمر نفسه يكتب الطب، وقابل الأطباء في كل مكان، يسألهم من الأمراض، فاستنتج العقلاء أنه يجمع معلومات يفيد منها في كتاب جديد، في سخوية بالأطباء، ودراسة للشذوذ. فلما قال لأضيفه في هدوء ساعة العشاء (إني مهتم بالجنون، سأصف العملية التي ينحدر فيها رجل إلى الجنون تدريجاً). ترى هل وعوا ما يقول؟ وهل درت عشيقاته أنه إنما كان يختلف إليهن لأنه يخشى النوم وحيداً؟ لقد كان مصاباً بداء الكشف والتفرج على ذاته، وكان أحياناً يرى نفسه في وضوح كأنه ينظر في المرأة. ودخل حجراته بعد الظهر في أحد الأيام فوجد نفسه جالساً على مقعد يقرأ كتاباً كان قد نحا جانباً حين برح الغرفة منذ لحظة. وكتب قصة (لاهورلا) عن رجل يتردد عليه طيفه.

وكان مرة يكتب على منضدة فجلس طيفه قبائنه في سكون، وأخذ يملئ عليه ما

يكتب كلمة كلمة، فشحب وجهه وصرخ، وحرك يده حركات يائسة ليطرد الطيف. وكانت قشعريرة عوالم الموتى تسري في دمه. وهو الآن يخشى قدوم الشتاء أكثر مما كان يفعل في أي وقت مضى. فيجلس مرتعشاً إلى جانب النار وحين يكون الجو دافئاً كان يوقد النار في جميع الغرف.

واشترى قارب نزهة، وأبحر تحت شمس البحر المتوسط، وجمال في رمال إفريقيا. لكنه في الحر كما في البرد، كان يكتب ملاحظته ويدنه يقشعر. كان يفكر في الذباب الذي يعيش أياماً قليلة، والناس الذين يموتون أعماراً قليلة والعوالم التي تعيش قروناً قليلة. فما هو الفرق بين الدودة والكون؟ فرق بضعة أيام لا أكثر... (إني أرى الموت الآن قد اقترب مني بحيث صرت بحاجة إلى مد ذراعي لأدفعه عني. إني أراه في كل مكان وأن الحشرات التي هشمت في الطريق، وأوراق الشجر المتساقطة، والشعرات الشيباء في رأس صديق لتمزق قلبي كل ممزق وتصيح بي (تدبر) إنها لتفسد على كل ما أفعل وأرى وأطعم وأشرب وأحب - ضوء القمر اللامع ومشرق الشمس ومنفسح المحيط، والأفئار النبيلة، ونسيم أمسيات الصيف الذي يطيب نفسه).

وهو الآن يصغى بحاسة سابعه فتوافيه مع أنسام البحر المتوسط أنباء مزعجة فإن القدر على حين بغتة أصاب أخاه الأصغر هارفي القوي البنية الجاد البعيد عن الأوهام بضربة قاضية في عقله. كما تضرب الشمس مستحماً نائماً.

فلما اصطحبه أقرابه إلى مصحة العقل أشار إلى (جى) صارخاً (إنك أنت المجنون إني أقول لك إنك مجنون العائلة) وسرعان ما كان هارفي مستلقياً على فراش الموت هادئاً غير مكترث، ولكنه بذل جهداً أخيراً بأن نادى أخاه، كما كان من عادته أن يفعل حين كانا صبيين:

(تعال نلعب في الحديقة يا جى) وما كاد جى يجفف دمه حتى كان أخوه قد فارق الحياة.

والآن شاءت سخرية الحياة الحزينة أن تكون هذه الفترة هي فترة خلقه الأديبي

الأعظم، وكأنما قد أخطأ الطريق بغتة فدلّف إلى حظيرة آله لا تراها العين. ذلك بأن السموم القاتلة التي تجري في دمه كانت تستخرج منه أزهار عبقريته قبل أن تحطمه. فقد سطر قلمه قصصاً عن المناطق الاستوائية الهادئة المتوهجة، وعن الحب الإنساني الجميل وعن رحلات في البحر المتوسط الذي كانت أمواجه تذوب في ضوء القمر المبدع فتغدو نجومًا وكواكب.

وثما ألمه بنمو جماله، فمناضد المكتبة والمقاعد والمصاييح صارت حيوانات تسعى دخولاً إلى الغرفة وانصرافاً عنها، ونزولاً على الدرج وسيراً في الطريق أن ملايين وبلايين الجراثيم تسري في دمه، كأنها في استعراض. فإذا وضع كعبه على الأرض قفز إلى أعلى في الحال، وكان خادمه يسير وراءه في بطاء خلال الحقول ذات مرة، فرأيا صليباً عليه صورة المسيح فقال (أي فرانسوا) لقد كانت سنة ثلاثاً وثلاثين حين صلب. وأنا الآن أقارب الواحدة والأربعين).

لقد صار (الرسام الأكبر للعبوس البشري).. وهو يرسم وليس به حب ولا كراهة ولا غضب ولا عطف، فهو يعرض علينا كل الأرواح الغريبة العجيبة وكل منكودي الطالع عرضاً واضحاً بحيث نراهم بأعيننا نحن، فتجدهم أحق من الحقيقة نفسها. أنه يبعث إلى الحياة دون أن يصدر حكماً.. وإنه ليعدل الطبيعة في حياده وعدم أكثرائه.

وحدث بعد ساعات قليلة على ليلة رأس السنة أن وجه موباسان غداره إلى رأسه وشد زنادها، فلما وجدها خاوية شق حلقة بموسى ووقف يحمق في ابتسامة غير آبهة. فإذا هرع خادمه إلى الغرفة صائحاً قال له في هدوء (لقد رأيت ما فعلت بنفسي يا فرنسوا. لقد شققت حلقي إنها مسألة جنون مطبق) أن الرجل الطبيعي إنما قد قام بتجربة نهائية على الحيوان البشري، وهو الآن على استعداد للتخلي عن دروسه، لقد ضمد الأطباء جراحه وأوقفوا تدفق الدم.

فلما أقبل الصباح كأنه كلب الصيد يعدو في السماء، اقتادوه إلى بحره الحبيب لعل منظر قاربه الصديق الجميل (بيل آمي) يرده إلي صوابه. فأطال النظر إلى القارب بعض

الوقت، وتحركت شفثاه كأنه الطفل الذي لم يتعلم الكلام بعد. فلم يقل شيئاً، ثم انصرف عنه. إن شيئاً مما حوله لم يعد يعنيه على الإطلاق.

إنه ليطفو في دعة مع الحشائش والصفصاف على صفحة ذاك الغدير الرهيب الذي لا يزعجه مد ولا جزر.

أهم مؤلفات موباسان

Bel-Ami
Une Vie
Notre Coeur
Boule de suif

Yvette
Mademoiselle Fifi
Pierre et Jean
Fort comme la mort

إميل زولا

١٨٤٠ - ١٩٠٢

في عام ١٨٧٤ كان أربعة من الكتاب يجتمعون للعشاء في قهوة (ريش) بباريس مرة في الشهر، وكان هؤلاء الأربعة هم: زولا، وفلوبير، وترجنيف، ودودية، وكان هذا الاجتماع الشهري- أو عشاء الكتاب المبغضين كما كان يدعى- قد صار موسماً فترياً لتبادل الأفكار العظيمة، والحديث الشهي، والطعام الأشهي.

يكتب زولا في ذلك "كنا جميعاً من أهل البطنة، أما أنا فكنت بحاجة إلى البطنة. إذ كان علي أن املأ معدة قد طال عليها الخواء". وكانوا يجلسون إلى المائدة في الساعة، ويغادرون المطعم في الثانية عشرة، لا ليذهبوا إلى منازلهم. فعليهم أولاً أن يهيئوا في الطرقات حتى الساعة الثانية، أو الثالثة أو الرابعة صباحاً يتذاكرون خططهم، ويتحدثون عن قصصهم التالية، ويمزقون العالم ليعيدوا تأليفه كما تقوى قلوبهم.

وينصرف ترجنيف أول منصرف، ويليه دودية ثم يسير زولا ليصحب الأب فلوبير إلى منزل الأخير في شارع موريلو، فإذا بلغا الباب قبل فلوبير زولا من كلا خديه، وافترق الصاحبان بعد إذ يقول الأستاذ كلمة حوارية "كل شيء قد قيل أماننا يا بني، ولم يبق لنا إلا أن نردد ما قيل. وكل ما علينا أن نقوله في ألفاظ أجمل".

وعاد زولا لا ليردد ما قيل في ألفاظ أجمل، بل ليقول أشياء جديدة في ألفاظ قدر لها أن تتجاوب في كل بقاع العالم.

-٢-

وكلمة (زولا) معناها كتلة من الأرض، وكان هذا الاسم يصدق على أميل، فهو ابن أمنا الأرض، يجب كل مخلوق عادي خرج من صميمها.

وكان إنساناً تجري في عروقه دماء مختلطة.. تحوي قليلاً من كل ما هو طيب، فجدته

إغريقية، وأمه فرنسية، وأبوه إيطالي.

كان فرانسسكو زولا مهندساً مدنياً لديه دائماً الأفكار الصالحة، يؤيدها رجال غير صالحين. وقد تمكن آخر الأمر من استشراف النجاح حين عهد إليه حكام أكس بحفر قناة تجلب الماء من الجبال إلى المدينة، لكنه لم يستطع قط أن يجاوز الاستشراف، ومات عام ١٨٤٧ قبل أن يبدأ العمل في حفر القناة تاركاً السيدة زولا بابنها أميل، وكان في السابعة، وليس لديها شيء تعوله به غير حلم خائب.

فأمضى خمس سنوات في تعلم متقطع، يتخللها كثير من رحلات الاسترخاء إلى شاطئ التورز ثم بعث بالأفاق الدميم الصغير إلى تعليم صحيح في كلية أكس.

وكان مقامه بالكلية عذاباً طويلاً متصلاً فهو متحفظ يصعب عليه كسب الأصدقاء وبه لثغة تربيته. فإذا سأله رفاق الدرس ما أسمه تلغثم وهو يجيب (ثولا) وأصبح (ثولا) اسماً يطلق عليه تمكماً، وسوط عذاب يصب على ذلك المتلغثم المرتبك الحساس.

لكنه لم يتلق عقابه متسلماً فهو محارب مكافح. وإذا وقف في وجه الدهماء كال لهم صاعاً بصاع. ولقد هاجمه ذات صباح تلاميذ ملأوا فناء المدرسة فوقف مقهوراً يلهث، يحاول بأقصى الجهد أن يوقف دمه. فذهب إليه صبي كان قد بلغ الفناء لتوه وقال له: يؤسفني ما حدث.

حسناً: إني أستطيع الذود عن نفسي.

فمد إليه ذلك القادم الجديد بده وقال في دفعة: أريد لأتخذ منك صديقاً..

- وكذلك أريد.

هذا ما قال زولا وهو يصافح اليد التي امتدت إليه. وبالمناسبة ما اسمك؟

"سيزان. بول سيزان". وهكذا بدأت الصحبة التي استمرت سنوات طويلة بين ثايرين

من أولي العزم يواجهان العالم.

كان زولا الصغير (وهو في كلية أكس) كاتباً مجيداً. فهو في عامه الثالث عشر يكتب قصة تمثيلية ذات ثلاثة فصول - ولكنه تلميذ متخلف - فإذا ترك كلية أكس إلى مدرسة المعلمين العليا بباريس لم يكن قد تحسنت حاله فهو ينقطع عن الدراسة، ويرفض أن يردد ما حفظ مني وطلب منه ذلك، ويقف وقته كله على قرض الشعر ومطالعة رابلية، ومنتاني، وهيجو، وموسيه، ونال في الامتحان النهائي صفراً في الأدب.

وجاء رسوبه ضربة أليمة لأنه ففيها قد نظفت أرض المنازل وأزالت أقدارها وغسلت ملابس الناس لتتفق عليه في تعليمه بالكلية، لقد أرادت أن تجعل منه مهندساً كأبيه، الآن تتحطم آمالها وتهشم فإن القدر يسوق أميل إلى أن يكون من الكتبة، أو يسوقه لا قدر الله إلى حياة الأديب الجديدة. وكان أميل نفسه يائساً، فقد كتب إلى أحد أصدقائه: "في الأسبوع الماضي وقعت في برائن حزن حزين، فلقد بلغت العشرين دون أن أتعلم مهنة ما، فإني حتى الآن لا زلت أهييم في الأحلام، وأسير على رمال واهية، ومن يدري متى أقع؟".

و شاء حسن الحظ أن ينقذه من الوقوع الفجائي صديق قديم لوالده، وكان يدعي لبوت. فقد عينه كاتباً في مرفأ نابليون. وهو عمل يكاد يفي بغذاء جسمه لكنه لا يقدم شيئاً لغذاء روحه. لم يكن في المرفأ شيء من المرح "فظللت أقيم أشهراً في هذه الخطيرة اللعينة، والله إني لأشعر بأثر ذلك في ظهري ورجلي وأطرافي الأخرى جميعاً. وإني أجد مكتبي رائحة كريهة. إني لأتفرز - ولسوف أقطع ما بيني وبين ذلك المخزن الخبيث".

وقطع ما بينهما بعد أشهر قليلة، ثم انزوى عامين في حمأة الشقاء والعوز والجوع والمرارة والإسمال واليأس، والأحلام ورسم الخطط لإيجاد عهد للإنسانية جديد، وخلق إنجيل جديد يضيق مسافة الخلف ما بين السماء والأرض.. ليته يستطيع صنع هذا الإنجيل. ليته يستطيع تسكين هذا الألم المبرح في معدته!.

ثم يلتزم شمله بسيزان، وكان قد تبعه إلى باريس ويسكنان بعض الغرف معاً ويجلمان معاً، ويقتلها الجوع معاً. النبي الجديد للبيان، والنبي الجديد للتصوير، في عصر لا يجفل فيه أحد بالأنبياء، فكان زولا يكتب القصائد وسيزان يلون الصور، ولا يجد أيهما جمهوراً

يقدر بضاعته، ولو أردنا الحق لقلنا إن أحداً منهما لم يكن يستحق التفات الجمهور إليه حتى ذلك الوقت. فإن لهيب الإلهام لم يمسس بعد ذلك الوقود الذي صنعته آلامهما.

(لكني سأكتب حتماً ذلك الأثر العظيم يوماً ما. والأيام بيننا) •

وفي هذه الأثناء كان يدوق مزيداً من المرارة ومزيداً من اليأس، ومزيداً من العوز، وبلغ الجوع منه مبلغه في شتاء عام ١٨٦١ - ٦٢ فأقام الفخاخ على سقف عليته يتصيد بها العصافير التي جعل يشويها على شعة ثبتها بطرف قضيب، وكان يغمى عليه أحياناً من الجوع.

وكانت نجاته في هذه المرة أيضاً على يد صديق لأبيه. فعين هذه المرة عاملاً للفتب وحمها في دار للنشر يملكها هاشيت وشركاؤه.

وظل شهوراً عدة يلف الفتب في قسم الشحن البحري، ويكتب إذا فرغ تعليقات على هذه الفتب، يتسلى بذلك ويستمتع.

وذات يوم بغته صاحب الدار وهو يمارس هوايته العابثة. فقرأ التعقيب وقال "قد تكون يا زولا متراخياً في الشحن، لكنك في النسخ أقل سوءاً. فلنجربك في قسم الإعلان".

وكانت هذه الترقية نعمة ساقها الله إلى زولا. لقد وجد آخر فرصة لكسب عيشه بقلمه.

فإذا شحذ قلمه، جعل يستعمله مثابراً في النهار والليل، فلا يفرغ من عمله الرتيب في المكتب حتى يذهب إلى المنزل - وكان يساكن أمه فيه وقتئذ، فيصيب عشاء وافراً ثم يجلس إلى كتابة غير رتيبة.

وكان قد انصرف عن الشعر إلى القصة "لقد كانت ملهمة شعري. لا غناء فيها فلاأكن نائراً منذ اليوم". وأخذ يعرض قصصه القصيرة، فساعد بأن رأى بعضها منشوراً في الجرائد المحلية. ثم جمع قدراً من هذه القصص وعرضها، لا على ناشره بل على ناشر آخر

أقل منه تزمتاً هو (هتزل ولكروا).

وكان في أوائل الربيع من عام ١٨٦٤، حين نظر إليه (لكروا) من خلف مكتبه. فرأى صبيّاً بديناً مرتباً شعره منقوش وأنفه أفطس كأنه يتحدى.

"سيدي، أتفضل بقراءة هذه القصص، ولو قصة واحدة منها فقط. أرجوك أن تقرأ منها أي واحدة شئت. فسترى لتوك أي صاحب كفاية".

فطرب (لكروا) لما سمع من توكيد الصبي، وإن كان قد سمعه في نغم بالغ التهيب. فوعد زولا بقراءة المخطوط. وانتظر زولا عدة أسابيع بدت له في قلقه كأنها بضع سنوات، ثم قبل الناشرون المخطوط.

قال زولا في بجمّة "لقد كانت المعركة قصيرة: إني الآن على عتبة الحياة، فليس علي إلا أن أسير قدماً من هذه النقطة وأن أتابع السير". وبعد نباهة الذكر، جاء الحب والخيال.

— ٤ —

فقد استأجر زولا شقة في أحد الشوارع قريباً من مدرسة الطب على الشاطئ الأيسر لنهر السين، ورأى (ألكسندر يناسلي) ابنة صاحب الحجرات التي استأجرها ذات مساء، وكانت الفتاة سمراء طويلة تأخذ بالأبصار، ذات عيين كأنهما عينا طفل في صورة إسبانية قديمة. كانت هذه الفتاة تبكي وتحاول أن تتجنبه، وعرف زولا أمرها شيئاً فشيئاً.

فهي قد كرست نفسها لعاشقها، وكان طالب طب من الأقاليم، وقد ذهب الجيب إلى بلده وهجرها. فأخذها زولا إلى منزله واتخذها خليلة.

وما لبث أن تلقفها قلبه فاتخذها خليلة. وكانت معاشرة تساوت فيها رقة الزوج ورقة الزوجة، ولم يكد يكون بينهما أي تشابه من حيث الجسم (فزولا دميم كأنه الكابوس. وألكسندرينا، حلوة كأنها الحلم) ولئن عبد زولا جمال جسمها فقد عبدت ألكسندرينا جمال روحه.

ولسوف تثبت ألكسندرينا أيضاً- كما سنرى- أنها صاحبة روح جميل.

لقد صار زولا صاحب بيت مستقر وشهرة تنمو وتكبر في عمله. وكان معنياً بالأدب الواقعي من طراز قصة (مدام بوفاري) لفلوير، وتمثيلات من طراز هنريت ماريشال لكونكور تلك الدراسات العلمية في الحب، التي أصابها عيون نفذت إلى أعماق أسرار الحياة. فأراد أن يكون كذلك عيناً بصيرة تكشف عن أمراض المجتمع كي يعالج جراحه.

فكتب عدداً من القصص الواقعية، وهو يفضل أن يسميها بالطبيعية. وقد قرئت القصص على نطاق واسع، وأهين زولا على نطاق واسع كذلك "لقد سقطت من عين أهل الوقار".

وظل الجمهور يشتمه ويقراه، ويصب في جيبه المال. فقد صار في دوائر المثقفين غير الوقورين، علماً ذائع الشهرة إلى حد ما، حتى لكأنه الأسد كما يقولون، أو بالأحرى: كأنه الدب، بوجهه هذا الأشعث وبنطه الضخمة، وذوقه الخشن غير المصقول.

وكتب سلسلة مقالات في مدح (سيزان) وغيره من الفنانين المحدثين المزدرين وإن كان يعترف بأنه لا يحسن تمييز اللون الأسود من اللون الأبيض.

وقد أثار حول آرائه المجنونة عاصفة من الخصومات. ويستمرى جنونه وشهرته.. فكل هذا يعبد له الطريق إلى مشروعه الضخم، وهو تأليف الإنجيل الجديد الذي كان يرسم خطته طيلة سنوات عدة، والذي يرسم صورة الإنسانية كاملة غير مزدانة، كما تتضح من دراسة الأجيال المتعاقبة من أسرة واحدة. وإنما ملحمة من ملاحم الاتهام ستكون في الوقت ذاته إنجيلاً للأمل. وحين يكتب زولا ملحمة الاتهام هذه في عشرة مجلدات، يصبح على حين فجأة تلميذاً وناقداً ومعلماً لبني جنسه.

وكان قبل أن يبدأ كتابة كل قصة، يأخذ في دراسة شاملة كاملة للمشاهد والأشخاص والأماكن واللغة والآمال والمخاوف والعقائد لتلك الذرات الإنسانية التي يتركب منها بناء القصة. فكان يقرأ كتباً في الموضوع ويزور الأماكن ويحادث الناس ويرقب تصرفاتهم وأصواتهم وبهجتهم الدارجة، ويثبت ما رأى فكان يجمع لكل قصة مذكرات تملأ

مجلدات متتابعة، ثم يأخذ هذه الكتلة المستعصية من المعلومات ويعيد قراءتها ويسبكها ويصوغها في ذهنه إلى فكرة وخطة، ويتابع كل شيء في تريث ونظام وصبر. إن الكتابة عبء ثقيل.

وأخيراً بعد كد يظل عدة أشهر، ربما عدة سنوات، يولد أثر من آثار الأدب.

ولنلق نظرة عجلى على أحد هذه الآثار الفنية (لاسوموار) وكانت لهاً يندلع من كمية من الوقود ضخمة. وقد أسهب زولا في وصف إعداد هذه القصة وكتابتها. فهذه القصة صورة لما يلقي الفقراء من آلام، وإنها لصورة مخيفة. كذلك يقول زولا في مذكراته "وهي قصة تفصح هي عن مغزاها. وتدعى بطلة القصة: جرفيز ماكارت وهي امرأة من الشعب.. هي مثل من البؤساء الذين تنكرت لهم أمانا الأرض. وعاملتهم بما ينتظر المرء من زوج أبيه، وإن جرفيز لم تكد تعدو العشرين حين ولدت طفلين (كنود، وأتين) وكلاهما جاء من علاقتها غير المشروعة (بلنتيير). فقد ألفت بنفسها في حماية بلنتيير وهي بعد في سن الثالثة عشرة لتنجو من قسوة أبويها.. وكان لنتيير في أول أمره رحيماً بها، غير أنه الآن يهملها، فهو يقضي الليل بطوله في السهر خارج المنزل، ومتى عاد مع الصبح لم يكن يستطيع النهوض على قدميه، وسل عن ذلك حاتنه في الحي (سوموار) وامرأة أخرى هي (أديل) ولا تزال جرفيز ذات جاذبية وملاحة، غير أن بما عيباً جسمانياً واحداً هو ظلع يسير إذا مشت. وكان هذا الظلع يزيد وضوحاً حين تجهدها كثرة العمل بوجه خاص، وإنها هذه الأيام لفي غاية التعب حقاً.

وكانت ذات صباح تغسل ملابس الأسرة في مغسل عام. فيهرع ولداها إليها ليخبرها أن لنتيير قد هجرها وأقبل على (أديل) ومضى بكل ما تملك جرفيز وأضيفت إلي أبناء الأطفال المشيرة، سخرية من فرجيني أخت (أديل) وكانت امرأة قوية البنية جاءت إلى المغسل تشفياً بشهود ما أصاب غريمة (أديل). وإذا كانت جوفيز أصغر حجماً وأهش قوة ممن تعيرها وتشمت بها، فقد قفرت فوقها وركلتها وعضتها وضربتها حتى توسلت فرجيني بطلب الرحمة "لكني لن أغفر لك هذا قط" بذلك غمغمت فرجيني وهي تنسل من المغسل.

وظلت جرفيز بعض الوقت تعول نفسها وولديها بأجر ما تغسل من ملابس الناس.. وكان من معارفها (كوبو) عامل القصدير، وهو شاب يعرف قصتها التعمسة مع لنتبير، ويطلب إليها (كوبو) أن تكون له خليلية ولكنها ترفض المرة بعد المرة. وأخيراً يطلب يدها فتقبل.

وتثور العواصف والاتهامات من أسرة كوبو. ويطمئن الزوجان فترة سعيدة شيئاً. فإن كوبو لعامل مجد، وجرفيز غسالة ممتازة.

ويتمكن الزوجان معاً من تهيئة منزل طيب للطفلين ولطفلة ثالثة هي (نانا) التي ولدت بعد زواجهما بأربعة أعوام.

وما هي إلا فترة قصيرة اعتكفتها مع (نانا) ثم تعود إلى العمل في المغسل. وكانت لا تحلم إلا بأن تكون صاحبة مغسل، وأن الأمور ليست بالغة السوء آخر الأمر، وخاصة إذا اشتغلت في جد، وحافظت على أمانتها وتدبر مشروعاتها. لكن مشروعاتها أصيبت يوماً بصدمة مفاجئة ذلك بأن زوجها قد هوى من سقف يصلحه، فرفضت إرساله إلى المستشفى وأصررت على العناية به في المنزل. فكانت نقاهة طويلة، خرج منها كوبو وقد صار يختلف عن الرجل القديم. فالسقوط لم يهشم جسمه وحده، بل هشم روحه كذلك. فلم يعد طموح ولا خطة ولا أمل، وإنما هي عاطفة مسيطرة هي الحانة.

وكان القدر يحاور أسرة كوبو، كما يحاور القط الجرذ. فهي تطعم لقمة سائغة من السعادة ثم تخوض لجة من الشقاء، ثم توعده بالسعادة وعداً جديداً كذوباً.

فهذا رجل كان يجب جوفيز مستخفياً هو (كونجي) الحداد ذو اللحية الذهبية، والقلب الذهبي، وقد ظهر عليها فحملها على أن تقبل منه قرصاً مقداره خمسمائة من الفرنكات، وهذا مبلغ يكفيها أن تفتح مغسلها وتحقق حلمها.

لكن القدر كان يترصد بها في الربيع القادم كما يترصد النمر.

فقد غدت فرجيني أخت (أديل) جارة لأسرة كوبو، وهي لم تنس قط تلك الوكرة من جرفيز. فأدعت صداقة جرفيز وأخبرتها أن لنتبير قد عاد إلى قواعده (لقد هجر أديل..

وهو على حبك مقيم).

وربعت جرفيز لذلك، لكن مضت فترة من الزمن دون أن يبذل عشيقها السابق جهداً للقائها، بل لقد كان يلتمس صداقة زوجها كوبو.

فتلازم الرجلان في الحانة وأخيراً دعا لنتيبر نفسه إلى مساكنتهم في منزلهم.

وكان من أثر الرجلين المنحليين في جرفيز، أنها أخذت في الانحلال البطيء. كان عليها أن تعولهما جميعاً كما تعول أطفالها. فجاهدت زمناً لتنهض بعينها الباهظ.. ثم ناءت به. فتشاجرت مع زوجها وأهملت عملها، وانتمست السلوى والنسيان بين ذراعي لنتيبر. ثم كانت الصدمة الأخيرة إذ فقدت لنتيبر ومغسلها وورثتهما جميعاً فرجيني.

وهي الآن مع زوجها غارقة في دوامة الحانة فينتكس كوبو من سكرة إلى سكرة حتى يزهق روحه كابوس الكحول. وأما (نانا) فهي الآن فتاة كاملة النضج، قد هجرت المنزل لتغدو من رائدات الشارع، وتحاول جرفيز أيضاً أن ترتاد الشوارع. ولكن من ذا يطلبها.. جوع وشراب ويأس، ثم إشراف على الهوة.

ويبذل الحداد (كونجي) محاولة أخيرة لإنقاذها، ولكن سبق السيف العدل، فإن حانة العالم التي تسكر الفقراء بجم اليأس المرير.. قد تقاضت أتوتها..

- ٥ -

ومن مفارقات القدر أن القصص التي كتبها زولا عن الفقراء قد جعلته غاية في الشراء وفي السمعة والاكنتاب. فأنت مهما تعمل، فإن الحياة آخذة بخناقك. فحين الفقر تكاد تموت من الجوع، وحين الغنى تكاد تموت من البطنة. وكان زولا عصبي المزاج منذ طفولته، فاعتقد أنه مصاب بكل مرض معروف. وهذا يرجع فيما قال إلى ما أصابه له صحة كصحة الحصان. إنما الذي يقض مضجعه في حقيقة الأمر ليس ضعف صحته، بل حرمانه الولد فهو كان يحس أنه نصف إنسان فحسب. لماذا كتبت عليه زوجة لا تستطيع أن تنهض بوظيفة الأمومة؟ إن هنا بين خدمة امرأة أخرى (جيان روزيرو)، هي وصيفته الخاصة، وهي طويلة، صحيحة الجسم عسلية العينين، حسنة الهيئة، غضة ندية.

فما أطيبها من أم لبنيه.

ولم لا؟ فإنها لا تكاد تبلغ العشرين. أما هو فشيخ في الخمسين أشيب مستدير الجسم كأنه رأس الخنزير. لكنه إذا لزم نظاماً معيناً في الطعام استطاع أن ينقص عمره ثلاثين عاماً، ومن وزنه ثلاثين رطلاً، أما شعره الأشيب فإنما يزيد جلالاً في عيني جيان.

فيلزم في طعامه التحديد الصارم أشهراً عدة... فيمتنع عن الدهنيات والقطائر والسوائل حين الوجبات. وعاد الشيخ إلى شبابه. وكأنه فوست قد تراءى في شكله الجديد، واتخذ لجان شقة خاصة وما كان أبلغ سروره بأن ولد له طفلان.

ولكن أين السرور من زوجته ألكسندرين. إنها تحنج وتثور وتهدد بالانفصال. وأخيراً تستسلم لما قسم لها، فتصير المرأة الأولى في بيته... والمرأة الثانية في قلبه. بل لقد تجاوزت ذلك، وإذا كان المثل الفرنسي يقول (النبالة تفرض التزاماتها) فإن الأمر كان عكس ذلك في أمر ألكسندرين فان (الالتزامات قد فرضت النبالة) فهي في تسامحها الذي أنبته حزنها تتصل بأبناء زوجها، وتسجل الطفلين ولدين شرعيين لزولا، وتعني بهما شخصياً مدى حياتها.

و شاء زولا أن يظهر عرفانه بجميل ألكسندرين، فأهدى إليها كتابه (الدكتور باسكال) وكتب عليه "إلى زوجتي العزيزة، أهدي هذا الكتاب الذي هو لباب تواليفي وخاتمتها". ولكنه يكتب على إحدى نسخ الكتاب إهداء مختلفاً (إهداء إلى حبيبتى جيان التي أهدتني زهرة شباهما الرائعة، والتي منحني دنيس وجا كوب.. ولدى العزيزين اللذين ألفت لهما هذا الكتاب، حتى يعرفا مبلغ عبادتي لأمهما). وظل زولا حتى آخر يوم من حياته محافظاً على علاقته هاتين: إخلاصه (لزوجتي العزيزة) وعبادته (لحبيبتى جيان).

- ٦ -

فإذا أتم زولا قصصه العشر، (ملحمة الكفاح في سبيل الحق) لم يبق عليه إلا الراحة تحت أكاليل الغار لكن جهاده الحق قد بدا من هناك وكان الجهاد يتصل بمحاكمة الكابتن دريفوس.

ولم يكن زولا يهتم بمحاكمة دريفوس (فما هو غير يهودي آخر متهم بخيانة الوطن) ولم يكن زولا يأبه لليهود قط. بل كان يبغضهم في شبابه أشد البغض. ولكن لا تتقدم المحاكمة حتى يحس في إجراءاتها معنى عجبياً. فهو قد مرن على دقة الملاحظة حين يعد قصصه. فخامره الشك في أن تكون التهم الموجهة إلى دريفوس ملفقة على رجل شريف فشرع في درس القضية فاستيقن ما كان يرتاب فيه. لقد ارتكب الظلم الشنيع في بلاده ويقتضيه واجبه المقدس بوصفه مواطناً يجب بلاده أن يحو الظلم. فالذي يحاكم أمام العالم ليس دريفوس بل فرنسا. فوهب زولا نفسه قلباً وروحاً لتطهير اسم دريفوس لكي يطهر اسم فرنسا.

وكان دريفوس يذوى ويضمحل في السجن الانفرادي على جزيرة الشيطان (إني بريء) كذلك كان يصبح ويكرر صباحه. وهو يؤمن في يأسه أنه لم يسمع صوته غير الرياح والأمواج.

ولكن زولا قد سمعه وأجبر العالم بأسره على أن يسمعه، فكتب رسالة ونشرها وجعل عنوانها (أني أتهم) وحلل القضية لها بعناية في هذه الرسالة، ولم يقف في هذه الرسالة عند إثبات براءة دريفوس ولكنه وجه اتهامه إلى الرجال المجرمين والنظم المجرمة "لم يبدأ هذا الأمر إلا اليوم. فقد انقسم الناس الآن إلى معسكرين يضم أحدهما المجرمين الذين لا يحبون أن يلقي على الموضوع أي ضوء، ويضم الجانب الآخر محبي العدالة الذين يضحون بأرواحهم في سبيلها. وليس لدي غير عاطفة واحدة هي حبي للنور والوضوح. وليس احتجاجي الحار الملتهب غير صرخة من صرخات الروح.. فليجرؤ الجناة على الدفع بي إلى المحاكم فهذا من شأنه أن يجعل بتفجير قوة الحق والعدل".

وقد حدث الانفجار فعلاً، وإن لم يكن انفجار حق أو عدل: بل كان انفجار بغض لزولا وعنف به "فليسقط زولا، يسقط الخائن، اشتراه اليهود" وهوجم منزله، وقذف بيته بالحجارة، ومرق بعضها

من النوافذ مروق السهم ومنعت كتبه من التداول، وأحرقت صورته وألقى بها في

السين، ودعت إحدى صحف باريس (صحيفة القول الحر) إلى قتل زولا ونهب بيته.

وأخيراً بلغ الهياج غايته فقبض على زولا بتهمة القذف: وحدثت مهزلة طويلة قبل إنها محاكمة. فكان محامي زولا كلما سأل شاهداً أن يذكر من الحقائق ما ينير جوانب القضية، قاطعه القاضي بقوله (أرفض توجيه هذا السؤال) وألقي زولا في ختام المحاكمة دفاعاً ذليلاً طلب فيه العدالة لا لنفسه بل لدريفوس. (أنه بريء. أقسم على ذلك بحياتي وشرفي في هذه الساعة الرهيبة وأمام هذه المحكمة التي تمثل العدالة الإنسانية وأمام فرنسا وأمام العالم أجمع أقسم أن دريفوس بريء. وبحق الأربعين عاماً التي قضيتها في الكد والعمل. وبحق الصفة التي قد يخولني إياها هذا الجهاد أقسم على براءة دريفوس وبكل ما كسبت وبالسمة التي أصبت وبمؤلفاتي التي أعانت على نشر الثقافة الفرنسية أقسم أن دريفوس بريء فليمزق كل هذا شر ممزق ولتمت تواليقي جميعاً إن لم يكن دريفوس بريئاً. وإنه لبريء.

أما عن مصير زولا نفسه (فلن أتكلم.. وقد يصدر علي حكم هنا ولكني سأنتصر. فإن فرنسا ستحمد لي يوماً ما أي عاوت على إنقاذ شرفها).

ووجد المخلفون أنه قد ارتكب جريمة قذف (في حق متهمي دريفوس وساجنيه) فحكم عليه بغرامة قدرها ٣٠.٠٠٠ فرنك، فكلفه كفاحه في سبيل إحقاق الحق عمله وصحته وسمعته وما ادخره طول حياته وكسبه من أصدقاء وعاد إلى سابق سيرته منذ أربعين عاماً مزدري محروماً وحيداً.

لكنه أقام على كفاحه، ونجح آخر الأمر في إيقاف ضمير فرنسا، فأعيدت محاكمة دريفوس، ووضحت براءته، وأطلق سراحه. لقد انتصر زولا وعاش حسي شهد اليوم الذي تنبأ به أثناء محاكمته، والذي نحمد له بلاده فيه أنه أعان على إنقاذ شرفها.

-٧-

لقد انتهى دوره على مسرح الحياة وأن للقدر أن يؤذن بإسدال الستار. وقد أسدل على نحو مسرحي يناسب بطلاً من طراز زولا.

كنا في الثلاثين من سبتمبر سنة ١٩٠٢ وكان سيزان أقدم أصدقاء زولا قد دخل لتوه مرسمه في أكس، وأخذ يعد لوحة الدهان استعداداً لعمل اليوم، فيهرع إليه بالاستديو خادمه وقد تقطعت أنفاسه تقطعاً (مسيو سيزان مسيو سيزان لقد مات زولا).

فخفق قلب سيزان خفقة: كيف حدث ذلك؟

- حدث حادث يا مسيو سيزان ذهب زولا إلى مخدعه في الليلة الماضية، وقد ترك النار موقدة فانتشرت النار.. الغاز.. الاختناق.

لقد أطل زولا السهر ليلة موته. ووجدوا على مكتبه في الصباح التالي صفحة مخطوطة لم تتم. بها عبارة مكتوبة على عجل هي جماع فلسفته في الحياة.

(أن نعيد بالحق خلق إنسانية أسمى وأسعد).

أهم مؤلفات زولا

Lourdes

Paris

J'accuse

Rougon-Macquart

Nana

Rome

مارك توين

١٨٣٥ - ١٩١٠

لم ينل مارك توين بعد حظه الكامل من الاعتراف، فلقد توج عمله بكل ألوان التكريم عدا واحداً، هو الفهم الواعي. فسمحنا لسمعته أن تتركز على عمله الذي يأتي في المرحلة الثانية من الجودة. فنحن نعجب به بوصفه أعظم أصحاب الفكاهة الأمريكيين، ونتجاهله بوصفه من أعمق فلاسفة أمريكا، فإذا ضحكنا من فكاهاته، نسينا ما ينطوي عليه كثير منها من إيجاع. فلقد ركزنا عنايتنا في قلنسوته ونواقيسه بحيث لم نر النبي بعد إذ تنكر في ثوب المهرج.

ولا مرأى في أن مارك توين كان صاحب دعاية. بيد أن المازحين الذين على شاكلته هم رجال يعلو وجوههم الابتسام ويعمر قلوبهم الألم.

فإنهم ليضحكون كما قال ذلك المنتشائم الفكاهة الآخر فولتير، تفادياً للانتحار فلقد تعمقوا النظر في كنه الأشياء فغلبهم الغباء المؤسف (للجنس البشري اللعين) لذا اتخذوا لأنفسهم أقنعة هازلة إخفاء لما يحتجب وراءها من عبرات.

إن من عانى أعظم الألم، تعلم كيف يضحك أبلغ الضحك. فأصحاب الدعابة وأصحاب التهكم وأصحاب السخرية القاسية.. أطفال الأدب المشاكسون، هم الثائرون بالحياة الذين غلبوا على أمرهم. فهم يثغرون أنوفهم بأصابعهم في وجه القدر، لأنهم في عجزهم يدركون أنه لم يعد لديهم إيماءة أخرى.

وكان مارك توين من أولئك الثائرين المغلوبين على أمرهم. كان يعتقد أن كل الجهاد البشري مهزلة لا تهدف إلى شيء "قصة يرويها معتوه مليئة بالضجيج والصخب وليس لها

من معنى".

فنحن نحاول أن نتخطف قوس قزح، فنغرق في الحمأة. نلتمس الوصول إلى القمر فتهشم عظامنا. وأن الآلهة لتترب لمُنظر آمالنا العنيدة في وجه هزيمتنا الدائمة. ولكننا أيضاً فيما يعتقد مارك توين يمكننا أن نترب إذا خففنا آلام هزيمتنا بمخدر الضحك. فإننا نستطيع النظر إلى أنفسنا نظرة موضوعية بحيث نعم بشهود آلامنا.

(تعلم كيف تألم كما يألم ممثل في مسرحية الحياة. ولكن تعلم أيضاً بوصفك أحد النظارة أن تبسم لأملك الشخصي).

- ٢ -

كان صمويل كلمنس ثمرة زمانه ومكانه. فهو ابن الحدود. لذلك واجه الحياة في فكاهاة عابسة كما واجهها جميع السابقين إلى سكني هذه البقاع. وهذا الطراز من الدعابة كما يقول كاتب سيرته ألبرت بجلوبين قد نما من ظرف متميز، هو مغالبة الحدود، وكانت الحرب ميوساً منها بحيث كان أخذها مأخذ الجد معنا الهزيمة. وكانت النساء يضحكن اتفاء للبكاء. وكان الرجال يضحكون حين لا يعودون قادرين على السباب.

ونبتت من ذلك فكاهاة الغرب. وهي أعذب الفكاهات وأبعدها عن التتميق، ولكن الأسى يكمن من خلفها. ولقد عرف صمويل كليمنس كثيراً من مآسي الحياة وهو لم يزل طفلاً. فلقد تربى في قرية في منتصف الغرب من فقراء البيض. فرأى الأرقاء يجلدون، والرجال يقتلون رمياً بالرصاص في الشوارع، وكان أبواه يعيشان عيشة الرحل، عيشة الحرمان خلا من الأمل والحب، وكانا دائماً في (الجنح الغربي) يسافران من شاطئ البحر إلى كنتوكي ومن كنتوكي إلى تنسي ومن تنسي إلى مسوري وفي مسوري ولد لهما صمويل (في ٣٠ نوفمبر عام ١٨٣٥).

وكان أبوه رجلاً تخلى عنه الناس، متوعك المزاج، فاطر الهمة، فكان قلما يلاعب أطفاله أو يبدي لهم أي حب، فوجد صمويل، ذلك الصبي الحشن الشكس الرث الضنيل الضعيف البنية العصبي المزاج أنه قد وقع تحت رحمة العالم التي لا ترحم وكانت

سنه حينذاك أحد عشر عاماً فأخرج من المدرسة وعمل صبياً لأحد الطابعين. وقد وصفه الطابع بأنه حدث ضخم الرأس، متلطح الوجه بالحر ذو قدرة متناهية على الكسل. وقد وقع في زمرة متسكعي القرية، وعلم كل جوانب الشذوذ البشري والأسى البشري. وبعد سن الثانية عشرة ببضع سنين شهد موت أخت له وأخ. وفي عامه الثالث والعشرين شاب رأسه حين مات أحد أخوته محروقاً من أثر انفجار باخرة في المسيسي. وفي سن الثلاثين بلغ من برمه بالحياة أنه "صوب غدارة مليئة إلى رأسه لكنه لم يجد في نفسه الشجاعة على شد الزناد". فقرر أن يعيش وأن يترجم أساه ضحكاً. بيد أن ما صادفه في الحياة بعدئذ لم يتح له إلاّ فرصاً قليلة للضحك وإن جاءت به بكثير من أسباب التعظيم فقد مات ابنه الأول بعد ولادته وأصيب ثان بالتهاب رئوي نتيجة لإهمال مارك توين بسبب شرود عقله. فلقد كان يركب مع الطفل ذات صباح ثلجي وكان متدثراً بأحلامه الشخصية فسي أن يدنو الطفل على نحو يقبه البرد. ونجا طفل آخر بأعجوبة حين ترك مارك توين عربة الطفل بلا اكتراث عند قمة تل شديد الانحدار.

(ما كان ينبغي أن يعهد إلي بهذه المهمة) كذلك قال حين التقطوا الطفل من بين الأحجار عند قاع التل، ورأسه ينزف دماً: (لم أكن مؤهلاً لأية مسئولية من هذا النوع فهذه مهمة من لديه على الأقل أوليات عقل، فإني ولا شك سأنسى نفسي حين ابني قلاعاً في الهواء).

وبعد سنوات كثيرة، عاد من جولة محاضرات ناجحة حول العالم.

فعلم أن (سوسي) أذكى أطفاله قد ماتت أثناء غيابه.

ثم كانت أقتم مآسيه جميعاً. ففي الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٩٠٩ كانت ابنته جين قد أرهقت نفسها طوال اليوم استعداداً لحفلة عيد الميلاد. فأعدت الشجرة ولقت الهدايا بأناقة وكتبت عليها العنوانات وصار كل شيء معداً للحفلة. وقبلت جين أباهما على عادتهما وآوت إلى مخدعها، وفي الصباح نعت جين إلى مارك توين. فلقد أصيبت بنوبة صرعية بينما هي تستحم. ما أندر من تطامنت له شهرة تفوق شهرة مارك

توين وما أندر من فاقوه تعاسة. لقد تعلم كيف يضحك في صخب، لكن صحبه كان ينطوي على مرارة.

- ٣ -

وكان مارك توين ابناً حقاً من أبناء الحدود، الحدود بين الأمل البشري واليأس البشري. فهو حينما تنقل سواء أكان ربان سفينة في المسسي، أم كاشفاً للمناجم في نيفادا، أم مراسلاً في سان فرانسيسكو فهو يزداد معرفة وألفة بالكفاح والهزائم والجهاد المتجدد الذي يقوم به (أخوته البشر، شركاؤه في اللعنة) وفي كل مكان كان يتشبع بحياة الحدود وفكاهتها. وكانت حياتها صاحبة وفكاهاتها زاخرة. وكان السابقون يحيون على الحدود بين الحقيقة المرة والخيال المسرف.

وكانت قصصهم التي خلقت في سراب صحراء خشنة، حية طروباً، تدور حول أبطال مرده، ومغامرات تفوق قدرة الإنسان. قصصاً عن أمثال شمشون من الأمريكيين الأسطوريين (كبول بنيان) الذي تصبب عرقه وهو يكدح على سفح الجبل، فتدقق إلى الوادي وكون البحيرة الملحة الكبيرة. وقصصاً خرافية عن أمثال (مانشوزن) من الأمريكيين كجيم بردجس، الذي ضل طريقه في الغابة المتحجرة، بينما هو يفر من الهنود. والذي تحجر هو نفسه في وسط الهواء حين هو يقفز عبر خانق، إذ أن قانون الجاذبية نفسه قد تحجر في تلك الغابة.

وقصصاً مغرقة في الخيال عن جرادة صغيرة قطع من عجيزتها شريحة لحم ضخمة لتقدم لكل رواد أحد المطاعم. وعن شجيرة (لفت) أوغلت جذورها في باطن الأرض. فإذا شددتها تفجرت بئر ارتوازية في وجهك قذفت بك في الهواء. وعن إبرة دفعت بها فتاة صغيرة في قدمها مصادفة فظهرت بعد جيلين في رأس حفيدتها. وكان أحب شيء إلى أهل الحدود أن يستمعوا إلى السخرية الهازلة المسرفة بأصحاب الملايين الأمريكيين المستحدثين، وكان أحد أصحاب الملايين هؤلاء يملك منحماً للفضة في نيفادا، وكان ينام في السرير العلوي بأحد الفنادق وتذهب القصة إلى أنه كان ينام في السرير السفلي عامل

عادي. واستيقظ العامل من نومه وهو يعاني آلاماً مبرحة في كل أجزاء جسمه، ولم يستطع أي دواء إبراءه من عذابه حتى ذهب إلى حمام تركي. فتصيب العرق من مسامه كومة من مسحوق الفضة تبلغ قيمتها ٤١٧ دولاراً و٩٢ سنتاً، وكان قد امتصها من صاحب الملايين الذي كان ينام في سرير يعلو سريره.

هذا مثال من القصص الشعبي الخرافي الذي كان يطرب له رواد هذه البقاع في منتصف القرن التاسع عشر. وكان هذا القصص جزءاً كبيراً من الزاد الأدبي الباكر الذي طعمه مارك توين. ولكن فضلاً عن ضحك قوم صاحبين ييجيشون بحب الحياة، كان ثمة حزن الشخصية الوادعة التي تجاهد الموت. فلقد كان مارك توين متشائماً، وكان يقول "أن الرجل الذي لا يتشائم لا يعرف عن الحياة إلا أقل القليل). أما هو فيعرف عن الحياة أكثر مما يلزم. فهي لم تجاوز في نظره مباراة بين الآلهة في كرة القدم، وخير هبة تستطيع الحياة تقديمها إلينا هي الموت (إنني لم أسرف في حسد أحد إلا الموتى، إني أحسدكم أبدا).

وحين ثار أساه ثورته الأولى بعد غرق جين، أعرب عن إيمانه بأنه ما كان ليرجعها إلى الحياة لو استطاع (لم يعد في الحياة شيء بعد فقدها، وحياتي أصبحت مريرة، ولكني قانع راضٍ. لأنها أصابت أثنى هبة، هبة الموت التي تصغر أمامها الهبات وتتضاءل. إني منذ بلغت الحلم لم أرد لصديق أطلق سراحه، أن يعود إلى سجن الحياة).

إنه يرى مع الحكيم اليوناني (سولون) أنه لا ينبغي أن نعد أحداً سعيداً حتى يموت. ولباب الحكمة البشرية، هذا الذي أثمره الشقاء البشري، يجد له متنفساً دائماً في مؤلفات مارك توين. كتب في (بودنهد ولسن) يقول "إن من امتدت به الحياة إلى أن أدرك ماهية الحياة، يدرك مبلغ الدين الفادح من العرفان بالجميل الذي علينا أن نقدمه لآدم صاحب الفضل الأول على جنسنا. فلقد جلب الموت إلى العالم". ويقول أيضاً "يقول الجميع أنه ليشق علينا أننا مضطرون إلى الموت فما أعجبها من شكوى تصدر ممن اضطروا إلى الحياة". وفي قصة (الغريب الغامض) يعلق الشيطان على السعادة البشرية بقوله "لا يستطيع السعادة إنسان عاقل لأن الحياة عنده شيء حقيقي، فهو يرى مبلغ ما فيها من

هول. وإنما يستطيع السعادة المجانين".

وكان كل هذا عند مارك توين، أجل من أن يكون موقفاً متصنعاً. فإن كلماته عن الحياة والموت تحمل في ثناياها مذاق الصدق والإخلاص.

فلقد صيغت من تجاربه الشخصية، وبرهن على صحة نصيحة هوراس للشعراء في قديم الزمان: "ليس لكاتب أن يستثير بكاء الآخرين ما لم يكن هو شخصياً قد بكى" ويقول ذلك الأمريكي من ولاية كونكتيكت "إن الألفاظ لا تحقق شيئاً ولا تبعث لك الحياة في شيء، ما لم تكن قد عانيت بنفسك ما تحاول الألفاظ وصفه" لقد كان مارك توين أشبه بوالث وبتمان، ذلك المفكر الكبير من رجال القرن التاسع عشر، الذي لم ينل حقه من التقدير، في أنه كان يفقه ما يقول إذ وصف الموت، الموت المبارك؛ بأنه الطيب الوادع الذي يحررنا من أشد الأمراض هولاً، وهو الحياة.

- ٤ -

لا تخلو سخرية عظيمة من معنى الرثاء، وكانت سخرية مارك توين تنبت من رثائه وزرأته. كان يرثى لعجز الضعيف، ويزدري تمور القوي.

يقول أناتول فرانس. إنه يمكن تلخيص التاريخ الكامل للجنس البشري في كلمات قليلة (يولد الناس، ويألمون، ويموتون) أما مارك توين فكان يود لو عدلت هذه الكلمات فصارت: (يولد الناس ويجبر بعضهم بعضاً على الألم ويموتون) فهو على حبه للبشر من حيث هم أفراد يتحرش بهم غيرهم، يمقتهم من حيث هم قطع من الذئاب يتحرشون بغيرهم.

وحين كان صحفياً شاباً نافذ البصر لاذع القلم، اضطر إلى الهرب من (سان فرانسيسكو) لأنه نتقد غش رجال الأعمال وفساد الساسة. فيمم جهة الشرق فزاد بصره نفاذاً وقلمه حدة. والشرق، وبخاصة نيو إنجلند يفضل بغريزته الصنف التالي في الجودة، إذا استعرنا العبارة البارعة لبرنارد دي فوتو (فالقوم المهذبون) قد عجزوا عن فهم ذلك الفوضوي الأحمر الشعر الآتي من الغرب، ولكن الفوضوي الأحمر الشعر قد فهم القوم

المهذبين. ووجدهم ليسوا مهذبين كل التهذيب، سواء في هارتفورد أو بوستن أو كامبردج أو غيرها.

وكان يعتبر الناس عموماً - بما فيهم هو - من أخط الحيوانات.

فإذا سئل هل يجرو على وضع إنسان في منزلة الفأر. أجاب بكل جد (كلا.. فهذا ظلم للفأر).

قال في (بدنخد ولسن) أن الفرق الرئيسي بين الإنسان والكلب هو: (أنك إذا التقطت كلباً يموت جوعاً فوفرت له أسباب النعمة، لم يعضك هذا الكلب) وكانت هذه الفكرة تشغل باله في الشطر الأعظم من سنى حياته.

وكتب قبل موته بأيام قليلة بأسلوبه الفكاه الحريف (إذا بلغت الجنة فاترك كلبك خارجها، فدخل الجنة إنما يتم على أساس المحسوبة، ولو كان بالجدارة لبقيت أنت خارج الباب ولدخل هو). لقد أعلن مارك توين:

"أن الإنسان حيوان ولكنه ليس وحشاً فإنه لم يصل بعد إلى المستوى الخلفي للوحش. فالوحش يقتل من الجوع، والإنسان يقتل من الحقد. يرى الشيطان في (الغريب الغامض) صيباً صغيراً كيف يعذب الجلادون مجدداً في الدين، وقد تقرز الصبي من المشهد فقال للشيطان (يا له من عمل وحشي) فأجابه الشيطان (كلا! بل هو عمل إنساني). يقول مارك توين: (ليس من حيوان يحترم نفسه يقبل العيش مع الآدميين لو كان له أن يختار) وفي (قصة حصان) كان حصانان فيلسوفان، الحكيم برش والحكيم مونجرل، يناقشان وسائل الآلهة ودهاء الناس.

الحكيم برش - لقد رأيت كائنات بشرية كثيرة في زمني، لقد خلقوا كما هم ولا مفر لهم من ذلك، إنهم مجرد وحوش لأن هذا طرازهم. فالوحوش تكون بالغة التوحش إذا كانت من هذا الطراز.

مونجرل - من رأيي أيها الحكيم برش، أن الإنسان بالغ الغرابة وعويص الفهم. لماذا يعامل العجماوات بقسوة؟ (فترة تفكير تستمر لحظات ثم) حينما نموت أيها الحكيم برش،

هل نذهب إلى السماء و نعيش مع الناس؟.

الحكيم برش- أي لم يكن يظن ذلك. كان يعتاد أنه لن يكون عليها العيش مع الناس في الجنة ما لم نستحق ذلك.

- ٥ -

ولم يكن اتهام مارك توين للجنس البشري اتهاماً معنوياً مجرداً، فهو من آن إلى آخر حتى في أشد كتبه مرحاً، يذكر أمثلة مادية على عدم إنسانية الإنسان مع الإنسان، فهو يحاول أن يعرض للسخرية كل صور الظلم والفساد والاستغلال والرشوة، والنفاق والقهر والكراهية والجشع.

وهو يحاول إغراق الظلم في طوفان التهكم. يغسل الطلاء الذهبي السطحي للعصر الذهبي. ويفضح الدمامة العارية للساسا والمستغلين الذين يكتسبون اللحم من مصائب رفاقهم، ويمزق خدع الطغاة والأباطرة، فإذا هم تحتها مجرد تلفيقات جوفاء. وكان الأمريكي من كونكتيكت والملك آرثر مسافرين في ثياب تنكرية فظن أنهما اثنان أما أجلاف الريف ويبيعا بيع الرقيق. فيقدر ثمن الأمريكي من كونكتيكت بثمانية دولارات أما الملك فلا يساوي أكثر من سبعة دولارات بحال من الأحوال.

والمملوك في رأي مارك توين، ترف خطر. وإذا كان على الأمة أن تعبد شيئاً فليكن أسرة مالكة من القبط. وستكون أخلاق هذه القبط عموماً أسى من أخلاق الملك العادي بكثير، وليلاحظ... أنها لم تشنق أحداً ولم تطح برأس أحد، ولم تسجن أحداً ولم تقارف القسوة أو الظلم من أي نوع. لذلك فهي أجدر بعميق الحب والتبجيل من الملك العادي من البشر. وسرعان ما تتعلق أبصار العالم المغتصب بهذه الأسرة الرحيمة الوادعة، ويبدأ المملوك القصابون في الاختفاء.

ولم يكن مارك توين يهاجم الحكام السلميين، وإنما هو يهاجم المملوك القصابين، فهؤلاء الأطفال الطغاة السيئو الخلق في الأسرة البشرية، لم تكفهم رقعة الأرض التي خصصت لهم، فاصطخبوا في طلب ما يزيد عن نصيبهم، بل ولم يقنعوا بذلك.

وكان مارك توين يمقت روح العدوان الحربي أكثر مما يمقت أي شيء آخر في العالم،
ولقد خبر في صغره من الشجار ما شفاه منه بقية حياته.

قال ذات مرة إذا شاء محب للشجار أن يحاربك فاخلع سترتك في بطاء وتعمد.
وأنظر في عينيه مباشرة، ثم في بطاء وتعمد أيضاً اخلع صدريتك، ثم شمر عن ساعدك
وواصل نظرك في عينيه. فإذا لم يكن خصمك قد فر من وجهك حتى ذلك الوقت فخير
لك أنت أن تفر من وجهه.

وليس معنى ذلك أن مارك توين كان من أنصار التهذئة، أو أنه كان جباناً. فأمره على
نقيض ذلك. إذ ما كادت الحرب الأهلية تنشب حتى تطوع في الجيش الاتحادي وظل في
الخدمة حتى أحلى منها مشرفاً. فهو لا يخاف الحرب الشريفة لكنه يفرغ من اللصوصية
الغادرة. وهو يقول "إن تاريخ البشر زاخر بتلك اللصوصية الغادرة التي تنتحل دائماً ثوب
الهدف النبيل إن قصة البشر لا تعدو سرداً موجزاً لقصة سفك دماء البشر) فقد بدأ
بسلسلة طويلة من الحروب المجهولة، اغتيالات ومذابح. ثم جاءت الحروب الأشورية ثم
كانت الحروب المصرية واليونانية والرومانية وما فيها من إغراق رهيب للأرض بالدماء..
وكان لدينا دائماً حروب، ومزيد من الحروب.. في كل أرجاء أوروبا وكل أرجاء العالم...
أحياناً لتحقيق صانع شخصي للأسر المالكة؛ وأحياناً لسحق أمة ضعيفة؛ ولكن لم يحدث
قط أن بدأ أحد المعتدين حرباً لأي هدف نظيف.. فإن تاريخ الجنس خال من مثل هذه
الحرب.

ولكن أعنف ما وجهه من اتهام إلى وحشية العدوان، وهو أعنف ما كتبه أي كاتب
أمريكي في ذلك، هو دعاء الجندي، تلك المقطوعة الساخرة، والدعاء الخيالي، الذي يقدم
صورة مادية للعقلية النابليونية (أو لعل مارك توين كان يدعوها الهتلرية لو عاش في أيام
هتلر).

(ربنا أعنا على تمزيق جنودهم بقنابلنا، فتصير جسومهم شرائح ملوثة بالدم وأعنا ربنا
على أن نغطي حقوقهم الباسمة بأشلاء قتالهم الوطنيين؛ وأعنا اللهم على أن نفرق قصف

المدافع في طوفان من صرخات جرحاهم وهم يتلوون أماً؛ وأعنا على تخريب بيوتهم المتواضعة بإعصار فيه نار؛ وأعنا على حرمانهم المأوى، فيهيمون على وجوههم مع أطفالهم الصغار بلا محب ولا صديق وسط الخراب الذي نزل بأرضهم المهجورة، في أسمال تمزقت شر ممزق جائعين صادين، تلفحهم نار الشمس صيفاً، والرياح الثلجية شتاء، كسيري الخاطر قد أضناهم العناء، ضارعين إليك أن تأويهم في القبر فتأباه عليهم. ورحمة بنا نحن عبادك أعصف اللهم بآمالهم وأجعل حياتهم وبالاً عليهم، ومد اللهم في رحلتهم المريرة، وأثقل خطاهم، وأرو الطريق غدقاً من دموعهم، ولطح الثلج الأبيض بالدماء التي تنزف من أقدامهم الجريحة! اللهم أجب دعاءنا، ولك الحمد اليوم وإلى أبد الأبدين أمين).

-٦-

كان مارك توين بمفت البغضاء، وكان هذا الشعور يشتد به أحياناً بحيث يكون عليه كما أكد ذلك (أن أمسك بقلمى، وأسطر أفكارى على الورق، مخافة أن تضطرم النار في داخلي) فلقد كان مارك توين في أوجه ينتمي إلى جماعة الأنبياء لكنه- باعترافه- كان لا يقدم للعالم دائماً خير ما عنده. فلقد كان ولعه بالتزلف بالغا، وجوعه إلى الشهرة جانحاً بحيث لا يستطيع أن يقول كل ما عنده في أي كتاب من كتبه الأولى. فكان يحاول أن يغطي الثورة التي تضطرم في روحه بنوب مما يحترم الناس. أما جولته الثائرة الصريحة الوحيدة الجادة، حين حاول تطهير سياسة سان فرانسيسكو فقد أخرجته هو من عمله وبيته. فأيقن أن لا جدوى من السباحة ضد التيار، فلقد وجد أن التماس النجاح يضطر المرء إلى أن يصل نفسه بمن في يدهم مقاليد الأمور. وكان آنسون برلنجيم وزير أمريكا في الصين قد نصحه يوماً بأن لا يكن لك شأن بصغار القوم، وعليك بالتسلق دائماً) وكانت هذه النصيحة كما كتب ألبرت بيجلوين هي (إنجيل) مارك توين الذي لم يغب قط عن ذاكرته.

وقضى مارك توين الشطر الأكبر من حياته وجل عنايته منصرف إلى التسلق فلم يكن ينشط لتأليف كتاب (ما لم يكن وراءه مال، ومال كثير) إذا استخدمنا قوله. لذلك كان يحذف- أو يدع أصدقاءه يحذفون- كثيراً من مرارة الكتب التي كان يؤلفها في فترة

(التسلق) فإن قراءه لن يفهموا، ولن يحسنوا جزاء التفكير الجدي. كتب في بودنهد ولسن يقول: "ليست السخرية مما يلائم هؤلاء الناس. فإن بصرهم العقلي ليس مهيناً لإدراكها" لذلك قدم للناس سلسلة من الكتب وطائفة من القصص الصغيرة. يوجد فيها أقل ما يمكن من المرارة ممزوجاً بأكثر ما يمكن من الحلاوة. وكان ذوقه الشخصي أسمى كثيراً من ذوق كثير من قرائه. وكان يدهش للعقلية الساذجة التي تستطيع الضحك من قصة باردة مثل **The Jumping Frog** بل ولم يكن فخوراً بشكل خاص بقصة **Huckleberry Finn** أحسن قصصه التي تنتمي إلى هذه المجموعة. وكان يتفق مع هنري جيمس على أن هذه القصص إنما تستميل العقول الأولية. وكان يكتب لجمهور كبير لأنه كان أكثر اهتماماً بماله منه بفنه. وكان يحجل لجمهوره الضخم. (أن لديكم إدراكاً للفكاهة كما تدركها الخيول لا أكثر، وجمهوركم لديها هذا الإدراك، وتلك الجمهرة ترى الجانب المضحك من آلاف الأشياء النافهة الرخيصة. مثل المفارقات البعيدة، وخاصة تلك الغرائب والسخافات التي تثير ضحك الخيل).

إنه ليحجل لجمهوره الضخم غير الناقد، ويحجل لنفسه إذ أعوزته الشجاعة على الكتابة لقراء أصغر عدداً وأدق بصرًا. قال مرة (إنك لترى أن وراء مظهري المستبشر، روحاً غاضبة مني لا تألوي زراية).

ويعترف بأن بريق الذهب قد استهواه وكان بلوغه نباهة الذكر والثراء على غير انتظار أشبهه بقصة خيالية من ألف ليلة، ولم يستطع قط أن يبرأ من العجب لها. لقد اشتغل صبي طابع فربان قارب بخاري في المسيسي فمُنقِباً فاشلاً عن الذهب في نفاذا فمراسلاً مغموراً في سان فرانسيسكو. ثم يجد نفسه على حين فجأة مؤلفاً غنياً لكتاب شهير فلقد ربح ٣٠٠.٠٠٠ دولار من قصة "الأبرياء في الخارج" وصهرًا لأحد أصحاب الملايين من ملوك الفحم فأسكره النجاح وأدار رأسه دواراً كلياً. فأخذت آماله تشرئب إلى بعيد الأهداف. شأنه في ذلك شأن الكثير من معاصريه. لقد أصبح الأدب في نظره صناعة. وكان حريصاً على أن يثبت لصهره مستر روجرز أن تأليف الكتب يدر من المال مثلما تدر تجارة الفحم وما عليك إلا أن تقدم للجمهور ما يريد.

وهكذا باع الضحك بالذهب، واستحال الذهب في يده رماداً، لأنه كان شخصية مزدوجة: جسم صمويل كليمنز المنقب عن المال وروح مارك توين المحبة للحرية.

وكان من عاداته دائماً أن يكتب في الأمور التي يخاطب فيها الناس كتابين أحدهما يعبر فيه عن آرائه الشخصية فلا ينشره. والثاني يعبر فيه عن آراء الناس، وهذا هو الذي يبعث به إلى الناشر. وكان يفسر ذلك بقوله: إن علي أن أكفل رزق عائلة، ولا يسعني أن أصحح بالحقيقة كاملة. ولكنه كان على ترددده رائداً من الناحية العقلية إن لم يكن من الناحية الخلقية. وقد تجلت روحه الخلاقة على استحياء في Tom Sawyer وفي The Prince وفي Captain Stormfield's Visit to Heaven وفي Pudd'n head وفي Wilson وفي A Connecticut Yankee وفي The Man That Corrupted Huckleberry Fin وفي Hadleyberg.

وجاءت متتالية كأنها أيام الصيف، مليئة بضوء الشمس والضحك ولكن يقاطعها. من آن لآخر قصف الرعد الساخر من بعيد. وكانت هذه الروح السباقفة نفسها هي ما تكلم أخيراً دون خوف في (الغريب الغامض).

هذا الكتاب الذي لم ينشر إلا بعد وفاته نزولاً على نصيحة زوجته، قد عرض الحقيقة آخر الأمر كما رآها. فإنه بعد أن استهدف بلوغ قوس قزح فلم يجده غير سراب. وبعد إذ جمع مالا كثيراً وبدده، وخبر (الاكتظاظ المؤسف) بالأصدقاء والشهرة، وبعد أن ذاق نعمه الحب، ومرارة فقد من أحب، قد جمع خيوط حكمته وعذابه ونسج منها قصة من عيون القصص (هي الغريب الغامض The Mysterious Stranger).

وكانت فكرة هذا الكتاب قد نمت في عقله منذ سنوات كثيرة (لقد عزمت منذ زمن طويل على أن أؤلف كتاباً كهذا بلا تحفظ. كتاباً لا يحفل بمشاعر أحد، أو بقصده، أو رأيه أو معتقداته، أو آماله أو أوهامه أو انخداعاته. كتاباً يقول قاتلي: صادراً من قلبي مباشرة في أبسط لغة، متحلاً من كل القيود على اختلاف أنواعها) هذا ما قاله لوليم دين هولنز.

كان (الغريب الغامض) فريداً في كتب مارك توين، في أن المؤلف قد كتب فيه كل ما

عنده، ولعله من الناحية الفنية يقل شأناً عن (هكليري فن) بيد أنه أروع تواليفه من الناحية الفلسفية، وهو في اعتقادنا كتابه الوحيد الذي يرفعه إلى مصاف كبار أصحاب التهكم والسخرية، سرفنتس؛ وسويفت؛ وفولتير، وأناتول فرانس.

و(الغريب الغامض) هو قصة زيارة الشيطان لإسلدورف وهي بلدة كانت بالنمسا في العصور الوسطى. وإسلدورف عالم مصغر، وسكانها قطاع من الجنس البشري. وليس هم الشيطان في هذه القصة مساعدة البشر أو إفسادهم، وإنما هو يرقب صراعنا من حين إلى حين، كأنه المتفرج المستمتع، حين لا يشغله عن ذلك ما هو خير منه. وحين أقبل على (إسلدورف) عرف ثلاثة أطفال بنفسه - فنحن جميعاً في نظر الشيطان أطفال - ومكنهم في خلال فترة قصيرة من أن يروا الحياة كما يراها هو في سامي حكمته. فبين لهم أننا قد أصرنا الحديقة الجميلة التي ولدنا فيها إلى كومة من القاذورات.

وهذا قسيس مسن هو الأب بطرس يوقف عن عمله بالكنيسة، لأنه جرؤ على توكيد القول بأن الله كله رحمة وخير، فقد تساءل أهل إسلدورف: ماذا سيبقى من تقوى الجحيم إذا سمح لمثل هذا الرجل بالبقاء واعظاً في الكنيسة. وتلهف حكام إسلدورف على قيادة الحملة الشعبية لاضطهاد الأب بطرس. فقد استنتج الحكام أن القسيس الذي يقول بأن الله لا يعذب المذنبين عذاباً أبدياً، لا بد أنه شخصياً من المذنبين. ولذلك اهتموا الأب بطرس بالسرقة وحبسوه في زنزانه في انتظار المحاكمة.

فراع مشهد تعذيب الأب بطرس الصبيان الثلاثة الذين أحبوه، ولكن الشيطان يطمئنهم إلى أن كل شيء صائر إلى الخير.

وبينما القس في انتظار المحاكمة. كان الشيطان يسلي صبيين منهم بالنظر إلى قلب الأشياء وصميمها، ولم يكن مبهجاً. أما الصبي الثالث فإن الشيطان قد أعد له تسليمة كريمة من نوع آخر، فلقد أغرقه، وبفسر ذلك لرفيقي الصبي الغريق وقد تصدع قلباهما فيقول: إن هذا أسعد حظ يمكن أن يلقاه أي كائن حي.

ويقدم الأب بطرس للمحاكمة آخر الأمر. ولا يكاد يبدو أن أمامه فرصة للتبرئة،

لأن أصحاب الأمر قد أحكموا إثبات التهمة عليه. ولكن الشيطان يقول للصبين: لا تراعوا فكل شيء صائر إلى الخير.

ولقد وفي الشيطان بوعدده حقاً، فهو لم يقنع بإثبات براءة القس الوداع. بل زاد على ذلك أنه كفل له السعادة القصوى بقية حياته.

وكانت الطريقة التي جلب بها السعادة للقس بطرس في غاية البساطة. فقد حمل للقس المسن في زنزنته نبأ كاذباً عن الحكم الذي صدر في قضيته: (انتهت المحاكمة وستظل بقية عمرك ملطخاً بعار السرقة) ولا يسمع الرجل المسن ذلك حتى يفقد رشده ويغدو سعيداً كالطير، ويعتقد منذ ذلك الحين أنه إمبراطور العالم، فينعم بمجد الحاكم المطلق دون أن يحمل شيئاً من همومه، فيشده صاحباً القس بطرس من هول الموقف.

ولكن الشيطان يعيد الثقة إلى نفسيهما بقوله: إن الجنون هو أقصى هبة- بعد الموت- يستطيع الآلهة أن يمتحوها الإنسان، فليس من طريقة يكفلون بها للإنسان سعادة مطلقة إلا الجنون المطبق. ذلك بأن العالم كما يقول مارك توين في الختام هو دارة الجنون، وما الحياة إلا كابوس مجنونه بين النوم والنوم "ومن عجب أنك لم تحدس أن عالمك وما فيه، هو مجرد أحلام ورؤى وخيال. مع أن سيرته تنبئ بصريح الخيال... شأنه في ذلك كشأن الأحلام، إنه يستطيع بسهولة خلق الأبناء الخبيرين والأشرار، فيؤثر صنع الأشرار، ويسعه أن يكفل السعادة لكل واحد منهم، فلا يكفل السعادة لأحد منهم، وجعلهم يسرفون في تقدير حياتهم المريعة، ومع ذلك فقد اختصرها في شح ومنح ملائكته سعادة أبعده دون جهد، وطالب أبناءه الآخرين أن يصيخوا بجهدهم، ووهب ملائكته حياة خلت من الألم، وأتسع أبناءه الآخرين بألوان الشقوة والمرض العقلي، والجنماني. وتحدث عن العدل وأنشأ جهنم.. وتحدث عن الرحمة وأنشأ جهنم.. وتحدث عن الحكم الذهبي والغفران، وأجزل الثواب، وأنشأ جهنم.. وخلق الإنسان لم يستشره في ذلك، ثم حاول أن يحمل الإنسان مسؤولية عمل الإنسان "إن ما أظهرتكم عليه هو الحق. ليس ثمة كون ولا جنس بشري ولا حياة أرضية ولا علوية. كل هذا مجرد حلم. حلم غريب أحمق. ليس من كائن إلا أنت، وما أنت إلا فكرة، فكرة حائرة لا جدوى منها ولا مأوى لها، تنتقل يائسة

بين القرون الخاوية".

وبعد إذ عبر الأمر عما اعتقده بإخلاص، اجتاز الساخر الحزين العظيم حدود الحياة، إلى.. من يدري؟ ربما إلى حلم أجمل وأصدق.

أهم مؤلفات مارك توين

The Celebrated Jumping Frog
Innocents Abroad
Roughing It
The Gilded Age
The Adventures of Tom Sawyer
The Prince and the Pauper
The American Claimant
Joan of Arc
Pudd'nhead Wilson
The Man that Corrupted Hadleyberg
Adam's Diary
What Is Man?
Captain Stormfield's Visit to Heaven
The Mysterious Stranger

توماس هاردي

١٨٤٠ - ١٩٢٨

ينسب إلى أرنولد بنيت أنه قال ذات مرة لفيو والبول: "إن مصيرك يتحدد يا عزيزي منذ ولادتك"، وهذه الحقيقة العالمية التي قيلت في معرض الفكاهة تتمثل كل التمثل في حياة توماس هاردي.

فقد ولد هاردي ذا جسم ضعيف وعقل قوي وروح دافقة الشعور. فكان منذ بدايته الأولى مقضياً عليه بحياة الأدب. كان في طفولته يجب أن يرقب الديدان في المستنقعات الصغيرة قريباً من منزل أبيه في دورستشير (تلك المخلوقات الصغيرة القليلة الحول التي تمضي وقتها في هو مجنون صاعدة هابطة في الماء اللزج الفاتر بالمستنقع الجاف)، وطالما تساءل ما معنى كل هذا. فإذا علت به السن أدار النفاثة إلى ديدان البشر. وهي أكبر من صاحبيتها، لكنها تستوي معها في العجز، فهي تتمرغ وتتكاثر وتموت في المستنقعات الصغيرة بالعالم. وقرر أن يجلس على جانب الطريق وأن ينفق حياته جاهداً في الكشف عن معنى كل هذا.

- ٢ -

كان عند ميلاده (٢ يونية ١٨٤٠) شديد الوهن بحيث صرح الطبيب بأنه ميت. ولكن بفضل ممرضة الأسرة التي صفعته صفعاً عنيفاً، أعيد إلى حياة قدر لها أن تستمر نحو تسعين عاماً.

كان أبوه مقاول بناء، سمح لابنه الصغير ذا الوجه العجوز أن يتجول في المرحج بدلاً من أن يذهب إلى المدرسة (دعه يعب من ضوء الشمس عباً، فإنه يستطيع أن يتمص تعليمه فيما بعد). كان تعليم الطفل الأول إذن في الهواء الطلق فطالع كتب الجداول الجارية. وأحاط علماً بالأحياء عن طريق الحواس الخمس جميعاً، وعن طريق حاسة سادسة... عطف شامل وسع كل شيء، فهو يهتز إذا رأى أو سمع الحيوانات أو الطيور

أو الأشجار. كتب فيما بعد (تعلمت في طفولتي أن لكل جنس من الشجر صوته، كما أن له ملامحه، فإذا هب النسيم تنهد شجر الشربين وأن تستبين ذلك في وضوح كما تستبين تمايله وترنحه. وشرابه الراعي تصفر وهي تصطرع مع نفسها، وشجرة لسان العصافير تنز بين اهتزازاتها، وللزان حفيف بينا أفنانه المنبسطة تعلو وتهبط).

شعر أنه والطبيعة كلها وحدة... تصله قرابة دم بالرياح والسحب والفراشة والنملة والعصفور والسنجاب والحمل ولطالما حاول في مخيلته الحية أن يتقمص شخصية هذه المخلوقات الخارجة عنه. وجعل من نفسه خروفاً ذات مرة ونزل يسعى على أطرافه الأربعة في حقل، وأخذ يأكل العشب. فإذا رفع بصره استولى عليه الارتباك- كما قال فيما بعد- إذ رأى الدهشة في أعين الخراف الأخر من منظر زميلهم الجديد في القطيع.

فلما بلغ عامه التاسع كان قلبه قد اتسق تماماً مع قلب الطبيعة. وبدا تعليمه المنظم. فبعث به أبوه إلى أكاديمية (لاست) للشبان. وهي مدرسة حرة تبعد ثلاثة أميال عن كوخ هاردي وفي كل يوم في ذهابه إلى المدرسة وعودته منها كان يقف ليأخذ في حديث ودي مع رفاقه في اللعب، تلك الخلاق البرية في مرج (اجدن) لكنه ذو ولع خاص بمشاهدة وجوه البشر، وكان عليه إذا اقترب من دورشستر وهي المدينة التي بما مدرسته أن يعبر قنطرة من الحجر وكان يجب دائماً أن يقف وسط القنطرة ويدرس من يمرون عليها (أن في وجوه البشر لكثيراً من القصص الممتع).

وكان في المدرسة أضال تلميذ يحمل أكبر رأس في فصله، وذهل مدرسه من سرعة استيعابه للعلوم. فلما تخرج في السادسة عشرة كان على أتم علم بالآداب اللاتينية والفرنسية والإنجليزية وخاصة مسرحيات شكسبير فهو يكاد يحفظها عن ظهر قلب.

وكان به شوق شديد إلى الالتحاق بالكلية، هذا الهادئ الشغوف بالدرس الحساس،

جود المغمور ٦ الضئيل. ولكن أباه لم يكن يحتمل هذا الترف. فقد آن للصبي أن يصيب رزقه. فيجب أن يعلم مهنة أو حرفة... تكون من السهولة بحيث لا تهرق جسمه الواهن الضعيف.

ترى هل يجترف الموسيقى؟ إن تومي عازف لا بأس به وقد تعلم العزف على أبيه، لكن العزف هذا لا يدر عليه مالاً فإنه كثيراً ما عزف مع أبيه في حفلات الزفاف بالريف. لكن كيف يدور بخلد عازف يحترم نفسه من (دورستشير) أن يتقاضى أجراً على هذه الخدمة الودية فهل من شيء آخر يستطيع محاولته؟ أيعمل في الكنيسة؟ ولكن تقف دون ذلك عقبتان... أنه فقير، وأنه ضئيل تفتحمه العين اقتحاماً فلم يبق غير مهنة واحدة إذن.. هي الهندسة. فالأب بناء مجيد فليكن الابن رساماً مجيداً للأبنية.

وهكذا عهد بتدريب توماس هاردي إلى جون هكس وهو مهندس يتخذ له مكتباً في المدينة المجاورة في دورشستر.

لكن هاردي ليس شديد الكلف برسم اللوحات الزرقاء. ويرى في العمل آلية لا يحتملها فهو فنان لا عالم. فكان على أمانته لعمله ينفق كل فراغه في الدراسة والأحلام. كان يصحو من نومه الساعة الخامسة صباحاً وأحياناً يصحو في الرابعة وينفق ساعتين يعلم نفسه فيهما قراءة اللغة اليونانية وما هي إلا ثلاثة أعوام حتى استطاع أن يتحدث في طلاقة مع اسكلس وهوميروس وكذلك مع كتاب العهد الجديد.

وظل محافظاً طيلة هذا الوقت على مودته مع لغته الأثرية، أجرومية الطبيعة وكان يترجم هذه الأجرومية إلى موسيقى إنجليزية، لقد عرف أنه شاعر "بدأت أكتب الشعر لأني لم أجد عنه منصرفاً. فإن أمراً قد صدر إلي بذلك من أعماق نفسي..."

أوامر من الداخل لكن لا تشجيع من الخارج "كنت أبعث بقصائدي فتعود إلي لا

٦ إشارة إلى إحدى قصصه *Jude the Obscure* وهي آخر ما كتب من قصص وشخصية جود فيها قريبة لشبهه بشخصية هاردي. وإن أنكر هو ذلك في مذكراته. انظر حياة توماس هاردي ترجمة عثمان نوبه. (المترجم)

تتخلف منها واحدة. وظلت أعواماً طويلة لا يمسه أي ناشر" وكان هاردي لا يحسن البيع، فهو أبعد الناس عن المزاومة والمدافعة. وظل حتى آخر أيامه لم يحذق فن الإعلان عن نفسه. قال سير جيمس م. باري ذات مرة "مهتما يكن الملاك الذي يحرس أبواب اللجنة فإن عليه أن يدفع بتوماس هاردي إلى داخل اللجنة دفعاً" أما الآن فليس من حارس لأبواب جنة النشر يرغب في دفعه إلى داخلها دفعاً، أو حتى في مجرد دعوته، وظل أعواماً يقدم درره، لا إلى الخنازير، بل إلى ناشرين رأوها حبات من الطين.

والحق أن كثيراً من قصائد هاردي الأولى وبعض قصائده التي تلتها كذلك كانت تحوي نسبة عظمى من الطين. ولم يكن هاردي شاعراً كبيراً، فقد كانت لديه عناصر العبقرية الشعرية. لديه الموسيقى والخيال والعاطفة، وتذوق العبارة المعبرة والفكرة المركزة والسحر الذي تتألاً به الأحرف كأنها النجوم. كل شيء كان حاضراً لديه خلا النار.

وكان هاردي يعرف هذا النقص في عناصر كفايته فهو يقول: "أخشى ألا أصير أديباً يوماً ما، لقد كتب علي أن أرسم اللوحات الزرقاء مدى الحياة".

وكذلك سافر إلى لندن مهندساً مكتملاً وشاعراً هاوياً. وعين في مكتب أحد مهندسي الكنائس يدعى آرثر بلومفيلد. وظل يعمل هنالك خمس سنوات "ذلك الرجل الملتحي الشاحب الهادئ الضئيل الذي يتكلم قليلاً ويستوعب كثيراً وهو شخص لا بأس به ولد لأبوين بالغي الفقر غير أنه فنان مكتمل في نحو السادسة والعشرين. وهو يهمل صديريته شيئاً ما، وينهش الكتب دءوباً كأنه الدودة. وقد استوعب شكسبير حتى الثمالة من الملاحظات بأسفل الصفحات، ولن ينجح مطلقاً بالمعنى الدنيوي. إذ يعوزه الجد والنشاط الضروريان لكسب معرفه الناس واستغلالهم".

هذه الصورة التي رسمها هاردي لإدوارد سبرنجروف أحد أشخاصه في رواية "علاج يائس Desperate Remedies" تمتله أصدق تمثيل في أواخر الحلقة الثالثة، ذلك الشاب الريفي الذي لا يأسر القلب، والذي لا بد له من التحوط حذار أن يتحدث بلهجة دورستشير. هو رسام مغمور يبدو أن مستقبله لا يبشر بالنجاح.

ومع ذلك فإن هذا الرسام الشاب غير المأمول الغد يقابل ويتصحب ويتزوج من فتاة تسبقه في المكانة الاجتماعية. فقد كان منوطاً به إصلاح كنيسة سنت جوليو في كورنول. وهي مهمة قد ندبه للقيام بها صاحب المكتب الذي يعمل به وأثناء عمله تعرف إلى الأنسة إيما جيفورد أخت زوج أسقف كنيسة سنت جوليو وكانت الأنسة جيفورد سليلة محامين وقسس ورؤساء شمامسة تحذق ركوب الخيل والغناء وتعرف النقش معرفة لا بأس بها وهي من المتعاليين ذوي المعارف العامة. "فماذا أعراها بي وأنا ابن بناء فقير؟ إني لا أعلم" ولكنه استطاع على نحو ما أن يطلب يدها فتتسى معطفه الرث ولحيته الشعثاء فتتزلت بقولها (نعم) وهكذا "عدت من ليونيس بكورنول" "وفي عيني بريق سحري".

ويقبل شهر عسل قصير هاذر وحياة زوجية طويلة يسودها الخلاف فإن أحدهما لم يفهم صاحبه قط فعاشا على اختلاف في النزعات الجسمية والاجتماعية. فهي تحب ركوب الجياد ويؤثر هو المشي ولم يتعلم قط ركوب الخيل ولم يستطيعا الانسجام طول حياتهما ولكن هاردي لا يشكو قط بل يحاول أن يهيئ لزوجته منزلاً مريحاً، وأن يقدم إليها على الأقل أيسر الضرورات لمن في مكانتها، وكان يعول على الهندسة في كسب عيشه فزاد ركونه إلى احتراف الأدب وأغرته إما بالتحول من

الشعر إلى النثر "ولم أرد قط أن أكتب قصصاً نثرية، ولكنني اضطررت إلى صناعتها، فالظروف (وهو يشير تجملاً إلى أما) هي التي حملتني على كتابتها".

وهكذا كان الفضل في إنشاء طائفة من أروع قصص الغرام راجعاً إلى الحاف امرأة لا تحب زوجها.

وتبنى قصص هاردي في معظمها على نظرية الحب الموجه إلى غير محب، ويتحدث (كرستوفر جوليان) عن هذه النظرية في *The Lady of the Lake* فيقول: "لقد سمعت بالحب غير المتبادل وبالحب المتبادل، وبالحب من كل نوع. غير أن هذه أول مرة أسمع فيها بالحب المسلسل. أنت تحمينني، أنا أحب ايثل برتا... وهي تحب الله أعلم من".

فالحياة كلها إذن مسلاة من الأخطاء تدور في مملكة الغرام فكل عشيق يجب شخصاً آخر غير عاشقه وكارثة العشاق جميعاً إنه لا يوجد منهما اثنان يتبادلان الغرام.

وكان من أثر هذا الموقف الساخر القائم الذي وقفه هاردي من العاطفة البشرية أن وجد طريقه وعرافاً مع الناشرين والناقدين أول الأمر. فكانت شهرته تنمو في ببطء. وكان لا بد من أن ينشر عدة قصص طبع بعضها من ماله الخاص حتى ينتبه العالم لوجود هذه الرقة الكبرى التي نمت من الحزن العظيم. فإن قصصه لتسودها نغمتان هما السخرية والرتاء: سخرية السماء ورتاء الإنسان. ولقد عجز بعض النقاد حتى في الأزمنة الحديثة— عن تبين هذا الجانب المزدوج من فلسفة هاردي فيقول أحد المعقبين المحدثين "أن هاردي لا يرى غير الجانب الدميم من الحياة".

ويقول ناقد آخر يعدله تعصباً: "لا بد أن جداً من أجداد هاردي قد تزوج صفصافة ذات شجون" على أن جل النقاد اليوم قد صاروا يتبينون في هاردي نوعاً جديداً من الجمال، جمالاً مستسلماً ذا نعمة مؤسية. ويتبينون في الوقت ذاته جمالاً إيجابياً يوضع رحمة ورقة.

جمال جديد وفلسفة جديدة. فلسفة لا هي تفاؤلية ولا تشاؤمية، بل هي بين بين ويسمبها هاردي نفسه فلسفة تحسينية. فهي جهد لتحسين العالم الذي يحوي قدراً من الشر غير يسير، غير أنه يستطيع أن يحوي قدراً من الخير كبيراً: "فواجب الناس أن يعلموا بني جنسهم كيف يواجهون ذلك الشقاء الذي كتب عليهم".

ونظرية التراحم التحسينية تلك، نظرية العجز المتبادل الذي أنبتته الشقوة المتبادلة، هذه النظرية كانت تنمو تدريجياً في فلسفه توماس هاردي. ففي قصصه الأولى كان يلوح بقبضته في وجه السماء التي لا تحفل أي احتفال بمن خلقت من الناس. وبعد ذلك نقل لومه من السماء إلى الإنسان، ولعله كان يردد مع شكسبير قوله "إن الخطأ يابروتس العزيز ليس في حظوظنا، بل هو في أنفسنا، لأننا أدلة" إنه ليس القدر ولكنه ضعفك أنت هو ما يقف دونك.. عجزك عن معرفة باب تدلف منه الحكمة إليك بدل أن يدلف الملل.. ثم أن الشر ليس من السماء، ولا من غباء الأفراد، بل إنها قسوة الإنسان في

حشد الناس، أي قسوة المجتمع.. هي المسئولة عن معظم شقائنا البشري. فكان كلما علت به السن ازداد شجاره مع المجتمع مرارة لأنه يوقع بالفرد ظلاماً منظماً، وقد كتب في عام ١٩٢٨ مقطوعة شعرية في عيد الميلاد توجز ما يشعر به من حقن على تلك الوحشية المستعصية، وحشية ذلك القطيع البشري. "قيل السلام في الأرض، فترننا بهذه العبارة. واستأجرنا مليون قسيس ليجلبوا لنا السلام. وبعد ألفي عام من الصلاة لم نصب السلام بل الغاز السام".

كان هاردي يستشير قتل الجسوم البشرية، وإزهاق الأرواح البشرية، وطالما عاود هذا الموضوع في قصصه الأخيرة. وكان يقول إن العقاب الذي تفرضه الجماعة جزاء على الخطأ الفردي يتجاوز حدود الرحمة الإنسانية. والعدل الإنساني، وتتمثل هذه النظرية وهذه الفكرة الرئيسية في فلسفته في قصة (تس سليلة دربرفيل).

كانت تس ضحية لقانون خلقي صارم وتقليد اجتماعي عنيف، فإن أباه الفاسق الأفاق جون دربرفيل لا يعلم بأنه من سلالة أسرة دربرفيل النبيلة حتى يختال زهواً. وتأخذ زوجته تحلم بزيجة براقة تليق بابنتها تس؛ لذا يلح الأبوان عليها لتعمل مربية للدواجن في مزرعة السيدة غير الدمثة (ليدي دربرفيل).

وهناك تقابل تس وولد السيدة العجوز وكان يدعي (ألك) دربرفيل.. وكان وغداً وسيماً لا وازع لديه ولا ضمير يردعه، فكان غزل وجيز وخيبة أمل وطفل... وسرعان ما يموت الطفل وتعود تس إلى آهها.

ومضي بعض الوقت قبل أن تجد الشجاعة على مواجهة العالم من جديد، ولكنها تقبل آخر الأمر وظيفة حالبة بمزرعة (تالبوذي) وهناك تتعرف إلى (إنجيل كبير) وهو ابن قسيس عجوز، وكان إنجيل قد تحول من رعاية الأرواح إلى فلاحية الأرض... الأمر الذي ملأ أباه أسفاً.

وتوثقت الصلة بين الإثنين، فإذا أعلن إنجيل حبه لم تجرؤ تس على إظهاره على حياتها الماضية. فإن حلمها لأجمل من أن يحطمه ذلك الوحش الدميم، التقليد الاجتماعي.

ويقترب يوم الزفاف، وتكتب في لحظة من لحظات اليأس الصادق خطاب اعتراف مطولاً. وتقذف به تحت الباب. ولكن يدها تفوقها يد القدر ذات السر الغامض، فينزلق الخطاب تحت البساط وتهتدي قبل الزفاف مباشرة إلى الخطاب وتمزقه، إن شجاعتها على تحمل العقاب لأضعف من ظمئها إلى الحب.

فيتزوجان وفي عودتهما من الكنيسة يسمعان نعيق غراب رمزاً على إنكار المجتمع. يا له من صوت جاء في غير وقته. غراب ينطق بعد الظهر، يا له من فأل سيئ.

وتقيم تس وإنجيل في منزل ريفي شاعري عتيق. وهناك يعترف إنجيل بجرمته الوحيدة فقد قضى يومين ماجنين مع امرأة حمراء اللون، وطلب إلى زوجته الصبح فتسارع إلى الصبح عنه، ثم تروي هي قصة خطيئتها، ولكن إنجيل كبير يعوزه ما لديها من استعداد للصفح. إنه المستوى الثنائي للمجتمع.. إن المرأة يجب ألا تخطئ.

ويحدث الانفصال وتعود تس إلى آلهما فتأخذ أمها الأمر في يسر ولكن جراحاً بالغة قد أصابت كبرياء أبيها الدربرفيل الكثير. فقد عد الأمر خطيئة منها لا تغتفر.

وتجد تس عملاً في المزارع صيفاً، وتخصص جزءاً كبيراً من رزقها لإعانة أبويها. فإذا تقدم الشتاء فقدت معظم عملها. عمل قليل الأجر قدر شاق تعقبه فترات طويلة من الجوع واليأس فقررت آخر الأمر أن تقوم بمحاولة يائسة واحدة لترى أبوي إنجيل لعلها تحيط ببعض أخباره وتكدهج في سيرها أميلاً كثيراً خلال المطر والثلج ولكنها تجد دار الراعي خاوية.

فتعود أدراجها وتقضي أياماً أخرى طوالاً يعضها الجوع، ويحتم عليها كابوس الذلة التي لا أمل لها في الفرار منها. إن المجتمع يجب أن ينال منها ضريبته.

وكانت تمر يوماً بأحد مخازن الحبوب فسمعت صوتاً صخاباً لمتجول يصيح. إنه لصوت تعرفه فتتظر في داخل المخزن فتري فيه ألك دربرفيل ويتوسل إليها ألك أن تعود معه، فترفض أول الأمر ولكن فقر أمها بعد موت أبيها... يضطرها إلى الإذعان آخر الأمر.

فتمنح جسمها لألك، ولكن قلبها لا يزال في تجواله بحثاً عن إنجيل كبير. وكان هو أيضاً وقتذاك يبحث عن تس وهو تعس مريض قد خفت غضبه القديم ولم يخلف في مكانه غير شوق عميق إلى عروسه، ويجدها في نزل حديث الطراز: امرأة قد سقطت. إن القدر الذي لا يرق ولا يرحم كما يتمثل في العرف الاجتماعي.. قد عقد ظروف حياتيهما بحيث يعجزهما عن استئناف ما كان بينهما. فيأخذ إنجيل كبير في السير إلى بلده.

وتلحق به تس في بعض ضواحي المدينة وتقول (لقد قتلتته... إنه يسبك فأدبت بهذا ما لك عندي من ذمم. ولم يكن من طريق لاستعادتك غير هذا).

ويخرجان من مشهد آلامهما وقد أمسك كل منهما بيد صاحبه.

لقد جمع القدر شملهما آخر الأمر. ولكنها لحظة واحدة من السخرية الفاجعة. فيقبض عليها فجر اليوم، وتغرب آمالها مع مشرق الشمس، وتحاكم تس وتثبت إدانتها. وما هي إلا ثماني دقائق تبعث من الناقوس، ثم يتلوى في الهواء شبح أسود. لقد وفّت تس بدينها للعرف الاجتماعي.

- ٤ -

حينما نشرت (تس سليلة دربرفيل) هوى النقاد على هاردي كأهم سرب من العقبان. "إنه كاتب ديني لا ريب" كذلك كان الحكم الاجتماعي عليه كما لخصه ولیم جيمس في قوله: "من كان يستطيع أن يخلق بطله بهذه الدناءة" وكان من المستحيل في وسط هذه الضجة الحشنة من الاتهام أن تسمع تلك الأصوات القليلة الضعيفة التي تطري الكاتب وتمتدحه. فقد أدركت هذه القلة أنه قد وجد أخيراً أديب من الإنجليز يجروء على الانتصار للرحمة، والتوسع في التسامح، ونبذ النفاق الاجتماعي.

أما هاردي فلم يفعل للقادحين أو المادحين غير أن هز كتفه وهو يقول (مهما يكن من الأمر فقد أودعت هذا الكتاب خير مألدي).

ووضع (خير مالدي) في قصته الهامة التالية (جود المغمور) ٧ فأثار على نفسه بركاناً من القدرح والظعن. فهذا أحد المعقبين يقول في صحيفة أمريكية "أن هاردي قد أخزى نقاده.. وصدّم أصدقائه ويبدو أن عقل مستر هاردي كان في دركه الأسفل طوال كتابته هذه القصة، فهو يخرج عن طريقه ليكون قدراً وقحاً. وأني لم أتم قراءة هذه القصة حتى فتحت النافذة ليدخل إليها الهواء النقي" وقد وصف كاتب أمريكي قصة جود: بأنها من أوقع الكتب التي قرأها في حياته. ورسمت مجلة بريطانية صورة هزلية لهاردي فصورته عملاقاً ضخماً غليظاً يدوس وردة في الوحل مثيراً من الطين رذاذاً يصيب كل من وقف على مقربة، وحرقت محاضر بريطاني أمام الملأ كتاب جود المغمور.

وقد اضطر هاردي حين نشرت أجزاء من الكتاب في إحدى المجلات إلى بتر الأشخاص والمواقف، فصارت هذه الأجزاء شيئاً ميبأ زالت معاملته. ومنذ ذلك الوقت صار الناشر يرفضون قصصه، أو يعيدون كتابتها لتلائم حساسية القراء. ويروي هاردي للسيدة وارتون محزوناً أنه كان في إحدى هذه القصص قد وصف نزهة بريئة قام بها البطل والبطلة يوم الأحد، فلما عرض القصة على ناشر أسكتلندي رد إليه القصة وطالب بنقل النزهة إلى يوم آخر من أيام الأسبوع.

فامتعض هاردي وقال: (كنت أحسب أني أكتب لقراء أذكياء) لقد كانت قصصه أقوى من أن تحتفلها أذواق القرن التاسع عشر المثقلة بالتقاليد. فقرر أن يعود إلى أشعاره "فلن يؤدي شعري أحداً لأنه لن يقرأه أحد".

فألف ونشر ثمانية مجلدات من الشعر الغنائي، وملحمة عن حياة نابليون. دعاها العواهل. وقد استعاد تدريجاً ما فقدته من احترام.

فانتهى أمره بأن صار لا يقرأه أحد ويعجب به جميع الناس وانتقل في وقار إلى

٧ إن قصة جود المغمور تمثل الصراع بين نفسين مرهفتين، وبين العرف الاجتماعي الخشن القاهر الغلاب. ولم يتزوج البطلان وإن عاشا عيشة الأزواج وأنجبا الأطفال. أما زوجة البطل الشرعية، التي لم يلبث أن طلقها وإن ظلت تلاحقه، فكانت من تاجرات الجسد اللاتي تحففن من الضمير والخلق والشعور. (المترجم)

شيخوخة لم يزعجها غير فقد زوجته وكان ذلك صدمة قاسية برغم ما كان بينهما من خلافات. فالحياة العاصفة ذاتها لا تخلو من نكهة شهية.

وأعقب العاصفة هدوء، فقد تزوج ثانية وهو في الرابعة والسبعين من امرأة في الخامسة والثلاثين فاجتمع الخريف والربيع لأول مرة في وفاق تام.

ومع أن زوجة هاردي الثانية كان من حقها أن تدعو نفسها شاعرة، فقد قنعت بمجد الانتساب إلى شاعر مجيد.

وذات غروب رائع رزين أنهى يوم حياته الطويل، وترك وراءه ذكرى جميلة نبيلة، قال فيها جون ارفين:

"لقد تعلمنا منك أن القلب المعتد بكرامته يستطيع إخضاع الأقدار القاسية لمشيئته. وقد كشفت في كل ما كتبت عن روح الإنسان يقتحم طريقه من خلال الهزائم".

أهم مؤلفات هاردي

Desperate Remedies

A Pair of Blue Eyes

Under the Greenwood Tree

Far from the Madding

Crowd

The Hand of Ethelberta

The Trumpet-Major

The Well-Beloved

The Dynasts

The Mayor of Casterbridge

The Woodlanders

A Group of Noble Dames

Tess of the D'Urbervilles

Life's Little Ironies

Jude the Obscure

تمثيلية شعرية

وكثير من دواوين الشعر الغنائي

الفهرس

المؤلفان	٥
تصدير	٧
مقدمة المؤلفين	١١
جيوڤاني بوكاشيو ١٣١٣ - ١٣٧٥	١٣
فرانسوا رابليه ١٤٩٥ - ١٥٥٣	٢٦
أهم مؤلفات رابليه	٣٨
ميجل دي سرفانت ١٥٤٧ - ١٦١٦	٣٩
أهم مؤلفات سير فانت	٥٠
دانيال ديفو ١٦٦١ - ١٧٢١	٥١
أهم مؤلفات ديفو	٦٠
جوناثان سويفت ١٦٦٧ - ١٧٤٥	٦١
أهم مؤلفات سويفت	٧٤
لورانس سترن ١٧١٣ - ١٧٦٨	٧٥
أهم مؤلفات سترن	٨٦
سير والترسكوت ١٧٧١ - ١٨٣٢	٨٧
أهم مؤلفات سكوت	٩٧
أونوري دي بلزك ١٧٩٩ - ١٨٥٠	٩٨
أهم مؤلفات بلزك	١١٣
اسكندر ديماس "الأب" ١٨٠٢ - ١٨٧٠	١١٤

- ۱۲۴..... أهم مؤلفات دیماس
 ۱۲۵..... فیکتور ماری هیجو ۱۸۸۵ - ۱۸۰۲
 ۱۳۵..... أهم مؤلفات هیجو
 ۱۳۶..... جوستاف فلوبیر ۱۸۸۰ - ۱۸۲۱
 ۱۴۵..... أهم مؤلفات فلوبیر
 ۱۴۶..... ناثانیال هوٹورن ۱۸۵۴ - ۱۸۰۴
 ۱۵۸..... أهم مؤلفات هوٹورن
 ۱۵۹..... ولیم ماکیس ٹاکری ۱۸۶۳ - ۱۸۱۱
 ۱۷۲..... أهم مؤلفات ٹاکری
 ۱۷۳..... شارلز دیکنز ۱۸۱۲ - ۱۸۷۰
 ۱۸۵..... أهم مؤلفات دیکنز
 ۱۸۶..... فیودور میخائیلوفتش دستویفسکی ۱۸۲۱ - ۱۸۸۱
 ۲۰۱..... أهم مؤلفات دستویفسکی
 ۲۰۲..... لیوتولستوی ۱۸۲۸ - ۱۹۱۰
 ۲۱۳..... أهم مؤلفات تولستوی
 ۲۱۴..... جی دی موباسان ۱۸۵۰ - ۱۸۹۳
 ۲۲۹..... أهم مؤلفات موباسان
 ۲۳۰..... ایمیل زولا ۱۸۴۰ - ۱۹۰۲
 ۲۴۳..... أهم مؤلفات زولا
 ۲۴۴..... صمویل لانهورن کلمنس
 ۲۴۴..... مارک توین ۱۸۳۵ - ۱۹۱۰

- أهم مؤلفات مارك توين..... ٢٥٩
- توماس هاردي ١٨٤٠ - ١٩٢٨ ٢٦٠
- أهم مؤلفات هاردي ٢٧١